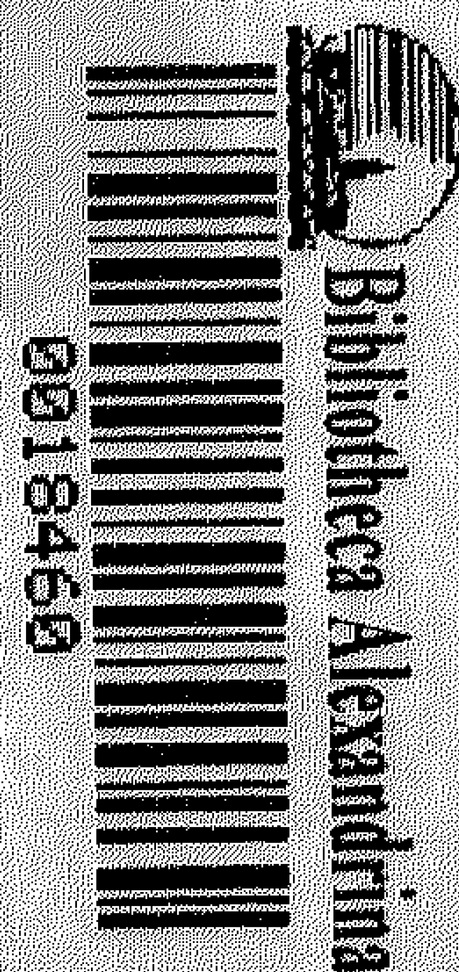
دار الثقافة

جون كلفن

دراسة تاريخية عقائدية





تأليف دكتور القس
حنا جرجس الخضرى

جون كلفن

حياته وتعاليمه

الدكتور القس حنا جرجس الخضرى



طبعة أولى

صدر عن دار الثقافة - ص . ب . ١٢٩٨ - القاهرة .
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم إقتباس أو إعادة نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أى جزء منه بدون إذن الناشر ، وللناشر وحده حق إعادة الطبع)
٤٦٩/١٠ ط ١ (١) ٣ - ٣ / ٨٨
رقم الايداع بدار الكتب : ٢٧٤٣ / ٨٩
الرقم الدولى : ٧ - ١٠٢ - ١٦٦ - ٩٧٧

طبع بدار نوبار للطباعة

فهرس الكتاب

اهـــــداء

إلى أصدقاء وقفوا معى فى أوقات كنت فى أشد الحاجة إلى وجودهم بجانبى ، فعضدونى بمحبتهم وعلمهم وصراحتهم :

الدكتور رشاد سامى برسوم الأستاذ بكلية الطب
والدكتور القس لبيب مشرقى
والدكتور القس صموئيل حبيب
والدكتور القس كينث بيلى
والقس إميل زكى
والدكتور رمسيس نصحى وعائلته

المؤلف

تمهيد

يعتبر المصلح يوحنا (جون) كلفن من أعظم قادة حركة الإصلاح فى القرن السادس عشر ، إن لم يكن أعظم مصلح ظهر فى هذه الحقبة فى فرنسا وسويسرا . كان هذا الرجل — ولايزال عملاقاً ، قل من هو على مثاله . وإننا نعتقد بأنه من الضرورى على كل خادم مسيحى مهما كانت طائفته، لا أن يدرس فقط تعاليم يوحنا كلفن بل أن يشجع شعبه على دراسة بعض كتاباته . إن هذا المصلح يحتل مكانة مرموقة ، فى غاية الاهمية فى تاريخ الإصلاح ، ليس فقط فى سويسرا التى قام بالعمل الإصلاحى فيها ، بل فى وطنه فرنسا وفى العالم كله . فإن كان لوثر يدعى أباً للكنائس اللوثرية فان يوحنا كلفن يدعى أباً ومؤسساً للكنائس الكلفنيه المشيخية . فهو الذى قام بتأسيس النظام المشيخى فى العالم . وان كنيستنا الانجيلية فى مصر جزء من هذه الكنائس المشيخية الكبيرة التى أسسها كلفن وانتشرت فى رقعة متسعة من العالم : فى سويسرا وفى فرنسا ، واسكتلندا وانجلترا وفى بلاد أخرى كثيرة فى أوروبا وامريكا . ومن اسكتلندا وأمريكا جاءت تعاليم يوحنا كلفن الى آسيا وأفريقيا فمصر . فمن الضرورى لا بل من اللازم أن تدرس حياة وتعاليم هذا الرجل . ولأجل هذا السبب نقدم هذا الكتاب راجين بنعمة الله أن يملأ هذا الفراغ ولو بطريقة متواضعة .

ينقسم هذا الكتاب الى جزئين : فى الجزء الأول نقدم حياة المصلح من ميلاده الى موته ، ونتعرض فى هذا الجزء للبيئة التى ولد وتربى وعاش فيها هذا الرجل ، ثم المراحل التى مر بها فى دراساته وتجديده ، صراعه والدور الذى قام به فى حركة الإصلاح ، صراعه ضد المعارضين : أمثال بولسك ، برتيليه وميشيل سرفه ، وهل كان موافقاً على حرق ميشيل سرفه ومن هو ميشيل سرفه ؟

وفى الجزء الثانى ندرس بعض تعاليمه :

ماهو مفهومه لمشكلة الخليقة ، العناية الإلهية ، الكتب المقدسة وهل يقبل عقيدة أن الكتاب المقدس هو موحى به من الله وما هو نوع هذا الوحى ؟ ثم نتعرض أيضا لتعاليمه الخاصة بالاختيار . هل الله اختار البعض للحياة الأبدية

ورفض البعض الآخر ، وكيف ؟ ما هو موقفنا من هذا التعليم ؟ ما هو مفهومه لفريضتى العماد والعشاء الربانى ؟...

وفى شرحنا لتعاليمه نحاول أن نقدم أفكاره بكل دقة ممكنة ، ذاكرين المراجع التى استخدمناها حتى يستطيع الدارس أن يرجع إليها بنفسه اذا أراد التوسع فى دراسة أى موضوع من هذه الموضوعات .

وفى الحديث عن تعليم هذا المصلح العظيم ، نود أن نلفت نظر الدارس الى النقاط الاتية :ـــ

١ ـــ إن كانت الكنائس الانجيلية قد تمسكت بنوع خاص والكنائس التقليدية بنوع عام ، بضرورة وأهمية دراسة الكتاب المقدس ، فاننا نعتقد بأن دراسة تعاليم الآباء وكذلك تعاليم المصلحين فى غاية الأهمية . فمع أننا لانضع بأى حال من الأحوال تعاليم الآباء والمصلحين على قدم المساواة مع الكتاب المقدس ، إلا أننا نعتقد أن دراسة تعاليم الآباء والمصلحين فى غاية الاهمية . وعلى كل إنجيلى متمسك بعقيدته الانجيلية ، أن يدرس ليس فقط الكتاب المقدس الذى هو دستورنا للتعليم الصحيح المستقيم ، بل أن يدرس أقوال الآباء والمصلحين أيضا .

٢ ـــ إن كثيرين من آباء الكنيسة استطاعوا ان يقدموا للعالم شهادة لامعة حية وقوية عن شخص الرب يسوع المسيح ، وعن سبب الرجاء الذى كان فيهم . وعندما جاء عصر الإصلاح لم يرفض المصلحون أقوال وكتابات الآباء فى محاولتهم إصلاح الكنيسة ، بل بالعكس ، فإن كثيرين من المصلحين رجعوا الى أقوال الآباء والى تفسيراتهم وتعاليمهم ، لكى يثبتوا للكنيسة الكاثوليكية التى كانوا يريدون إصلاحها فى ذلك الوقت ، بأنهم يتمسكون هم أيضا بأقوال الآباء ويرجعون إليها لكى يؤيدوا بها تعاليمهم . وجدير بالذكر أن كلفن قد اقتبس فى كتاباته التسعة والخمسين مجلداً حوالى ثلاث آلاف اقتباس من أقوال وتعاليم الآباء ، ويقدم لنا السيد إدمون بريه Edmond Perret الاقتباسات التى رجع إليها المصلح الفرنسى ، فيقول ما ملخصه ، بأن كلفن قد نهل من ينابيع الآباء الشرقيين أمثال أكليمندس الرومانى وأغناطيوس الإنطاكى ، ومن تعاليم

المدرسين قدراً كبيراً جداً . فإن الاقتباسات التى ظهرت فى كتبه الأربعة فقط التى تدعى أسس الديانة المسيحية وصلت إلى ٧٨١ اقتباساً من ٦٦ مؤلفاً . فقد اقتبس ٥ إقتباسات من كتابات آباء القرنين الأول والثانى . كما أنه اقتبس ٥٢ اقتباساً من تعاليم الآباء الذين سبقوا مجمع نيقية . كما أنه اقتبس ايضا ٨٥ اقتباسا من تعاليم الآباء الشرقيين الذين عاشوا فى الفترة مابين مجمع نيقية ومجمع خلقدونيه . ثم ٤٩٠ اقتباسا من الآباء ، فلقد اقتبس من تعاليم أغسطينوس وحده ٣٨٩ اقتباسا . من هذا يتضح لنا جيداً الأهمية الكبرى التى أظهرها كلفن للآباء وكتاباتهم . إن الآباء واقوالهم ملك للكنيسة العامة شرقاً وغرباً ، وعلى الكنيسة كلها تقليدية أو مصلحة ان تفخر بهم وان ترجع الى بعض تعاليمهم كما رجع اليها كثير من المصلحين .

٣ ـــ كان كلفن استاذ عصره فى التفسير والتعليم ، فاستطاع بنعمة الله والمواهب الكثيرة التى منحت له ، أن يوقظ الكنيسة من نومها العميق ويقودها إلى نهضة كتابية . فهو يعتبر رجل الدراسة الكتابية ، لان كل أعماله وتفسيراته واحكامه واللوائح التى قام بتأليفها وتطبيقها ، كانت مبنية على الكتاب المقدس ، الذى يتمتع بالسلطان المطلق على الكنيسة . فإن الكنيسة تستمد سلطانها من الكتاب المقدس وليس العكس .

٤ ـــ احتلت تعاليم كلفن منذ القرن السادس عشر حتى الآن مكانة هامة مرموقة فى الكنيسة وفى تاريخ العقائد المسيحية وتمسك ويتمسك بها الكثيرون حتى الآن فى العالم كله .

٥ ـــ يعتبر الكثيرون بأن تعاليم المصلح الفرنسى تعاليم أرثوذكسية كتابية محافظة ويجب التمسك بها والمحافظة عليها . فقد ترك ٥٩ مجلداً من تعليم وتفسير ووعظ يرجع إليها الكثيرون فى العالم .

٦ ـــ كان كلفن عظيماً فى تفسيره وفى تعاليمه . ومع ذلك فإننا لانتفق معه فى بعض النقاط التعليمية ، وسنتعرض لنقاط الخلاف هذه فيما بعد . وهنا نريد أن نلفت نظر الدارس إلى نقطة فى غاية الأهمية : فعندما نقول باننا لانتفق مع المصلح على بعض النقاط،نعلن فى نفس الوقت ـــ كما نعتقد ـــ أنه قد أخطأ

فى بعض تعاليمه وفى بعض تفاسيره . وهذا يعنى أننا لانحاول بأى حال من الأحوال أن نخفى بعض أغلاط هذا المصلح العظيم . فمع أنه علم بتعاليم عظيمة سامية ، لكن هذه التعاليم لم تخلُ من بعض الأخطاء . والأمانة العلمية والدقة فى البحث يتطلبان الاعتراف بصراحة بهذه الأخطاء . فان كنا نعترف بهذه الاخطاء ، فاننا نعترف أيضاً بأن كلفن إنسان ، وكأى انسان فإن تعاليمه غير معصومة من الخطأ ، وأن الأساس الوحيد المعصوم من الخطأ والذى بنى عليه إيماننا ، ليس كلفن بل شخص الرب يسوع المسيح وحده .

٧ ــ كان للكنيسة الكاثوليكية التى خرج منها كلفن أغلاطها ، وكان للمصلح الفرنسى أغلاطه أيضاً ، ولكن كل منهما تمسك بموقفه ورفض تعليم الآخر . وتعترف الكنيسة الكاثوليكية حالياً ببعض الأخطاء العقيدية التى ارتكبتها فى تلك العصور ، كما تعترف أيضاً الكنيسة الانجيلية بدورها ببعض الأخطاء التى ارتكبها المصلح الفرنسى فى بعض تعاليمه . وهنا نجد أرضية جديدة للحوار المسكونى فى العصر الحاضر . فإن الظروف التى كانت تعيش فيها كنيسة القرن السادس عشر والقرون التالية ، تختلف تماماً عن الظروف التى تعيش فيها كنيسة اليوم . فعلينا إذاً أن نبدأ من جديد حواراً مسكونياً تسود فيه روح الإخلاص والمحبة والرغبة الصادقة للوصول إلى الوحدة الحقيقية . إن تحقيق الوحدة المسيحية لايعنى بأن كل الكنائس المسيحية المختلفة المتنوعة تتخلى عن مذهبيتها وتعاليمها وتصير كنيسة واحدة وتقبل تعليما واحدا ؛ كلا إن الوحدة الصحيحة تتحقق عندما تجتمع كل هذه الكنائس المختلفة فى تقاليدها وعاداتها وتعاليمها وطقوسها وفرائضها لكى تتعبد معا بروح واحدة لشخص الرب يسوع المسيح الفادى والمخلِّص . إن الوحدة المسيحية لاتعنى بأن ينضم كل المسيحيين إلى الكنيسة الكاثوليكية أو الأرثوذكسية أو الانجيلية ، معترفين بتعاليم طائفة واحدة فقط لاغيرها ، بل إن الوحدة المسيحية الحقيقية تتحقق فى اللحظة التى فيها يجتمع الكاثوليكى والأرثوذكسى والانجيلى معاً لدراسة كلمة الله وطلب مشيئته الصالحة وقيادته الحكيمة ، دون أن يكون الهدف كسب الآخر لطائفته أو لأفكاره وتعاليمه الشخصية .

ان الظروف التى تمر فيها الكنيسة الآن تتطلب من كل مسيحى حقيقى أن يسعى للوحدة الحقيقية المخلصة ، لكى نستطيع أن نواجه بشجاعة وثبات وإيمان تحديات العصر المختلفة المتنوعة حتى يمكن أن نحقق صلاة الرب « ...ليكون الجميع واحداً ....ليؤمن العالم انك أرسلتنى » (يو ١٧ : ٢١)

الجزء الاول

الفصل الاول

ميلاد يوحنا (جون) كلفن والوسط الذى تربى فيه

كان الظلام الذى يسيطر على العصور الوسطى (٤٧٦ ــ ١٤٩٢) كثيفا مروعا*. فمع أن الرب فى محبته وأمانته لم يترك نفسه بلا شاهد فى أى عصر من العصور (أع ١٤ : ١٧) إلا أن فترة العصور الوسطى عرفت بالتأخر والجهل والظلام ، وفى أثنائها أهمل كثيرون من قادة الكنيسة المسئوليات الأولى التى فرضها الرب على كنيسته ، بأن تكون خادمة كسيدها ، وتناحروا على المناصب العالية والمجالس الأولى ، فأصبحوا أسياداً مخدومين يصدرون أحكامهم وأوامرهم . وبعد هذه الفترة المظلمة جاءت حقبة أخرى تدعى بعصر النهضة (Renaissance) بدأت فى ايطاليا فى القرن الخامس عشر ، ومنها إنتشرت فى كل أوروبا تقريبا . كانت فترة نهضة علمية ودينية وروحية لم يسبق لها نظير . والدارس المدقق للتاريخ يلاحظ بدهشة كما لو كان عدد كبير من جهابذة العلم والدين على موعد فى هذه الحقبة من الزمان لكى يحاربوا معاً الجهل الذى كان يسيطر على أوروبا ، فنرى : ـــ

١ - اراسم وبوديه (Bude) وربليه (Rabelais) وباراسلى (Paracelse) ودورر (Durer) وميخائيل انجلو(Michel-angelo) وفنشي(Vinci) ورافايل (Raphael) وبرامنت (Bramante) وكورتز (Cortez) ومجلان (Magellan) وكولوم (Colomb) وكبرينك (Copernic) وماكيافل (Machiavel) واينياس (اغناطيوس) وليولا (Loyola) ومارتن لوثر (Martin Luther) وبوسر (Bucer) ويوحنا كلفن (J.Calvin) وآخرين .

---

* ان هذا القول لاينطبق على كل هذه الفترة من العصور الوسطى بل على الجزء الاول منها

أيضاً . فعندما وقف الفارس الألمانى اولريتش فون هوتن متأملاً جماعة القادة والعظماء والعلماء التى ظهرت فى هذا العصر صرخ قائلا : « ياللك من عصر جدير بأن نحياه » .

وفى هذه الفترة أيضا ، تعرضت الكنيسة إلى تغيرات كثيرة متنوعة ، فعندما اختفى المصلح السويسرى زونجلى فى سنة ١٥٣١ ولوثر فى سنة ١٥٤٦ ، اجتازت حركة الإصلاح محنة عصيبة قاسية ، وخاصة أثناء اجتماع مجمع ترانت فى سنة ١٥٤٥ ، الذى قرر مقاومة الإصلاح بكل الوسائل ، وألف لجنة تدعى « ضد الاصلاح » . وهنا ظهرت جماعة اليسوعيين الذين استخدمتهم الكنيسة كاداة فعالة وقوية مصلحة للكنيسة الكاثوليكية ، وللقضاء على الكنيسة المصلحة. فى هذه الفترة العصيبة الماسية ، أرسل الرب سحابة أخرى من الشهود وعلى رأسهم المصلح الفرنسى العظيم يوحنا (جون) كلفن (John Calvin) .

ميلاده والجو العائلى الذى نشأ فيه

ولد يوحنا (جون) فى يوم ١٠ يوليو ١٥٠٩ فى مدينة نويون (Noyon) فى مقاطعة بيكاردى (Picardie) [1] وتبعد عن باريس ناحية الشمال بحوالى ١٠٠ كيلو متر.

كان جده (لأبيه) ملاحا على نهر واز (Oise) ، وكان يسكن قرية بونت لفك (Pont-LEveque) القريبة من نويون . ولقد أنجب ثلاثة أولاد وهم ريتشارد (Richard) ويعقوب (Jacques) وجيرارد (Gerard) وترك جميعهم قرية بونت لفك . فإن ريشارد ويعقوب ذهبا إلى باريس وعملا هناك كحدادين وصانعى كوالين ، أما جيرارد وهو الابن الثالث فقد ذهب إلى مدينة نويون [٢].

1- J.CADIER. MXT. P.5-8

كانت منطقة بيكاردى حقل صراع ونزاع بين انجلترا وملوك فرنسا (١٤٥٣ ــ ١٣٣٧) كما امتازت بكتدرائياتها وكنائسها العظيمة .

2- Jean Rilliet: Le Vrai Visage de Calvin, Penseé Privat. PP. 15-16.

مصلح فى المنفى جون كلفن موجز عن حياته ومبادئه بقلم دكتور هارى ايرتس ترجمة وليم وهبه بباوى ص ١٩

كان جيرارد كلفن (Gerard Calvin) ذكياً طموحاً ، لذلك فقد استطاع أن يجمع فى فترة قصيرة عدة مناصب ووظائف فى وقت واحد . فقد تعين فى سنة ١٤٨١ كمسجل رسمى للعقود الخاصة بمدينة نويون ، كما أنه كان يشغل أيضاً وظيفة وكيل للأعمال المالية الخاصة بالكنيسة والكهنة ، وسكرتيراً لأسقف العائلة الأرستقراطية شارل هانجزت ، ومستشاراً للاكليروس ونبلاء المدينة . وقبل جيرارد كلفن فى طبقة البورجوازية [3] فى سنة ١٤٩٦ . وعندئذ تزوج من فتاة بورجوازية أيضاً ، وهى ابنة لرجل غنى صاحب فنادق من نفس المدينة وتدعى جآن ليفرانك(Jeanne Lefranc) . وتعرفنا المخطوطة التى اكتشفت فى القرن السابع عشر والمنسوبة للكاهن دسمى (Desmay) بأن جآن ليفرانك كانت فتاة رائعة الجمال مثالية فى أخلاقها ومتعبدة .... تعودت أن تصطحب طفلها يوحنا لزيارة الأماكن المقدسة .... وفى حقيقة الأمر إننا لانعرف إلا القليل والقليل جداً عن أمه . فإن كلفن يختلف تماماً عن لوثر فى هذا المجال . إن مصلح ألمانيا كان يتكلم كثيراً عن عائلته وعن زوجته المحبوبة كاثى وعن الجو الذى عاش وتربى فيه [4] ، أما كلفن فقد اسدل ستاراً على كثير من الأمور الخاصة بحياته العائلية . فلا نعرف إلا القليل عن حياته ؛ ومن هذا القليل الذى وصل إلينا نعرف بأنه كان فى صحبة والدته عندما يتكلم عن بقايا القديسين قائلاً « أتذكر أننى قبلت بعضا منها فى دير أوركامب

3- Calvin Sources Evolution de sa Pensée Religieuse, par Francois Wendel, Presses Universitaires de France. p. 2-4-

Jean D. Benoit. Jean Calvin. La Vie LҺomme La Pensee La Cause. 7-8.

Jean Cadier. Calvin. LHomme que Dieu a dompte Labor et Fides. P.5-10.

Jean Cadier, Mythes et Religions. 5-8.

Eugéne Choisy. Calvin Educateur des Consiences. p.11-14.

* إن طموح وجهاد جيرارد كلفن يذكرنا بشخصية أبى مارتن لوثر : د.القس حنا جرجس الخضرى ص ١٢

4- G. Rilliet. Op. Cit; p. 18-19.

J. Cadier, LҺomme. Op. Cit; 8-12

J. Cadier Mythes 8-9

Bossert Les Grands Ecrivains Francais. p. 9-10;

E. Choisy. 10-11

حديث مع جون كلفن للقس لبيب مشرق ص ١٤

(Orcamp) القريب من نويون أثناء العيد ». فهناك أيضاً على مايدو ، أنه قبل قطعة من بقايا القديسة حنه ، كما أنه قدم اكراماً بالسجود لجزء من إكليل المسيح ، ولقد رأى فى كاتدرائية نويون بعضاً من شعر القديس يوحنا . ، بما قد احتفظ بهذه الذكريات عندما كانت تقوده أمه لزيارة بعض الكنائس ، والأماكن المقدسة تبركاً بها وبقديسيها ، على أنه لايذكرها ولايتكلم عنها . ومع ذلك فعندما يتكلم عن الأمهات يصفهن بأنهن أكثر حناناً وعطف من الآباء (٥) .

إن صديقه الحميم ومسجل تاريخ حياته، والذى سوف يتولى قيادة الكنيسة والأكاديمية من بعده وهو ثيودوردى بَز يذكر لنا أربعة إخوة ليوحنا (جون) ، وهم : شارل وهو الأكبر ، مات بعد موت أبيه ، ثم أنطوان ويقول عنه بأنه كان حيا أثناء كتابة هذا الكتاب واصطحب اخاه جون لمدة ٢٨ سنة ، وأخان آخران واحد منهما يدعى انطوان أيضاً وماتا صغيرين (٦).

على ان بعض المؤرخين يعتقد بأن جيرارد أنجب أربعة أولاد وبنتين وهم : * شارل وكان كاهناً فى مدينة نويون ومات فى سنة ١٥٣٧ محروماً من الكنيسة ، ربما لانه أتبع أفكار أخيه يوحنا . وأنطوان الذى انضم إلى الإصلاح وساعد أخاه كثيراً فى عمله الكتابى ومات سنة ١٥٧١ . وفرانسوا الذى مات صغيرا ، ثم مارى وبنت أخرى لم يسجل لنا التاريخ اسمها .(٧)

لقد اختطف الموت جآن ليفرانك وهى فى ريعان شبابها ، وتركت يوحنا طفلاً صغيراً بدون زكريات عنها (٨). اعتقد بعض المؤرخين بأن حرمان يوحنا (جون) من حنان الأم فى طفولته لعب دوراً هاماً فى حياة وتصرفات(٩) وسلوك وتعاليم المصلح .

5- G. Rilliet. p.18-19.

6- VIE de Jean Calvin par Theodore de Beze Et Annotée par Alfred Franklin 1869.

* يعتقد البعض بأن جيرارد أنجب أربعة أولاد وبنتين (F. Wendel 2-5) وهم شارل ويوحنا وأنطوان وفرانسوا ومارى وبنت أخرى لانعرف اسمها . على أن (Cadier lħomme. p.12) يعتقد بأن جيرارد كان له سبعة أبناء وهم شارل ويوحنا وأنطوان واثنان ماتا صغيرين وأنطوان آخر وفرانسوا ، ثم أنجب بنتين من زوجة أخرى لانعرف اسمها .

7- F. Wendel. Op. Cit. 3-5;

8- G. Cadier, Lħomme. 12.

9- G. Rilliet.. 19-21

مدينة نويون (Noyon)

ولد يوحنا كلفن فى هذه المدينة العريقة التى تفخر بتاريخها القديم المجيد . فمنذ القرن السادس الميلادى احتلت أسقفية هذه المدينة مكانة مرموقة ممتازة . ففى القرن السادس قام القديس مدارد (Medard) بتأسيس أسقفية هذه المدينة . وفى القرن السابع أسس القديس الواى (Eloi) المستشار الشهير للملك داكوبر (Dagobert) ديراً بها . وفى القرن الثامن صارت أعظم مركز دينى فى شمال فرنسا . وفى كاتدرائية هذه المدينة أيضاً أجريت المراسيم الدينية لتنصيب وتكريس بعض ملوك فرنسا : فقد كرس فيها كل من شارلمان فى سنة ٧٦٨ وهبوك كابت فى سنة ٩٨٧ . ولقد كان شارلمان حفيد شارل مارتل * وهذا الأخير استطاع ان يوقف الجيوش الغازية التى جاءت من الأندلس وإستولت على مدن كثيرة فى فرنسا لا بل وصلت إلى مدينة بواتيه (Poitiers) . كانت مدينة نويون عرضة للغزوات المستمرة بسبب موقعها الجغرافى.ففى سنة ١٥٥٢ أشعل الغزاة النيران فيها فقلبوها رأساً على عقب .ولقد كتب يوحنا كلفن خطاباً فى هذه المناسبة إلى راعى الكنيسة هناك مظهراً دهشته بأن بيت أبيه ظل قائماً ولم يهدم بالرغم من الحريق الذى تعرضت له المدينة .ولقد ظلت هذه المدينة قائمة شامخة بالرغم من الغزوات العديدة التى تعرضت لها .ولقد ظل هذا البيت الذى ولد ونشأ وتربى فيه المصلح الفرنسى يوحنا كلفن قائماً وسط الخراب والحطام إلى سنة ١٩١٨ .إذ تساقطت عليه بعض القنابل أثناء الحرب العالمية الأولى . وفى نفس المكان ، بنى من جديد فى سنة ١٩٣٠ بيت كلفن كما كان سابقاً . ولقد تحول الآن إلى متحف وضعت فيه بعض الذكريات والوثائق الخاصة بالإصلاح ، والمصلح الفرنسى يوحنا كلفن.[١٠].

كان أسقف نويون يحتل مكان السيد أو الحاكم أو الأمير : فهو الذى كان يصدر القوانين المحلية ويفرض الضرائب ويشرف على النظام من الناحية الروحية والمدنية .... ومنذ ولادة يوحنا حتي سنة ١٥٢٥ كان يتربع على كرسى أسقفية

* ان شارل مارتل لم ينصب قط ملكاً كما يذكر ذلك كتاب مصلح فى المنفى ص ٩ ، ونفس الخطأ مكرر فى كتاب حديث مع جون كلفن للدكتور لبيب مشرق ص ١٤ . لأن شارل مارتل لم يحصل قط على لقب ملك بل كان اميراً ومحارباً فقط .

10- G. Cadier, LHomme. 10-12.

هذه المدينة شارل دى هانجست (Charles des Hangest) ، وهو واحد من النبلاء الذين ربطت وثائق الصداقة والمحبة بين عائلته وعائلة جيرارد كلفن . ولقد ظهرت علامات الصداقة فى الاهتمام الخاص التى أظهرته هذه العائلة فى العناية بيوحنا الطفل اليتيم . ألم يصطحب ثلاثة من اولاد هذه العائلة الغنية يوحنا معهم عند ذهابهم إلى باريس للدراسة هناك ؟ ولقد أهدى يوحنا كلفن أول أعماله الأدبية لأحد أفراد هذه العائلة وهو الكاهن كلود اعترافاً بفضلها وجميلها عليه (١١).

11- F. Wendel. 1-5.

الفصل الثانى
حياته المدرسية

عرف الطفل يوحنا تجربة اليتم ومرارته القاسية ، إذ أنه حرم من حنان أمه التقية الجميلة فى سن مبكر ، عندما اختطفها الموت كوردة جميلة يانعة . وبعد موتها تزوج أبوه بأرملة لم يسجل لنا التاريخ اسمها . اعتقد بعض علماء الاجتماع والتاريخ بأن حرمان هذا الطفل فى سن مبكر من حنان الأم وعطفها كان سبباً من الأسباب الرئيسية التى جعلت من هذا الطفل رجلاً خجولاً منطوياً على نفسه فى بعض الأحيان ، قاسياً فى احكامه على نفسه وعلى الآخرين [١]

مما لاشك فيه بأن حرمان الطفل يوحنا (جون) من حنان الأم لعب دوراً هاماً فى حياته ، ولكننى لا أعتقد بأنه لعب هذا الدور الذى نسبه بعض علماء علم الاجتماع والنفس فى حياة وسلوك وتعاليم المصلح ، إذ أنهم بالغوا كثيراً فى تحليل ووصف هذه الفترة فى تاريخ يوحنا .

وجد هذا الطفل اليتيم من الأم أماً فى عائلة مونتمور (Montmor) . فلقد فتحت هذه العائلة قلبها وبيتها له . كانت هذه العائلة فرعاً من عائلة هانجست (Hangest) المعروفة بثرائها ونفوذها . ولقد خرج منها اسقفان تربعا على كرسى ابرشية نويون [٢] . وعلى ما يبدو بأنه كانت توجد روابط صداقة قوية بين عائلة جيرارد كلفن وبين هذه العائلة وعائلات أخرى نبيلة فى تلك المدينة . ولذلك فقد تبنت عائلة مونتمور الابن الثانى لجيرارد : تبنته من الناحية الأدبية والعاطفية ، على أن أباه جيرارد كان يقوم بدفع كل احتياجاته المادية ، بفضل المنح التى حصل عليها لأبنائه [٣]. ولقد كانت هذه الفرصة التى قضاها يوحنا مع عائلة مونتمور فرصة ذهبية ، لأن هذا الطفل اليتيم الذى حرم من حنان

1- G. Rilliet. P. 19-21

2- D. Benoit. J. Calvin. 4-8, 8-9

3- J. Rilliet. 1-15

الأم ومن الجو العائلى الدافىء . وجد فيها عائلة بديلة ، أشعرته بالحب والعطف والحنان ، لا بل تعلم من الوسط الراق الذى كان يعيش فيه ، الكثير عن الطبقة النبيلة والحياة الأرستقراطية (٤) ، كما أنه تعلم أيضاً طريقة وأسلوب التحدث إلى النبلاء والعظماء .

يوحنا فى مدرسة نويون

بدأ الطفل اليتيم الذهاب إلى مدرسة مدينته التى سميت بمدرسة لابسى البرانسى (جمع بُرنُس) (College des Capettes) *. ولقد مكث فيها إلى أن بلغ الرابعة عشرة . ويشهد الذين اعتنوا بتسجيل سيرة حياته ، بأنه كان تلميذا ذكياً نابهاً قادراً على تحصيل قدر هائل من العلوم التى كانت تدرس فى تلك الأيام . ولهذا السبب كان جيرارد كلفن فخوراً به ، كما أنه كان فخوراً أيضاً بأولاده الآخرين . ولذلك فقد حرص الحرص كله على أن يبذل كل غالٍ ورخيص مهما كلفه ذلك لتعليم أولاده وخاصة ابنه الثانى يوحنا . ولقد سبق أن لاحظنا نفس الطموح يسيطر أيضاً على هانس لوثر أبى مارتن (٥).

كان جيرارد كلفن أشهر من نار على علم فى هذه المدينة بسبب مسئولياته الكثيرة ، وتراكم الوظائف العديدة بين يديه . ولقد استطاع أن يستغل مكانته واتصالاته بالاكليروس لكى يصل إلى تحقيق طموحاته التى كان يحلم بها . ألا وهى أن يقدم لأولاده الوسائل المناسبة والكفيلة بتعليمهم . ولذلك فقد سبق أن حصل على منحة دراسية لابنه شارل الذى سوف يصير كاهناً فيما بعد ، وفى يوم ١٩ مايو سنة ١٥٢١ حصل على منحة لابنه يوحنا ، وكانت هذه المنحة هى ربع دخل كنيسة الجزين مع لقب راعٍ لهذه الكنيسة **.

4- Choisy 12-15; Rilliet 19-21.

* سميت هذه المدرسة بهذا الاسم لان تلاميذها كانوا يرتدون برانسا = معطفاً (Cape) وهوالرداء الرسمي الموحد لكل تلاميذها.(J. Cadier-Mythes II).

٥ـــ المصلح مارتن لوثر.حياته.تعاليمه.الدكتور القس حنا جرجس الخضرى ص ١٢

** يتساءل البعض عن لقب راع أو خادم الذى منح لطفل مثل يوحنا فى الحادية عشر من عمره.لم يكن يوحناكلفن أول طفل قد تمتع بهذا الشرف الكنسى فى سن مبكر.فقد كانت هذه العادة متبعة فى ذلك العصر بأن يمنح لقب دينى اكليريكى لبعض الاطفال.فان فيلبس من مقاطعة السافوى منح لقب اسقف فى السابعة من عمره فى سنة ١٤٩٧.وكذلك فى سنة ١٥٠٢ لقب (Jean de Lorraine) باسقف متز وهو فى الرابعة من عمره (Rilliet 12-15).

وكان على من يحصل على هذا اللقب وهذه المنحة أن يقدم خدمة للكنيسة ، مثل خدمة القداس أو مساعدة الكاهن ....الخ . وكان الهدف من هذه المنحة هو مساعدة بعض التلاميذ لكى يواصلوا دراساتهم .

عندما بلغ التلميذ يوحنا الرابعة عشرة من عمره تعرضت مدينة نويون لوباء الطاعون . وكان هذا المرض مخيفاً مرعباً كالموت ، بل إنه كان رسول الموت . وللأسف الشديد كان منتشراً فى القرون الغابرة ، وكانت ضحاياه عديدة . فكان على الأغنياء أن يهاجروا ، أو على الاقل أن يهاجر بعضهم إلى أماكن آمنة بعيداً عن هذا الوباء المخيف المميت . ولذلك فقد طلب جيرارد من الرئيس المسئول عن المنحة المالية بان يسمح ليوحنا بالذهاب إلى باريس مع أولاد عائلة مونتمور فسمح له بالذهاب[٦].

يوحنا فى مدرسة دى لامارش

انطلق يوحنا مع ثلاثة من رفقائه من عائلة مونتمور إلى باريس ؛ ولقد نزل ضيفاً على عمه ريشارد الحداد وصانع الكوالين . وصل هذا الشاب فى الرابعة عشرة من عمره إلى باريس؛ باريس مدينة العلم والنور ... مدينة الثقافة والبحث والنقاش . ولكنها كانت أيضاً مدينة المرح واللهو والصخب . على أن مصلح المستقبل اختار المجموعة الأولى . فبدأ دراسته فى مدرسة دى لامارش فى شهر أغسطس سنة ١٥٢٣ . وكانت تعتبر هذه المدرسة مدرسة حديثة فى تعليمها ومناهجها . فمع أن الشاب يوحنا لم يقض فيها إلا سنة واحدة فإنه خرج منها بانطباعات مؤثرة وبذكريات صاحبته كل حياته . ففى هذه المدرسة كان يقوم بتدريس اللغة اللاتينية ماتورين كورديه (Mathurin Cordier) . وكان يعتبر قطباً وحجة فى اللغة ومرجعاً لايبارى ، لدرجة أنه قيل عنه ؛ حيث يدِّرس كورديه هناك تنمو وتزدهر الآداب الصحيحة [٧]. ولقد امتاز هذا الرجل المثقف العالم بمواهب أخرى ايضاً . فمع أنه ترك الكهنوت وتخصص لتدريس اللغة اللاتينية إلا أنه ظل متمسكاً بإيمانه ، شاهداً بحياته المثالية بعمل سيده . فلقد كان دقيقاً فى عمله ، عميقاً فى دراساته وأبحاثه ، لا بل إنه كان سابقاً ومتقدماً على عصره فى طريقة تعليمه.

6- G.D. Benoit p.11.
7- Benoit. 10-15. Rilliet 21-23.

فقد قام بحملة شعواء ضد المدارس والاساتذة الذين كانوا يستخدمون الضرب والجلد كوسيلة للتعليم والتهذيب .

لقد ترك هذا الرجل بحياته المثالية وعلمه الغزير ومحبته للمسيح وللخدمة ، تأثيراً عميقاً جداً على الشاب يوحنا من الناحية الدينية والعلمية . فإن المصلح نفسه الذى كان يلتهم كلام هذا العالم التهاماً والذى تأثر بأسلوبه الأدبى تأثيراً عميقاً ، يعترف بفضل هذا الرجل عليه ، فيهدى له فيما بعد شرحه لرسالة القديس بولس الأولى إلى تسالونيكى [٨]. لا بل سوف نرى فيما بعد ، بأن روابط الصداقة التى وجدت بين قلب الاستاذ وتلميذه كانت عميقة قوية لدرجة أن كورديه قبل الإصلاح . ولقد طلب منه كلفن فى سنة ١٥٣٦ بأن يدرس فى مدرسة ريف (Rive)[٩]. وفيما بعد قام بالتدريس فى الأكاديمية فى جنيف ، فبدأ التدريس فيها من أول سنة ١٥٦٢ ، وكان قد بلغ الثانية والثمانين من عمره ، وظل يعلّم حتى بلغ الخامسة والثمانين [١٠].

لقد تركت هذه الفترة القصيرة التى قضاها يوحنا فى هذه المدرسة تأثيراً عميقاً على حياته ومستقبله . والدارس لحياته يلاحظ تشابها كبيراً فى بعض الظروف التى مر بها فى بدء حياته والظروف التى اجتازها المصلح الالمانى مارتن لوثر . فان هذا الأخير قد ترك المدينة التى تربى ونشأ فيها مانسفلد ، عندما بلغ الرابعة عشر ، وانطلق إلى مجد بورج سعياً وراء العلم مع أحد اصدقائه من عائلة ثرية وهو يوحنا رانيك (Jean Reineke). وكذلك أيضاً فإن يوحنا كلفن ترك مدينة نويون فى سن الرابعة عشر وجاء إلى باريس فى صحبة ثلاثة من الشبان الأثرياء من عائلة مونتمور (Montmor).

لم يقض المصلح الألمانى فى مدرسة مجد بورج إلا سنة دراسية واحدة ، وكذلك لم يقض المصلح الفرنسى فى مدرسة دى لامارش إلا سنة دراسية واحدة

8- Benoit 14 - 16

9- Cadier, Lhomme. 16 - 17

10- J. Rilliet 19 - 26; Cadier Mythes 12 - 14; F. Wendel 5 - 6; **E. Doumenque, Jean Calvin Les Hommes et les choses de san Temps T.1.p.6**

إن هذا الكاتب الاخير هو العميد دومورج الذى قدم حياة وتعاليم المصلح الفرنسى فى سبعة مجلدات فى غاية الأهمية.

أيضاً .تركت مدرسة مجد بورج فى نفس الشاب الالمانى ومصلح المستقبل ، انطباعات وتأثيرات عميقة بالرغم من قصرها رافقته فى كل حياته ، وهو نفس الاختيار الذى اجتاز فيه الشاب يوحنا الفرنسى(١١).

يوحنا فى مدرسة مونتجي (College de Montaigu)

قرر أحد المفتشين نقل الشاب يوحنا من مدرسة دى لامارش إلى مدرسة مونتجى . وكان الفرق بين المدرستين واسعاً شاسعاً . فلقد أطلق على مدرسة مونتجى اسم قلعة الأرثوذكسية أو المناضلة والمصارعة ضد كل تعليم جديد مبتدع (١٢).

فمع أن تامبيت (Tempete) خلف نويل بدا (Noel Beda) من عدة سنوات فى إدارة هذه المدرسة ، إلا أن « بدا » ظل يشرف على التعليم والنظام فيها ، بالاشتراك مع تامبيت . وكان « بدا » ضيق الفكر متزمتاً متعصباً وكان يقاوم كل حركة تحررية جديدة . ولذلك فقد شن حرباً شعواء « فى كلية اللاهوت » ضد الحركة الانسانية (Les Humanistes) ، كما أنه صب جام غضبه على ما كان يسميه بالهرطقات اللوثرية . وفى حملته المسعورة ضد الأفكار الجديدة وضد اللوثريين استطاع أن يدفع جامعة السربون (La Sorbonne) أن تصدر حكماً تدين فيه تعاليم لوثر فى أبريل سنة ١٥٢١ (١٣) وكذلك تعليم لففر دى تابل (Lefevre d'Etaples) فى سنة ١٥٢٥ ، كما أنه ندد فيما بعد بتعاليم الهولاندى إراسم .

لقد عرفت هذه المدرسة بنظامها القاسى الصارم الجاف ، ودفع التلاميذ إلى حياة التقشف الضار والمفسد للصحة . ولذلك فإن بعض الذين مروا بها وذاقوا قسوة الحياة وخشونتها بين جدرانها ، لم يغفروا لها هذه القسوة من هذه الناحية ، فوصفوها بعبارات تقشعر منها الأبدان *. فإن إراسم كتب عن هذه المدرسة ما ملخصه بتصرف : من حوالى ثلاثين عاماً ، عشت فى هذه المدرسة

١١ — انظر كتاب مارتن لوثر للدكتور حنا جرجس الخضرى ص ١٧ ، ٢٨

12- F. Wendel 5 - 6.

13- E. Choisy. Educateur. 16.

* ويعتبر Rillet حسب معرفتنا الوحيد الذى يقول بأن كلفن لم يكن طالباً فى القسم الداخلى بهذه المدرسة

فى باريس حيث يتحدثون طوال اليوم عن الأمور الدينية لدرجة أن نفس جدرانها تشبعت بهذه التعاليم . أما أنا فلم أخرج منها إلا « بمزاج عكر » وكمية لاتحصى من القمل وكانت أسرتها خشنة صلبة ، والطعام تافهاً وقليلاً . وكانت الدراسات قاسية مرهقة ، تتطلب سهراً طويلاً ، لدرجة أن عدداً كبيراً من الشبان الذين كان يعقد عليهم آمال المستقبل ، أطاح بهم الموت منذ السنة الأولى لالتحاقهم بهذا المعهد أما الذين أفلتوا من قبضة المنون ، فقد أصيب معظمهم بالجنون أو بالعمى أو بالبرص ..... كان الطعام قليلا حتى يعّودوا إكليروس المستقبل على الصيام . كان أكل اللحوم ممنوعاً . أما البيض فكان معظمه فاسدا كذلك الجبن . ولكن بالرغم من روح الشح التى كانت تسيطر على المسئولين عن توزيع الغذاء ، فقد كان كرمهم بلا حدود فى الضرب بالسياط وتوزيع التأديبات والعقابات المتنوعة [14]. ولم يكن ربله أقل قسوة فى حديثه عن هذا المعهد ؛ فهو يقول ما ملخصه ، إن الذين حكم عليهم بالأعمال الشاقة .... أى السفاحين المحكوم عليهم بالسجن ، وبكل تأكيد حتى الكلاب فى بيتكم ، كل هؤلاء يعاملون معاملة أفضل مما يعامل بها هؤلاء البؤساء فى هذه المدرسة . فلو كنت ملكاً لباريس لأمرت بإشعال النيران فيها ، وإلقاء مديرها والقائمين على إدارتها فى هذه النيران المشتعلة ، لأنهم رأوا باعينهم أعمالا تقشعر منها الانسانية....؟[15].

أننا نعلم بان الكاتبين قد بالغا فى وصفهما لهذه المدرسة ، على أن وصفهما لم يتجرد تماماً من الحقيقة . وربما يكاد يكون من المؤكد أن الأمراض العديدة والكثيرة جداً مثل مرض الربو والصداع المستمر ، والرشح وفيما بعد مرض السل والكلى وأمراض أخرى قد أصابت الشاب يوحنا ، أو على الأقل أن السنوات الخمس التى قضاها هذا الشاب فى هذه المدرسة مهدت الطريق لإصابته بهذه الأمراض .

بالرغم من هذه الصورة القاتمة التى يقدمها البعض عن هذه المدرسة ، فإن

14- G.D. Benoit 14-16

15- Cadier Lhomme. 18; A.M. Schmidt 9-10

كلفن نفسه لايتحدث عن هذه الناحية ، بل قد انشغل فى أثناء دراساته بأمور أخرى ، وهى الدرس والعمل والتحصيل العلمى . وبالرغم من المساوىء التى أشرنا اليها قد اهتمت إدارة المدرسة بدفع طلبتها إلى الدرس الجاد والعمل الشاق المرهق . فكان على الطلبة أن يستيقظوا فى الساعة الخامسة صباحاً ، ويستمروا فى دراساتهم إلى الساعة التاسعة مساء [١٦] . وكان الطالب يوحنا مثالياً فى حياته ودراساته واستطاع أن يستغل هذه الفرص أحسن استغلال فى البحث والدرس والتعمق الروحى . ويقول عنه مؤرخ سيرة حياة ثيودوردى بز : « كان متديناً بطريقة مدهشة يرفض بشدة الرزائل التى قد تصدر من بعض زملائه » ....ويقول نفس الكاتب « لقد تعود أن يتناول فى المساء طعاماً خفيفاً ، لكى يستطيع مواصلة الدرس حتى منتصف الليل ، وفى الصباح المبكر كان يراجع مرة ثانية ما قد درسه فى الليلة السابقة » [١٧] .

ففى هذه الفترة التى قضاها يوحنا فى مدرسة مونتجى انكب على دراسة تعاليم الآباء وكان يلتهمها التهاماً . فدرس كتابات القديس أغسطينوس والقديس برنارد ويوحنا فم الذهب وبطرس لومبارد وآخرين . ولهذا السبب فإن كتابات المصلح الفرنسى مليئة بالاقتباسات العديدة جداً من كتب الآباء وأقوالهم . ولقد شجعه على الدرس والبحث أساتذته الأكفاء الذين لاحظوا فيه ذكاء نادراً ، واجتهاداً ظاهراً وغيرة ملتهبة ، ورغبة عميقة فى الدرس والبحث . فإن كان يوحنا قد حرم من أستاذ – لا بل من عملاق – عندما ترك مدرسة دى لامارش وهو مارتن كورديه ، فإنه وجد أيضاً فى مدرسة مونتجى بعض الأساتذة العلماء الذين كان يشار إليهم بالبنان ، ومنهم أنطونيو كورنيل (Antonio Coronel) أستاذ الفلسفة الأسبانى ، الذى ترك تأثيراً عظيماً على مصلح المستقبل . وكذلك الاستاذ يوحنا مير (John Mair) الذى قام بتفسير الأناجيل مدافعاً عن العقيدة الرومانية ضد تعاليم وكلف وهوس ولوثر .

16- Benoit. 17

17- G. Harkness . 4-5.

وبالرغم من ذلك فإنه ترك انطباعات طيبة فى نفس الشاب يوحنا كلفن ، ويحتمل بأن كلفن بدأ بدراسة بعض نظريات لوثر عن طريق اتصاله بهذا الاستاذ (١٨) . فهو الذى قاده أيضاً لدراسة تعاليم بطرس لومبارد وتفسير اوكاميست (Orramiste) لها .

لقد قدم بعض الكتاب المعاصرين المصلح الفرنسى كرجل خشن جاف ، بدون شعور وبلا احساس ؛ تجرد من العواطف التى يتمتع بها الكثيرون . لكن الحقيقة غير ذلك ؛ فإن الدارس لتاريخ هذا الرجل والظروف التى أحاطت به ، يلاحظ بدهشة بأن يوحنا كلفن بالرغم من تمسكه الشديد بتنفيذ قراراته ، وبالرغم من صلابته فى الرأى وقسوته فى بعض الأحيان فى الأحكام ، كان إنساناً امتلأ قلبه بالمحبة والعطف والإحساس ، وأن هذه المشاعر التى كان يتمتع بها قلب هذا الرجل ، جذبت إليه أصدقاءً كثيرين فى كل مكان ذهب اليه . فلقد استطاع اثناء اقامته فى باريس وفى مدرسة مونتجى أن يجد اصدقاءً مخلصين وبيوتاً مفتوحة لاستقباله . فلقد استطاع بمحبته وعطفه أن يكوِّن علاقات صداقة بينه وبين شباب عائلة مونتمور (Montmor) وكذلك مع ابن عمته أو خالته أوليفتان (Oliretan) الذى كان قد انضم إلى الإصلاح، وكذلك أيضاً الصداقة التى ربطت بينه وبين فورسى دى كامبرى (Fouriy de Cambrai) الذى كان يتمتع بسلطة قوية فعالة فى كلية العلوم الدينية المسيحية (كلية اللاهوت) . أكثر من ذلك ، ألم يكن صديقاً لعائلة جيوم كوب وهو الطبيب الخاص للملك فرانسوا الأول وأبو نيقولا رئيس جامعة السربون والذى ألقى الخطاب الحاسم عن النعمة والخلاص فى سنة ١٥٣٣ ؟

إن الفترة التى أقامها الشاب يوحنا فى مدينة باريس كانت غنية فى ثمارها ونتائجها ، وفى تكوين شخصية المصلح وإعداده للعمل العظيم الضخم الذى كان يعده الرب له للقيام به . وأن ثيودور دى بز يقول ، عندما تعرض للحديث عن هذه الفترة فى حياة كلفن ، بأنه (كلفن) بدأ يتعرف على الديانة

18- F.Wendel 6; Diitionary of National Biographie Art.Mayor (John)

الحقيقية [١٩] أى التعرف على الإصلاح . والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو :ـ هل الإصلاح كان قد بدأ في هذا الوقت فى فرنسا ؟

فمن الغريب العجيب أن المناداة بعقيدة التبرير بالإيمان ظهرت فى فرنسا قبل أن يبدأ لوثر بالتعليم بها فى ألمانيا . ففى سنة ١٥١٢ ، يعنى خمس سنوات قبل أن يعلق لوثر ال ٩٥ مبدأ على باب كاتدرائية فيتمبرج كتب العالم الفرنسى لففرد تابل (Lefeı re d étaples) تفسيراً لرسائل القديس بولس . ولقد دعى هذا التفسير بروتستانتيا ، لأنه علم بوضوح وصراحة بمبدأين هامين من مبادىء الإصلاح وهما : سلطان الكتاب المقدس المطلق ، ثم عقيدة التبرير بالإيمان . على أن الرجل كان يسعى لإصلاح داخلى فى الكنيسة الرومانية . وعلى يد هذا الرجل تجدد رجل سوف يصير علماً من أعلام الإصلاح فى جنيف فيما بعد ، ألا وهو جيوم فارل (Guillaume Farel) . فبعد أن تجدد جيوم فارل انطلق معه إلى مدينة مو (Meaux) ، ولكن فارل لم يستطع البقاء فى هذه المدينة وطرد منها ، فجاء إلى باريس وهناك أسس فى سنة ١٥٢٣ كنيسة كانت تجتمع فى الخفاء . وفى نفس هذه السنة وصل كلفن إلى العاصمة ، وفى هذا الوقت أيضاً بدأت كتابات لوثر وتعاليمه فى الانتشار . ولقد كتب لومبرت دافينون (Lombert dÁı ignon) فى رسالة له بتاريخ ٢٠ يناير ١٥٢٣ إلى مختار ساكس قائلا « إن فرنسا كلها تتحرك » . كان رئيس حركة المعارضة هو نويل بدا رئيس مدرسة مونتجى التى كان يدرس فيها كلفن . وبناء على ذلك فإن كلفن كان يشعر ويعرف ويشترك فيما يدور حوله ، ويناقش مع أصدقائه هذه الحركة الإصلاحية الجديدة [٢٠] . إن عدداً لا بأس به من أصدقائه وزملائه كانوا على صلة بهذه الحركة الاصلاحية الجديدة . وهنا يظهر عامل آخر يدفع مصلح المستقبل إلى التفكير والدرس ؛ فإن أحد أقاربه ومن مدينة نويون مسقط رأسه قام بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الفرنسية ؛ وهو روبرت أوليفتان (Robert Oliı etan) ، وكان هذا العمل الضخم العظيم ، أكبر خدمة

19- Benoit 15
20- Y.D. Benoit 17-21; Wendel 6-7; Choisy Op. Cit. 15-16

يقدمها هذا الرجل للإصلاح . كما أنه هو الذى حاول إقناع الشاب يوحنا بأن يترك دراسة العلوم الدينية (كلية اللاهوت) وألا يفكر فيما بعد فى الكهنوت .

مرت كل هذه الأحداث فى الفترة التى قضاها الشاب يوحنا كلفن فى باريس . وقبل أن يغادر هذه المدينة وصل إلى نفس مدرسة مونتجى فى سنة ١٥٢٨ جندى محارب أسبانى لكى يدرس العلوم الدينية (اللاهوت) وهو اغناطيوس ليولا . فهل تقابلا معاً فى هذه المدرسة ؟ وهل تناقشا معاً ؟ لا نعلم بالضبط . ولكن نعلم بأن الشاب المحارب الأسبانى قام فى سنة ١٥٣٤ بتأسيس جماعة اليسوعيين ، التى حاولت أن تقوم بإصلاح داخلى فى الكنيسة الكاثوليكية ، وأن الشاب الثانى يوحنا كلفن قام بإصلاح داخلى وخارجى غير وجه التاريخ [٢١]

21- Y. Cadier, Mythes 26 - 29

الفصل الثالث

دراساته الجامعية :
يوحنا كلفن فى مدينة اورليان
Orleans

حصل يوحنا فى سن التاسعة عشرة على درجة الليسانس * فى سنة ١٥٢٨ من مدرسة مونتجى . وكانت هذه الدرجة تجيز له بأن يواصل دراساته العالية فى الجامعات .

ومنذ نعومة أظافره ، كان ينوى والده جيرارد أن يدرس ابنه العلوم الدينية لكى يصير كاهناً مثل أخيه الأكبر شارل ، ولكنه غير رأيه لعدة اسباب . فعلى ما يبدو ، أن جماعة الاكليروس ــ الجماعة التى كان يشرف على إدارة أمورها المالية جيرارد كلفن ــ لم تكن على وفاق معه ، ولقد نشبت بينهما عدة احتكاكات ومشاجرات [1] . كما أن جيرارد كلفن كان رجلاً طموحاً ، فعقد آمالاً كباراً على ابنه الثانى يوحنا (جون) للوصول إلى حياة أفضل وإلى غنى أعظم . ولأجل ذلك فقد دفع ابنه دفعاً إلى دراسة الحقوق بدلاً من دراسة العلوم الدينية و (اللاهوت) . وكانت مدينة أورليان (Orleans) تعتبر من أهم المدن فى فرنسا ــ ان لم تكن أول مدينة فى ذلك الوقت ــ اشتهرت بأساتذتها المتخصصين المحنكين فى دراسة وتدريس القانون . ولهذا السبب ، فإطاعة لرغبة أبيه ، انطلق يوحنا إلى المدينة لدراسة الحقوق[2].

---

* إن درجة الليسانس لاتعادل درجة الليسانس الحالى فى الجامعات ، بل كانت تمنح هذه الدرجة بعد الدراسات الثانوية وبعد دراسة جزء من الدراسات الجامعية

1- Cadier, LHomme 19

2- J. Cadier Mythes 17.

وكانت جامعة أورليان - وخاصة كلية الحقوق فيها - تتمتع بشهرة عالمية مرموقة ، ولذلك فقد جاء إليها طالبو العلم من كل صوب وحدب . فقد زاد عدد طلبتها على أربعة الآف طالب يمثلون حوالى عشر دول مختلفة (٣) . وحفاظاً على هذه الشهرة ، فقد بذلت كل غالٍ ورخيص لجذب أكفأ الاساتذة للتدريس فيها . فمن بين العلماء الذين كانوا يقومون بالتدريس هناك نرى القطب المشهور بيير دى لاتوال (Pierre de lÉstoile) الذى كان يعتبر عن جدارة أعظم قانونى فرنسي فى عصره . كان هذا الرجل قوياً فى حجته ، بليغاً فى أسلوبه عميقاً فى دراساته ، متديناً فى حياته وسلوكه ، ولقد انخرط فى سلك الرهبنة بعد موت زوجته . إن هذا الرجل ترك انطباعات طيبة وعميقة على الطالب المبتدىء فى كلية الحقوق « يوحنا كلفن » بالرغم من موقفه المعادى ضد البروتستانت . كما كان يدرِّس هناك أيضاً العالم الايطالى المشهور الثيات Alciat . ولقد اشتهر هذا الرجل أيضاً بسعة علمه وعمق دراسته . على أنه كان متكبراً متعجرفاً لا يتورع عن الإساءة للطلبة وللأساتذة الفرنسيين ، محتقراً علمهم ودراساتهم .

وكان يوحنا (جون) يقدر هذا الرجل معجباً بعلمه ، على إنه لم يفلح فى خلق أية علاقة ودية معه ، لأنه كان معجباً بنفسه كل الإعجاب ، محباً للمال ويسعى فى الحصول عليه بكل وسيلة ممكنة . وفى هذه الجامعة درَّس فيما بعد الأستاذ المعروف آن دى بورج (Anne Du Bourg) حوالى سنة ١٥٥٠ ، الذى كان عضواً فى البرلمان فى باريس سنة ١٥٥٥ . ولكنه فى سنة ١٥٥٩ قام بدفاع عنيف وجرىء ضد الأحكام التى كانت تصدر ضد الانجيليين والعذابات التى يتحملونها ، فاتهم هو أيضاً بالهرطقة وحكم عليه بالحرق حيا (٤) سنة ١٥٥٩ .

2- J. Cadier Mythes 17.

3- Cadier. LĤomme 19-20

4- Cadier. LĤomme. 20-21

في هذه الجامعة أيضاً تقابل يوحنا (جون) مع أستاذ آخر نسب إليه كثير من المؤرخين دوراً هاماً في قيادة مصلح المستقبل إلى العقيدة الانجيلية وهو ملكيور فولمار أستاذ اللغة اليونانية .

فإن كانت العناية الإلهية قد مهدت الطريق أمام مصلح المستقبل لدراسة اللغة اللاتينية وإجادتها على يد معلم الأجيال كورديه ، فان نفس العناية أعدت له استاذاً قديراً وهو فولمار ليؤهله لدراسة لغة أخرى وهي اللغة اليونانية ، والتى ستكون خير مساعد له في المستقبل كمفسر .

كان ملكيور فولمار ألماني لوثرى . ونحن نعرف بأن اللوثرية كانت قد انتشرت في هذا الآونة في معظم المدن الألمانية وتسربت خفية إلى فرنسا . ويعتقد البعض بأن فولمار كان يمد يوحنا بالكتب والمقالات التى تنشر في ألمانيا عن اللوثرية وتعاليمها ، وترجم بعضها إلى الفرنسية [٥] .

ففي هذه الفترة بدأ جون دراسة الأفكار اللوثرية والزونجيلية كما نوه هو نفسه عن ذلك . وهنا يرى بعض المؤرخين بأن فولمار كان المكمل للعمل الذى بدأ به أوليفتان (Olivetan) ، أى قيادة الشاب يوحنا إلى العقيدة الإنجيلية [٦]. وإن المؤرخ الكاثوليكي فلورموند (Florimond) يقول بأن فولمار هو الذى دفع يوحنا إلى الهرطقة ، على أن بعض المؤرخين يشك في أهمية الدور الذى نسب إلى فولمار ملكيور في قيادة يوحنا إلى العقيدة الإنجيلية [٧]. ودليلهم على ذلك أن كلفن نفسه لم يذكر بصراحة أن فولمار قاده إلى الإصلاح . على أن المؤكد والمعروف أن هذا الأستاذ استطاع أن ينال اعجاب وتقدير الطالب ، لا بل إن هذا الإعجاب تطور إلى صداقة ومحبة عميقة بين الأستاذ وتلميذه . وسوف تستمر هذه الصداقة مدى الحياة [٨]. إن جون لم ينسى هذا الأستاذ وفضله العظيم عليه ، ولذلك فقد أهدى له تفسيره للرسالة

5- Cadier Mythes 19-25

6- Benoit p. 23-25; Florimond de Raemond, La Naissance Progress et Decadence de Lheresie de cé Siecle, Paris 1605. Liv. 7.P.174.

7- Abel Lefranc la Jeunesse de Calvin p.39, Wendel 8-9

8- Benoit. 23-25;

الثانية إلى أهل كورنثوس مع رسالة رقيقة يعبِّر فيها عن عرفانه بالجميل لأستاذه. ولقد أرسل فولمار من ألمانيا إلى كلفن رداً على هذه الرسالة كأساً من الفضة فى سنة ١٥٤٦ (٩) .

لقد أدرك الأساتذة بدون عناء ـــ الذكاء الخارق الذى تميز به الطالب يوحنا فأحبه الكثيرون . لا بل اقترح عليه بعضهم بأن يتقدم حالا للحصول على درجة الدكتوراه (١٠). ويقول (ثيودور دى بز) إن جون كان يتمتع بذاكرة جبارة ؛ ففى كل حياته كان يعظ ويعلِّم دون الرجوع إلى مذكراته (١١).

وكما أنه استطاع فى باريس ، أن يكوِّن صداقات عميقة وروابط قوية مع بعض الطلبة والعائلات هناك ، فهكذا استطاع أيضاً بقوة شخصيته أن يجذب الكثيرين فى أورليان ، وأن يكوِّن معهم صداقات مخلصة استمرت مدى الحياة . ففى أورليان * تقابل مع تلميذ من طبقة النبلاء كان يسكن عند أستاذه فولمار و لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره فتصادق معه وكانت الصداقة بينهما قوية عميقة ، استمرت أيضاً كل الحياة ، وهو ثيودور دى بز الذى سوف يكتب سيرة حياة المصلح فيما بعد ، والذى سوف يخلفه أيضاً فى قيادة الأكاديمية ، وقيادة حركة الإصلاح فى جنيف (١٢) .

كان الشاب يوحنا يتمتع بصداقة الكثيرين ؛ مثل فرانسوا دانيال ونيقولا ديشمان وفرانسوا دى كومان وآخرون ..... (Benoit 22) .

يوحنا كلفن فى مدينة بورج (Bourges) * (١)

كان الصراع شديداً والمنافسة قوية بين كليتى أورليان وبورج . فلقد قام بتأسيس كلية بورج الملك لويس الحادى عشر فى القرن الخامس عشر (١٤٦٣) . ولقد أرادت (أوالدوفيه) (Duchesse) « الأميرة مارجريت

9- Benoit 22-26

10- Cadier. Mythes. 18-20

11- Cadier Lhomme 21-30

* يعتقد بنو (Benoit) بأن كلفن تقابل مع ثيودور دى بز فى بورج وليس فى أورليان ، على أن المؤكد بأنه قابله فى هذه الفترة وفى بيت فولمار سواء فى أورليان أو فى بورج .

12- Cadier Mythes 17-18; Cadier Lhomme 22-26

*مدينة بورج تبعد عن المدينة التى يسكنها المؤلف بحوالى ٤٥ كيلو متراً

دى نافار ، *[٢] أن تجعل من هذه الكلية كلية تضارع لا بل تنافس كلية أورليان ولذلك فقد عملت على جذب جهابذة الاساتذة وأشهرهم للتدريس فيها . ولأجل هذا السبب فقد طلبت من الأستاذ فولمار تدريس اللغة اليونانية وآدابها ، كما أنها طلبت أيضاً من الشيات (Alciat) أن يدِّرس هناك . فإن هذا الأخير كان يسعى جاهداً لجمع المال بكل وسيلة ممكنة ، ولذلك لم يتردد فى قبول هذا الطلب ، لأن العطاء كان سخياً.

ومع أن جون كلفن كان يشمئز من روح هذا العالم الإيطالى الذى كان يعتبر نفسه رسول الحضارة المرسل إلى الشعب الفرنسى المتأخر ... ، رغم ذلك فقد واظب كلفن باهتمام شديد على حضور كل محاضراته ، وانكب عليها درساً وبحثاً . فإن كان قد مقت كبرياء هذا الأستاذ ، إلا أنه كان معجباً بأسلوبه وبعمق تفكيره وبقوة حججه . وإنه يعترف بأن هذا الأستاذ استطاع أن ينيره فى كثير من المشاكل القانونية المعقدة ....

ومع أن الطالب جون كلفن احتفظ باسمه مسجلا فى سجلات كلية أورليان ، ومع أنه حصل على درجة الليسانس فى سنة ١٥٣٢ ثم على درجة الدكتوراه من نفس الجامعة فى سنة ١٥٣٣ ، إلا أنه ذهب خلال هذه الفترة إلى مدينة بورج لكى يدرس هناك لمدة سنة (١٥٢٩) . وفى بورج يتقابل للمرة الثانية مع هذين الاستاذين اللذين عرفهما سابقاً : الثيات وفولمار ملكيور ، واستطاع أن يدرس مع الأول علم القانون ويتعمق فيه . وإن الدارس لكتابات كلفن يلاحظ بلا عناء أن أسلوبه مشبع بروح القانون والتشريع . ويقول شوازى بأن دراسته للقانون نمَّت فيه فكرة أن الله هو القاضى المرتفع الذى يدين الانسان الخاطىء [١٣] .

---

* ٢ــ كانت مرجريت أخت الملك فرانسوا الأول وأصبحت اميرة لمقاطعة انجولم (Angouleme) بسبب زواجها من البير انجولم . كما أنها اصبحت ملكة مقاطعة النافار (Navarre) بسبب زواجها الثانى من هنرى البرت ملك النافار ، وكانت هذه الملكة شاعرة وفتحت بيتها وبلاطها لجماعة الإنسانيين وللأفكار الجديدة .

13- Choisy 18, Cadier. LĤomme 22-23

كما أنه استطاع أن يواصل أيضاً دراسته للغة اليونانية وآدابها مع اللوثرى فولمار . ويعتقد البعض بأن فولمار ترك تأثيراً عميقاً جداً على هذا الشاب وشجعه على دراسة العلوم الدينية [١٤]. إن مؤرخ سيرة حياته (ثيودور دى بز) يعرفنا بأن كلفن جمع حوله جماعة من المؤمنين فى كل من أورليان وبورج وكان يكلمهم عن الحق الانجيلى [١٥]. بل إنه قام بالقاء عدة عظات فى بورج وفى ضواحيها وأن أمير قرية لينير (Ligniere) أحبه جداً وقال عنه إن عظاته تفوق كثيراً عظات كاهننا * . ولكن بالرغم من هذا كله لايمكننا حتى الآن أن نقول بأن كلفن قد ترك الكنيسة الكاثوليكية ، فإنه كان يعلم بالحق الإنجيلى ، وكان يعظ على مسمع ومرأى من الجميع ، لأنه كان يعظ وكان يعلم كاكثوليكى [١٦]. على أى حال لقد بدأ كلفن عظاته الأولى فى مدينة بورج [١٧] .

موت جيرارد كلفن

عندما علم جون بمرض أبيه انطلق حالاً إلى مسقط رأسه نويون ، ومكث معه إلى أن فارق الحياة فى يوم ٢٦ مايو ١٥٣١ ، وكان قد بلغ السبعين من عمره . إن دفن جيرارد كان مشكلة : فلقد حرم من الكنيسة من حوالى ثلاث سنوات سابقاً . ولم يكن مسموحاً بأن يدفن شخص قد حرمته الكنيسة فى المدافن العادية العامة مع الآخرين ، فكان على ابنه شارل ، الذى كان كاهناً لكنيسة المجدلية فى نويون ــ أن يبذل جهداً كبيراً واتصالات مكثفة متوسلاً إلى رؤسائه . ولقد نجح فى نهاية الأمر بأن يرفع عن أبيه الحرمان وأن يدفن مع الآخرين .

ولكن بعد دفن الأب تجددت الخلافات بين الكاهن شارل كلفن والاكليروس فى مدينة نويون . وفى مايو سنة ١٥٣٤ قام أحد الكهنة باستجواب شارل عن إيمانه وعقيدته واستنتج بأنه هرطوقى . ولقد مات فى

14- Florimond de Raemond. Cit. p.882

15- Benoit 24

* يوجد حتى الان فى مدينة بورج أماكن تدعى باسمه . قاعة كلفن ، قنطرة كلفن ، منبر كلفن ...

16- Benoit 24-25

17- Cadier, Lĥomme 25

سنة ١٥٣٧ بعد أن رفض المسحة الأخيرة ودفن ليلاً سراً [١٨] .

بعد أن مات جيرارد شعر يوحنا بأنه يجب أن يطيع أباه السماوى . ففى حياة أبيه الأرضى كان يدرس القانون طاعة له ، وأما الآن فقد شعر بنوع من الحرية ، وأنه فى استطاعته أن يختار الدراسة التى تتفق مع رغباته وميوله ودوافعه الداخلية . فمع أنه لم يترك تماماً دراسة القانون ، اذ انه حصل فعلا على درجة الليسانس فى سنة ١٥٣٢ ، ثم على درجة الدكتوراه من جامعة اورليان فى سنة ١٥٣٣ [١٩] . إلا انه بدأ من هذا الوقت فى دراسة الآداب بتعمق . ولأجل هذا السبب ، فقد غادر مدينة نويون بعد أن أنهى أموره المادية الخاصة بمشكلة الميراث ، الذى سوف يمكنه بأن يواصل دراسته بدون صعوبة مالية .

وهنا نرى يوحنا يرجع مرة ثانية إلى مدينة باريس فى سنة ١٥٣١ ليواصل دراسته فى جامعة فورتيه (Fortet) التى كانت تقع أمام مدرسة مونتجى (Montaigu) التى قضى فيها عدة سنوات . وفى هذه الجامعة انكب يوحنا كعادته على الدرس والبحث ، وخاصة دراسة الآداب اللاتينية واليونانية . وعلى ما يحتمل بأنه بدأ فى دراسة اللغة العبرية أيضاً [٢٠].

وفى هذه الفترة كتب الشاب المتحمس يوحنا كتابه الأول . وكان عبارة عن شرح لبحث يدعى كليمنتيا (Clementia) العفو أو الرحمة ، كتبه الكاتب الفيلسوف الرواقى سينكا فى القرن الأول . وكان سينكا المعلم والمهذب لنيرون . وقد كتب له هذه الرسالة « كليمنيتيا » أى الرحمة أو العفو ، ملتمساً من تلميذه الامبراطور بأن يستعمل الرحمة والعفو بدلا من القسوة فى معاملة رعاياه * [٢١] . والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : لماذا اختار يوحنا كلفن شرح هذه الرسالة ؟ وللإجابة على هذا السؤال يمكننا أن نقول بأن كلفن اختار

18- J. Rilliet 27

19- Cadier Mythes 2.

20- F. Wendel 11-12; Benoit 24; A. LeFrancis, Hist. du College de France Paris, 1893. p.772

21- Rilliet 20 .

* كان نيرون جباراً قاسيا فهو الذى أمر بحرق مدينة روما ليبنى على انقاضها مدينة جديدة واتهم المسيحيين بحرقها. كما انه طلب من استاذه سينكا بأن ينتحر فانتحر . على أى حال لو لم ينتحر لنحر .

رسالة سينكا الرواقى لأن الرواقية كانت تتمتع فى عصره بمكانة ممتازة ، كما أنها كانت موضوع النقاش والبحث . ألم ينشر العالم الهولندى المعروف أراسم أعمال سينكا ، مرتين ، وفى النشرة الأخيرة التى ظهرت فى سنة ١٥٢٩ طلب العالم بتواضع كاذب أن يقوم العلماء بالبحث ومناقشة هذا الموضوع ، حتى يقدموا أفضل مما كتبه هو فى ذلك المجال ؟ ربما دفع هذا النداء الشاب الإنسانى المتحمس أن يقدِّم بحثاً أفضل من البحث الذى قدمه العالم أراسم . على أن البعض يعتقد بأن الشاب كلفن اختار شرح رسالة سينكا المرسلة إلى نيرون الإمبراطور القاسى الظالم طالباً منه استعمال الرحمة بدل القسوة والعفو بدل الانتقام ، لكى يسود السلام امبراطوريته ، لأن كلفن وجد فيها فرصته لكى يوجه هو أيضاً نفس النداء إلى فرانسوا الأول ملك فرنسا ، لكى يعامل جماعة الانجيليين المضطهدين ، الذين يقاسون الآماً مبرحة واضطهادات عنيفة بسبب اعتقاداتهم وإيمانهم ، معاملة رحيمة عادلة طيبة . ومع ان هذه النظرية تتفق كثيراً مع روح وهدف الرسالة التى كتبها سينكا إلا أنها تحتاج إلى برهان ، لأن كلفن لم يتكلم فى شرحه لهذه الرسالة — لا من بعيد ولا من قريب — عن الملك فرانسوا بطريقة واضحة .

كما انه لم يكن قد انضم بعد إلى الكنيسة المصلحة [٢٢] . على أنه من المحتمل أن يكون كلفن قد أراد الدفاع عن المضطهدين لأنه كان واحداً من جماعة الإنسانيين (Humanistes) ، التى تحترم الإنسان وحريته . وكان يوحنا كلفن الكاتب المبتدىء يعلق على هذا الكتاب آمالاً كباراً ليشتهر ككاتب من جماعة الإنسانيين . فهل حقق كتابه الأول هذا الأمل ؟

كتب كلفن هذا الكتاب وهو فى الثالثة والعشرين من عمره وطبعه ونشره على نفقته الخاصة فى ٤ أبريل سنة ١٥٣٢ .

ولقد أهداه إلى صديقه العزيز وزميل صباه فى الدراسة ، اعترافاً بفضله وبفضل عائلته عليه ، وهو الكاهن كلود راعى كنيسة القديس الواه (Eloi) من عائلة هانجست (Hangest) النبيلة . وبالرغم من حداثة سنه فقد برهن فى

22- Wendel 11-12

هذا الكتاب على اتساع اطلاعه وعمق تفكيره ومحبته . فقد أقتبس فيه من أكثر من ستين كاتباً لاتينياً وما زاد على عشرين كاتباً يونانياً ، وبعض الآباء[٢٣]. وبالرغم من هذا لم يحقق كتابه هذا آماله الكبار التى عقدها على نجاحه بل فشل فشلاً ذريعاً ، ولكنه كان الفشل الأول والأخير فى هذا المجال [٢٤].

ورجع كلفن إلى أورليان لانهاء دراسته فى الحقوق . ولقد اختاره طلبة مقاطعة بيكاردى لكى يكون رئيساً لجماعتهم وممثلاً لهم لدى الجماعات الأخرى فى هيئة اتحاد الطلبة . فإن دل هذا الاختيار على شيء فإنما يدل على ثقة زملائه الطلبة فيه . ولقد مكث يوحنا كلفن فى مدينة أورليان حتى حصل على درجة الدكتوراه فى الحقوق فى سنة ١٥٣٣ [٢٥] .

23- Cadier Myths 24-25

24- Cadier Lhomme. 20-26 Wendel 12-15

25- Cadier, Lhomme.21-27.; Wendel 12. Walker p.70, Benoit 25

الفصل الرابع
تجديد يوحنا (جون) كلفن

إن عدداً كبيراً من الذين قبلوا الرب يسوع كمخلص وفاد لحياتهم ، يذكرون جيدا السنة والشهر بل اليوم والساعة التى تقابلوا فيها مع شخص الرب . فمثلاً الكاتب الفرنسى باسكال يحدد لنا أنه فى يوم الاثنين الموافق ٢٣ نوفمبر سنة ١٦٥٤ بين الساعة العاشرة والنصف ومنتصف الليل تقابل معه إله ابراهيم واسحق ويعقوب (١)، ولكن الأغلبية الساحقة من المسيحيين المجددين لا يذكرون تاريخ تجديدهم لأنهم نشأوا فى عائلات مسيحية متدينة ، فعاشوا ومارسوا نفس الإيمان الذى يحياه الوالدان . فحتى المصلحون أنفسهم لايذكرون تاريخاً يحدد اليوم والساعة لمقابلتهم مع الرب . صحيح أن لوثر قد حصل على اختبار معين وفى فترة معينة فى حياته ما بين سنة ١٥١٣ ــ ١٥١٥ ولكنه لم يحدد بالضبط اليوم . ان البعض يعتقد أنه حصل على اختبار التجديد أثناء صعوده على السلالم ال٢٨ فى رومه ، وهذا غير صحيح *.

إن موضوع تحديد تاريخ معين لتجديد المصلح الفرنسى ليس بالأمر السهل لأنه مر باختبارات عديدة وطويلة عملت كلها بعناية الرب إلى قيادته وارشاده. فما هى هذه الاحداث التى مر بها وقادته إلى التجديد ؟

ربما كانت مقابلته مع ماتيرن كورديه ١٥٢٣ فى مدرسة دى لامارش البذرة الأولى الخفية التى ألقيت فى نفس هذا الشاب الذكى .. على أننا نعتقد مع كثير من المؤرخين ، بأن السنوات الخمس (١٥٢٣ ــ ١٥٢٨) التى قضاها فى باريس دفعته إلى التفكير والبحث والنقاش فى موضوع الإصلاح والتجديد ، وربما سوء التفاهم الذى نشأ بين أبيه وبين جماعة الإكليروس ، ثم بين أخيه الكاهن شارل وبين الكهنة ، كان له تأثير عليه . كما لا ننسى بأن الفترة التى

(١) * لاتتفق مع هذا الرأى . انظر كتابنا مارتن لوثر ص ٥٣ ــ ٥٧

قضاها فى أورليان وبورج كانت من أعظم الفرص وأغناها فى الاختبارات الروحية والعلمية . فهناك تقابل مع فولمار اللوثرى الذى فتح أمامه ــ على ما يحتمل ــ باب الإصلاح . ويعتقد الكثير من المؤرخين بان روبرت أوليفتان (من عائلة كلفن) قام بدور هام جداً فى تغير كلفن بترجمته للكتاب المقدس إلى الفرنسية . ويقول ثيودور دى بز ما ملخصه أن أوليفتان وهو صديق وقريب ليوحنا كلفن والذى ترجم الكتاب المقدس من العبرية إلى الفرنسية ونشره فى نيوثاتل ، أذاقه طعم الديانة النقية وانتشله من الخزعبلات البابوية . (Op. Cal. 21 . p.54)

لقد استخدم الرب كل هذه الأحداث لقيادة هذا الشاب لمعرفة الحق الالهى . ولكن توجد بعض الأحداث الأخرى التى مر بها يوحنا فقادته إلى اتخاذ قرار حاسم .

فعلى ما يحتمل ، كان الشاب الجامعى جون كلفن يواظب على حضور اجتماع انجيلى فى باريس بعد موت أبيه ، وخاصة بعد عودته من أورليان . ففى هذه المدينة (باريس) تعرف على تاجر يدعى اسطفانوس دلافورج (Etienne de la Forge) وسكن فى بيته فى سبتمبر ١٥٣٣ . وكان هذا الرجل عظيماً فى إيمانه شجاعاً فى إعلانه للانجيل . ولقد قادته هذه الشجاعة للاستشهاد من أجل سيده . وكانت الاجتماعات الانجيلية تعقد بطريقة سرية فى بيته ، كما أنه كان يقوم بتوزيع نبذ وأناجيل مجاناً وعلى نفقته الخاصة . ففى هذا البيت بدأ كلفن يتعرف بطريقة مباشرة على الجماعات الانجيلية [٢]. كان يحضر فى بداية الامر كمستمع ، ولكنه صار فيما بعد من بين المسئولين عن قيادة هذا الاجتماع . وهناك حادث آخر يظهر لنا شجاعة يوحنا وميله للإصلاح : ففى يوم ٢٣ أغسطس ١٥٣٣ حضر اجتماعاً عاماً عقد فى مدينة تويون ، وكان الغرض من هذا الاجتماع هو تنظيم تطواف وإقامة الصلوات لكى تنجو المدينة من وباء الطاعون . وفى هذا الاجتماع تكلم كلفن ، ولقد اشار منددأ بموقف

2- E.Choisy.24-25; J. Rilliet 30-32;Benoit 26.1
G. Harkness, J.C. The Man and His Ethics p 6-8

بعض الذين لا يجرؤون على إعلان معتقداتهم الدينية بصراحة (٣).

كان يعتقد الكثيرون من أتباع الإصلاح بأن الملك سوف يمنحهم إن آجلاً أو عاجلاً حرية العبادة ، لا بل إن البعض كان يتمتع بها فعلاً مثل لنفردى تابل . بل إن مارجريت أخت الملك فرانسوا الأول فتحت بيتها وقلبها ، ليس فقط للإنسانيين بل للمصلحين أيضاً . فصار بلاطها عبارة عن أكاديمية علمية ، فيه تناقش الأفكار الجديدة والتيارات المختلفة . لا بل أكثر من ذلك فإنها أظهرت عطفاً عليهم وقامت بحمايتهم . وفى سنة ١٥٣٣ حدثت حادثة أيدت هذا الشعور الذى كان يسيطر على البعض . ففى أول أكتوبر من نفس العام قام طلبة كلية نافار بتقديم تمثيلية هزلية ، استهزأوا فيها بأستاذ يدعى جيرارد روسل (Gerard Roussel) . وفى تمثيليتهم الهازلة لم يرحموا الملكة مارجريت دى نافار وانتقدوا بشدة ساخرة لاذعة كتابها الشعرى الذى يدعى « مرآة النفس الخاطئة » ، الذى صورت فيه أن النعمة هى التى تخلص وتجدد النفس الخاطئة .... فعندما عرفت الملكة بخبر التمثيلية الهازلة كتبت إلى أخيها الملك فرانسوا فاطلع على الأمر وعرف مدهشاً بأن كتاب أخته قد وضع على قائمة الكتب الممنوعة (القائمة السوداء) ، فطلب الملك من جامعة السربون إيضاحاً لهذا القرار . وكان عميد الكلية فى هذا الوقت الذى تعين من سبعة عشرة يوماً فقط هو كوب (Cop) فجمع هذا الاخير كلية الطب والفلسفة والعلوم الدينية والحقوق وعرض عليهم الأمر وأصدر حالاً أمرا برفع القرار الذى وضع هذا الكتاب على قائمة الكتب الممنوعة (٤)

وكان كوب نيقولا المدير الجديد لجامعة السربون وهو ابن الطبيب جيوم (Guillaume Cop) الذى كان طبيباً خاصاً للملك لويس الثانى عشر ثم فرانسوا الأول ... كان (كوب نيقولا) صديقاً حميماً للشاب جون كلفن منذ أن كان طالباً فى باريس (٥). مما سبق يمكننا أن ندرك إلى أى مدى تغلغلت حركة الإصلاح فى الوسط المثقف فى فرنسا ، وأثرت فى قادته . وهذا واضح فى حادثة كوب ؟

3- F. Wendel 20-30

4- Cadier lhomme 33-35. C. Choisy 24.

5- Rilliet. 27; Wendel 22-24

فما هى إذاً قصة رئيس جامعة السربون ؟

كان معتاداً أن يلقى مدير جامعة السربون خطاباً فى أول نوفمبر بمناسبة عيد جميع القديسين . ففى أول نوفمبر سنه ١٥٣٣ اجتمعت كليات جامعة السربون فى كنيسة الماتوريين (Les Mathurins) ، وألقى العميد الجديد عظة تعد من العظات التى لها أهميتها فى تاريخ الإصلاح الفرنسى .

اتخذ كوب موضوعاً لتأمله قول المسيح : طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات .... طوبى للمطرودين من أجل البر ، لأن لهم ملكوت السموات ....(متى ٥:٣ ، ١٠) . ولقد بدأ عظته بشرح الفلسفة المسيحية باعتباره أستاذ الفلسفة فى الجامعة ، مستوحياً أفكاره من أقوال أراسم ولوثر . على أنه رجع إلى التطوبيات ، منبراً على حقيقة أن الله قد أحب العالم بمحبة لا تقاس ، ولهذا فقد أرسل ابنه الوحيد الذى صار انساناً ومات لأجلنا . إنه جاء لمغفرة الخطايا التى لاتتم إلا عن طريق نعمة الله وحدها ، والروح القدس هو الذى يمنح للجميع هذه النعمة ، لأنه هو مصدر القداسة . إن الحياة الأبدية مقدمة للجميع ، وان المسيح مات لأجل خطايانا لكى يبررنا بنعمته ، فعلينا إذاً أن نخشى ذاك الذى له السلطان على أرواحنا وأجسادنا ، وأن نضحى ونموت من أجل الذى ضحى ومات من أجلنا . إن العالم اعتاد أن يطلق كلمات هراطقة مضلون ... الخ . على هؤلاء الذين يعملون جاهدين فى نشر الإنجيل صافياً نقياً ، ... فطوباهم وإنهم يحسدون على ما يقومون به بشجاعة نادرة مباركين الهم بالرغم من الاضطهادات *(٦) ألقيت هذه العظة من على منبر كاثوليكى ، من عميد جامعة السربون التى كانت تعتبر قلعة للأرثوذكسية .

إن معظم الكتاب يعتقدون أن كاتب هذه العظة ليس نيقولا كوب ، بل يوحنا كلفن . فقد اكتشف فعلاً فى مكتبة جنيف ، النص الكامل لهذه

5- Rilliet. 27; Wendel 22-24

6- Cadier Mythes 30-32-Cadier Lhomme 33-35 Op.Calv. 106, p.30-36

* تجد نص هذه العظة كاملة فى ص ٣٠ — ٣٦

العظة ، قد كتب كله بيد يوحنا كلفن ويلحق به مذكرة بخط يد سكرتيره كولادون (Colladon) (سكرتير جون كلفن) يقول فيها عظة كتبت باسم المدير نيقولا كوب [٧].

هل كتب فعلا كلفن هذه العظة ؟

إن عدداً كبيراً من الكتّاب والمؤرخين ينسبونها فعلاً لكلفن ، لأن كوب كان صديقاً حميماً ليوحنا كلفن ، كما أن بعض الأفكار الموجودة فى هذه العظة تعتبر أفكاراً جديدة تتفق جزئياً مع تعاليم كلفن . على أن البعض الآخر يعتقد بأن الكاتب هو كوب نفسه ، لأن بعض أفكارها لايتفق وتفسير كلفن فى شرحه لمتى ٥ : ٣ [٨]. أما فيما يخص النسخة الأصلية المكتوبة بيد كلفن ، فان العالمين A.Lang ثم K. Muller يعتقدان بأن هذه ليست النسخة الأصلية بل نسخة من النسخة الأصلية التى ضاعت [٨] ، فمن المحتمل بأن كلفن الذى كان صديقاً لكوب قد كتب جزءاً بيده من خطاب كوب .

على أننا نعتقد بالرغم من التحفظ الذى أظهره فندل وآخرون بأن العظة هى عظة كلفن أو على الاقل هى من تأليف كلفن وكوب معاً ، أن هذه العظة تدل على شيئين فى غاية الأهمية : الشيء الأول : أن حركة الإصلاح كانت قد أخترقت بعض الأوساط المثقفة وانتشرت فيها وسيطرت عليها . الشيء الثانى : أن هذه العظة وهذا التاريخ أول نوفمبر ١٥٣٣ ، يعتبران كالخمسة وتسعين مبدأ التى علقها لوثر على باب كاتدرائية فيتمبرج فى يوم ٣١ أكتوبر ١٥١٧ ، تاريخ بداية الإصلاح الألمانى ، لأن هذا عين ما فعله كلفن بتأليفه هذه العظة .

ففى هذه العظة التى ألفها كلفن وكوب يعلن يوحنا (جون) بطريقة واضحة وصريحة قبوله التعاليم الانجيلية ، وهذا التاريخ يعتبر تاريخاً مهماً بالنسبة للكنيسة المصلحة الفرنسية .

7- J. Cadier. Mythes. 28-32; Cadier, Ihomme 30-300 Benoit 26-27. Wendel 22-23

8- Lang, Bekehrung, pp. 46, 49

فماذا حدث اذاً بعد هذه العظة وما هى نتائجها ؟

كانت هذه العظة عبارة عن قنبلة قد انفجرت فى جامعة السربون التى كانت تعتبر كقلعة للأرثوذكسية وحاميتها . ألم تصدر جامعة السربون أحكاماً ضد تعاليم الهرطقة اللوثرية ؟ ألم تحكم أيضاً بحرق وحرم تعاليم لففر دى تابل ؟ فكيف إذاً لعميد عمداء هذه الجامعة أن يعلن بهذه الصراحة وهذه الجرأة تأييده لحركة الإصلاح ؟ صحيح أنه أعلن فى ختام عظته أنه كاثوليكى متمسك بتعاليم الكنيسة معترفاً بأمومة العذراء لله ، ولكن التعليم الذى نادى به هو تعليم المصلحين . إنه واحد منهم ويجب أن يمثل أمام البرلمان لاستجوابه ، وفعلا استدعى للمثول أمام البرلمان . وبينما كان فى طريقه للذهاب إلى هناك علم سراً بأنه اذا كان يريد إنقاذ حياته فليهرب . وعند سماعه هذا الخبر أسرع بالهروب إلى بازل ، وهى مدينة عائلته (Choisy 25) . وفى استعجاله نسى خاتم الجامعة فى جيبه . وذهب البوليس للقبض على المتهم الثانى وهو يوحنا كلفن فعمل من ملآت سريره حبلاً وتدلى به من الشباك الخلفى لكلية فورته حيث كان ساكناً . ولكى يواصل هروبه خفية ، فقد ارتدى ثياب كرَّام وحمل على ظهره قفة كبيرة من القفف التى يحملها الكرامون .

عندما نلقى نظرة على هذا الشاب الذى يرتدى ثياب الكرامين القذرة ، ويحمل على كتفيه قفة منْ قففهم الضخمة ، باحثاً عن ملجأ يختبىء فيه بعيداً عن أعين الباحثين للقبض عليه وتسليمه إلى المحاكمة فالموت ، عندما نرى هذا الشاب المثقف ثقافة ممتازة عالية وحاصلاً على درجات علمية حلم بها الكثيرون جداً من أنداده فى عصره يتحمل فى شهر نوفمبر قسوة البرد القارس وسقوط الثلوج الغزيرة المجمدة القاتلة ، نتساءل لماذا كل هذا العناء ؟!

والجواب هو أن هذا الشاب المطارد كان يقاسى هذا كله لأنه تجدد .!

لقد سبق وتكلمنا عن الطرق التى استخدمها الرب مع مصلح المستقبل لكى يقوده إلى التجديد ، ثم رأينا أنه من الصعب أن نحدد تاريخاً معيناً لهذه العملية . ربما يكون قد مر بلحظة معينة فى حياته حصل فى أثنائها على عملية التجديد أو الميلاد الثانى . ولكن من الدراسة التى استعرضناها لانجد لا فى

كتاباته ولا كتابات الذين كتبوا عنه تحديداً لهذا التاريخ : هل حصل على هذا الاختبار عندما كان طفلاً فى مدرسة نويون ، أم فى مدرسة دى لامارش ، أم فى مدرسة مونتجى ، أم فى أورليان ، أم فى بيت اسطفانوس دى فورج أم أثناء إعداده لعظة كوب ، أم عندما ذهب فى مايو ١٥٣٤ إلى نويون لكى يتنازل عن منحته . هل حصل على الاختبار الروحى فى فرصة من هذه الفرص ؟ أم أن الرب استخدم كل هذه المراحل مجتمعة معاً لقيادته إلى التجديد ؟؟؟ إننا لا نعرف بالضبط .

وذلك يرجع إلى حقيقة أن كلفن لم يكتب عن نفسه أو عن تاريخ حياته إلا القليل والقليل جداً . فهناك نصان يتكلم فيهما عن حياته ، وعن تجديده . ففى المقدمة لشرحه لسفر المزامير (سنة ١٥٥٨) يقول ان والدى قد عيننى لدراسة العلوم الدينية منذ صباى ، على أنه أدرك فيما بعد أن دراسة القانون تغدق الثراء على دارسيه ، وهذا الرجاء جعله يغير رأيه . ولذلك فقد حولنى من دراسة الفلسفة إلى دراسة القانون ، ولهذا السبب تركت دراسة الفلسفة إلى دراسة الحقوق وعكفت عازماً على دراسته بأمانة إطاعة لوالدى . على أن عناية الله الخفية غيرت اتجاهى إلى طريق آخر فمع أننى كنت منغمساً فى خرافات البابوية ، بدرجة يصعب فيها الخروج من هذه الحمأة ولكنه بتغيير مفاجىء ، أخضع قلبى ـــ الكثير العناد ـــ لطاعته ... [٩] وعندما تذوقت الديانة الحقيقية انقدت حالاً برغبة فى دراستها ، دون أن أترك الدراسات الأخرى [١٠] .

وعلى ما يحتمل فإنه كتب هذا النص فى أثناء دراسته للحقوق فى أورليان أو بعد موت أبيه جيرارد . ويعتقد جون كاديه بأن قريبه أوليفتان وثولمار اللوثرى قاما بدور هام فى قيادة هذا الشاب إلى الإصلاح .

أما النص الثانى فنجده فى رسالته التى كتبها إلى الكاردينال سادوليه (Sadolet) . فعندما قرر مجلس مدينة جنيف طرد كلفن منها ، انتهز هذه الفرصة الكاردينال سادوليه وكتب خطاباً رقيقاً يدعو فيه الشعب إلى العودة

9- Cadier LĤomme. 36-40

10- Cadier lĤomme 39

إلى حضن الكنيسة الأم . فأرسل نفس مجلس المدينة الذى طرده هذه الرسالة إلى كلفن فى استراسبورج لكى يرد عليها . فرد كلفن على هذه الرسالة برسالة تعد فى غاية الاهمية فى تاريخ الإصلاح فى جنيف ، وسوف تكون لنا الفرصة أن نتحدث عنها فيما بعد .

ففى هذه الرسالة يرفع صلاة لله ، قائلا : « ...آه يا سيد ، إنك أنرتنى بنور روحك .... وضعت أمامى كلامك كمشعل لكى أدرك كم كانت هذه الضلالات رديئة ومهلكة . وفى نهاية الأمر فأنت الذي لمست قلبى . ففى كل مرة كنت أنزل إلى أعماق أو أرفع قلبى إليك كان يستولى على الرعب بأنه لايوجد بر ... لشفائى . وعندما كنت أتأمل فى نفسى عن كثب كنت أشعر بإبر حادة تنخس ضميرى . ولا يوجد بعد راحة أو عزاء الا فى أن أغش نفسى وأتناسى ..... » .

ويستمر كلفن فى صلاته واصفاً حالته وكيف أنه قاوم بعناد التعاليم الجديدة فى بداية الأمر ، متمسكاً بالتعاليم التى تسلمها . ولكنه عندما فتح أذنيه للسمع ، وعند ما تنبه ذهنه للفهم رأى النور الحقيقى ، وعندئذ أدرك فى أى حمأة هو .... فبكى متألماً ونادماً على ماضيه ... ويختم صلاته بالقول « الآن ياسيدى ماذا بقى لى أنا الفقير البائس إلا أن أقدم صلاتى المتواضعة لك طالباً ألا تنظر إلى إهمالى الرهيب لكلمتك والابتعاد عنها ، ولكنك أخرجتنى بلطفك العجيب من هذه الحالة (١١) » .

إن الذى يطلع على النص كله يستطيع أن يدرك من أول وهلة أن يوحنا كلفن كان يصارع فى صلاته ، ببكاء ودموع . إنه كان يشعر بحالته وابتعاده عن الله ، وكان يشعر بخطيته والظلام الذى كان يحيط به . وعندما أدرك نور الإنجيل ، وعندما وصلت إليه رسالة الخلاص ابتدأ يشكر الله على رحمته ولطفه لأنه أنقذه من الابتعاد وإهمال كلمة الحياة . كان يمر بنفس الاختبار الذى مر به المصلح الألمانى لوثر فى نضاله وصراعه وصلاته للوصول إلى فهم كلمة الحق

11- Cadier Mythes 35-36

الإلهى . وعندما وصل إليه نور الحق الالهى العظيم كأنى به يضم صوته إلى صوت المصلح الألمانى قائلا « فإن ضميرى لايخضع إلا للكتب المقدسة . ولذلك لايمكننى أن أتراجع لأنه ما أخطر أن يتصرف الإنسان ضد ضميره . وهذا ما أؤمن به ، فليعنى الرب » [١٢] .

نعم إنه قرر فى لحظة ما — لانستطيع ان نحدد تاريخها أن يتبع سيده حاملاً صليبه سائراً خلفه معلناً مجده للناس . ولأجل هذا نراه مطروداً يحمل قفة على ظهره منطلقاً إلى مدينة أنجولم (Angouleme) حيث أن صديقاً عزيزاً عليه يدعى لويس دى تيليه (Louis de Tillet) (وتنطق لوى دى تييه) كاهن لكنيسة كليه [١٣] (Claix) وواعظ فى كاتدرائية أنجولم دعاه للنزول ضيفاً عليه [١٤] ولكى لايكشف أمره فقد حمل اسم شارل دسبيفيل (Charles dÉspeville).

ومع أن كلفن كان بعيداً فى هذه المدينة عن الوسط الجامعى الذى تعوَّد عليه ، وسط الدرس والبحث الذى كان يستحوذ على كل مشاعره ووقته ، فإنه وجد فى بيت صديقه الكاهن مكتبة أبيه عامرة بالكتب والمخطوطات الثمينة والقديمة . فقد احتوت على ما يقرب من أربعة آلاف كتاب ومخطوطة . وفى هذه المكتبة الزاخرة بالكتب انغمس كلفن كعادته فى الدرس والبحث . وهنا أيضاً ، وفى هذه المكتبة فى مدينة انجولم (Angouleme) بدأ فى مشروع كتابة كتاب ، صار — فيما بعد — من أعظم الكتب العقائدية التى ظهرت فى القرن السادس عشر . والذى قال عنه المؤرخ الكاثوليكى فلوريمون فى حديثه عن كلفن وعن أهمية كتابة هذا عن البروتستانتية : « الذى يمكن أن تدعوه أو بالحرى تلموداً للهراطقة » [١٥] ، ألا وهو كتاب « أسس الديانة المسيحية (Institution de la Religion Chretienne) .

---

١٢ — الدكتور القس حنا جرجس الخضرى . لوثر ١١٨ — ١١٩

13- Cadier. Mxt, Wendel 22-26

١٤ — المرجع السابق

15- Florimond de Raemond. p.883 - Cadier lhomme 45; Wendel 23-24.

ففى هذه الفترة لم يذق يوحنا كلفن طعم الراحة ، بل كان يدرس ويكتب ليل نهار . ولقد كتبت عنه جريدة محلية كاثوليكية فى انجولم تقول بأنه كان يقضى فى أحيان كثيرة الليل كله فى الدرس والكتابة (١٦). ولقد أسماه البعض باليونانى ، لأنه كان يعلّم كاهن المدينة اللغة اليونانية . وفى هذه الفترة كان يعقد اجتماعات خارج المدينة فى بعض المغارات والكهوف مع بعض الأصدقاء وكان يقرأ عليهم ما قد كتبه فى كتاب أسس الديانة المسيحية . وتوجد حتى الان بقرب هذه المدينة بعض الأماكن التى تحمل اسم كلفن مثل : مغارة كلفن ، منبر كلفن ... الخ

فى شهر أبريل سنة ١٥٣٤ انطلق كلفن سراً إلى مدينة نراك (Nerac) ، وهى مقر الملكة مارجريت دى انجولم ، أخت الملك فرانسوا الأول . وكان الفرق شاسعاً واسعاً بين الملك فرانسوا الأول وأخته مارجريت . فإن الأول قام بحملة اضطهاد مسعورة ضد جماعة اللوثريين ، والذين كان يسميهم بالهراطقة . ففى يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٥٣٣ كتب من ليون إلى البرلمان فى باريس خطاباً ملتهباً ، واصفاً فيه أمجاد باريس والدور الذى تقوم به جامعتها فى التعليم المسيحى ، صاباً غضبه أيضاً على الهرطقة اللوثرية ، حاثاً برلمانه على استئصال هذه البدعة بكل الوسائل الممكنة بلا رحمة وبلا شفقة ، لكى يكون هذا العقاب درساً للجميع (١٧). وأما الكاتبة ، مارجريت فكانت على العكس تماماً من أخيها . فلقد فتحت أولا قلبها ثم قصورها لجماعة الإنسانيين والإنجيليين . لا بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فقد قامت فى كثير من الأحيان بحماية الانجيليين ، مما أثار غضب السربونيين . ولقد صارت مدينة « نراك » ملجأ للهاربين من الاضطهادات (١٨). إلى هذا الملجأ أسرع كلفن . كان مصلح المستقبل يتقد رغبة فى مقابلة يعقوب لففر دى تابل (Jacques Lefevre dÈtaples) الذى كان فى هذا الوقت ضيفاً فى قصر هذه الملكة الحامية لجماعة الإنجيليين . وكان قد

16- Benoit 35-36

17- Cadier lhomme 43

18- Benoit 36-37 - Cadier lhomme 48-49

بلغ المائة من عمره . ولقد سبقت الإشارة بأن هذا الرجل قد كتب تفسيراً عن المزامير فى سنة ١٥٠٩ ، أى فى نفس السنة التى ولد فيها كلفن ، ثم تفسيراً آخر لرسائل القديس بولس فى سنة ١٥١٢ . وفى هذا التفسير الأخير نبَّر على حقيقة التبرير بالإيمان ، قبل أن ينادى به مارتن لوثر .

وهنا يتقابل هذان العملاقان ، الرجل الذى قطع مائة سنة من عمره ، ويقف الآن فى نهاية الطريق متطلعاً فى الأفق الواسع باحثاً عن شخص لكى يسلم له المشعل ، وهذا الشاب ـــ الذى يظهر فجأة ـــ وهو فى ربيع الحياة وقد امتلأ بالقوة والحيوية والحماس والإيمان . لابد أن اللقاء بين هذين العملاقين كان مثيراً . وللأسف الشديد لا نعرف شيئا عما دار بينهما ، فإن ثيودور يقول « لقد استقبل الشيخ الصالح هذا الشاب بسرور متمنياً له أن يكون أداة فى تأسيس ملكوت السموات فى فرنسا [١٩] .

مما لاشك فيه ، أن الملكة مارجريت ، التى كانت تشجع الحركات الإصلاحية ، قد ناقشت مع المصلح بعض المسائل العقائدية .
عندما قام كلفن فى ٤ مايو سنة ١٥٣٤ بتسليم الأوراق الخاصة بالامتيازات المالية التى كان يحصل عليها من الكنيسة ، أعلن بطريقة واضحة وصريحة أمانته وتدقيقه . فإنه لايريد أن يحصل على مساعدة من كنيسة أصبح لايتفق معها على بعض تعاليمها وعقائدها . ومن نويون ذهب إلى باريس لأنه كان يريد أن يتقابل مع شاب طبيب أسبانى قد نشر كتاباً بعنوان « خطأ عقيدة الثالوث » ، هاجم فيه بشدة عقيدة الثالوث ، ونشر هذا الكتاب فى سنه ١٥٣١ ، والذى نشره هو ميشيل سرفه . كان حضور كلفن إلى باريس يمثل خطراً عظيماً على حياته . ومع ذلك قبل المخاطرة بحياته وجاء فى الميعاد ، وإلى المكان المحدد ، ولكن ميشيل سرفه لم يحضر[٢٠] . لم يمكث كلفن هذه المرة مدة طويلة فى باريس فقد غادرها متجهاً ناحية الجنوب الغربى ، فوصل إلى مدينة أنجو لم .

19- Benoit 37, Doumerque t.l,pp.400, 452-557 J.Barnaud, Jacques Lefevre dÉtaples. E.The.Re. Montpellier 1936. Cadier lhomme 49-50

20- Benoit 41-42, Cadier lhomme 57, Cadier Mythes 46

ثم اصطحب صديقه الكاهن لويس دى تليه ، وانطلق كلاهما إلى مدينة بواتيه Poitiers . وفى هذه المدينة التف حوله جماعة من الذين كانوا يبحثون عن معرفة الحق الإلهى ، وكانت نفوسهم متعطشة لدراسة الكلمة . وعلى ما يبدو ، فإن موضوع العشاء الربانى وحضور المسيح فيه كانَ نقطة الحوار والبحث فى اجتماعاتهم . وكانت تجتمع هذه الجماعة فى المغارات وفى أماكن سرية وغير معروفة ، بسبب الاضطهادات . وعلى ما يحتمل، وبحسب بعض التقاليد الإنجيلية فى فرنسا ، أنه فى هذه المدينة وفى إحدى مغاراتها قام كلفن بممارسة أول عشاء ربانى . ومن ثم فان « بواتيه » تعتبر المكان الأول فى فرنسا ، الذى مورست فيه خدمة عبادة كاملة تشتمل على عشاء ربانى بحسب النظام الإنجيلى [٢١] .

إن يوحنا كلفن لم يُسَم كاهناً أو قساً ولم توضع عليه الأيادى ، وبالرغم من ذلك فإنه قام بممارسة العشاء الربانى ، لأنه كان يعتقد بأنه تسلم من الرب نفسه أمانة هذه الخدمة . « لأننى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً ... اكو ١١ : ١٣ — ١٤ » [٢٢].

ومن هذه المدينة ينطلق كلفن إلى أورليان المدينة الخالدة فى ذكرياته . وهناك أنهى تأليف كتابه الذى يدعى (La Psychopannychia) ويعنى يقظة الأرواح أو عدم نوم الأرواح . فلقد حاول فى هذا الكتاب أن يشرح أن الأرواح تظل مستيقظة وحية بعد خروجها من الأجسام . فلقد رفض فى هذا الكتاب عقيدة المعمدانيين الذين علموا بأن الأرواح تظل راقدة مستريحة بعد الموت إلى يوم القيامة والدينونة . فمع أنه أنهى هذا الكتيب فى سنة ١٥٣٤ ، فإنه لم ينشر إلا فى سنة ١٥٤٢ باللاتينية وفى سنة ١٥٥٨ بالفرنسية [٢٣]. وقد تدهش أن المصلح العظيم يكتب أول كتاب دينى له ، معالجاً مشكلة ثانوية . وفى حقيقة الأمر فإنه كان يدافع عن قضية مهمة فى هذا الوقت ، وضد تعاليم المعمدانيين التى كانت قد انتشرت فى عصره وعثَّرت الكثيرين ، وخاصة أن هذه الجماعة

21- Benoit. 40-42, Cadier lhomme 52-55

22- Choisy 25-27

23- Cadier lhomme 54. Wendel 24

كانت تَّدعى بأن تعليمها بارشاد الرب مباشرة . ولهذا السبب كتب كلفن هذا الكتيب .

وبينما كان فى مدينة أورليان يتمتع خفية برؤية أصدقائه ، منكباً على كتابة هذا الكتيب ضد المعمدانيين ، حدثت حادثة من أهم الأحداث فى تاريخ الإصلاح الفرنسى وهى : حادثة المنشورات (Láffaire des placards) فعلى ما يبدو ، وهذا ليس رأى كل المؤرخين ، [٢٤]كان الملك فرانسوا الأول يعرج بين الفريقين ، فلم يستطع أن يتخذ قراراً حاسماً وقاطعاً تجاه جماعة الانجيليين . ويعتقد هذا الفريق أنه كان يميل بقلبه إليهم ، ولأجل هذا السبب تغافل عن نشاطهم فى البلاد .

على أن الفريق الثانى من المؤرخين ، يعتقد بأن الملك فرانسوا كان ضد جماعة الإنجيليين ، وكان ينوى التخلص منهم (Cadier lhomme p.43) ، ولكنه كان يخشى رد الفعل من الداخل ومن والخارج ، وخاصة أنه كان يبحث عن عمل معاهدة مع الأمراء الألمان ضد الإمبراطور شارل الخامس وأن عدداً لا بأس به من هؤلاء الأمراء بروتستانت . ومما لاشك فيه ، أن فرانسوا الأول كان يختلف فى موقفه تجاه الإنجيليين عن أخته مارجريت . ألم يصدر أمره فى ١٠ ديسمبر ١٥٣٣ ، بعد عظة كوب بالقبض على الإنجيليين وطرحهم فى السجون ؟ وهنا تأتى حادثة الإعلانات فزادت « الطين بلة » ، إذ أثارت غضبه وملأت قلبه بالحقد على الإنجيليين ودفعته إلى الانتقام منهم بالاضطهاد والسجن والحرق لاستئصالهم جذراً وفرعاً . فما هى قضية الإعلانات هذه ؟

فعلى ما يبدو ، أراد بعض الأفراد القليلين جداً أن ينتهزوا فرصة أن الملك فرانسوا الأول كان يرغب فى التقرب من الأمراء الألمان . ولذلك فقد فكروا أن يقدموا إلى الشعب ملخصاً لتعاليم الكنيسة الإنجيلية . وبناء عليه فقد أرسلوا إلى سويسرا ممثلا لهم لكى يناقش هذا الأمر مع بعض الخدام الإنجيليين فى نيو شاتل فرجع فره (Feret) من مدينة نيو شاتل بمنشور قد قام بكتابته أنطوان

24- Choisy 25 - 27

ماركورت (Antoine Marcourt) راعى الكنيسة الإنجيلية فى مدينة نيوشاتل ، وأصلاً من مدينة ليون بفرنسا . على ان كورود (Couraud) لم يوافق على هذا المنشور ، وحذر بشدة من استخدامه .

وعند وصول هذه المنشورات إلى باريس قامت جماعة متعصبة متحمسة وهوجاء بتوزيعها بطريقة جنونية وسريعة . ففى ليلة ١٧ ــ ١٨ أكتوبر سنة ١٥٤٣ علقت هذه الإعلانات فى باريس وفى أورليان ، وفى (Amboise). أكثر من ذلك فإن حماقة وتعصب هذه الحفنة القليلة قد وصلت إلى حد التجرؤ على تعليق منشور على باب حجرة نوم الملك ، ووضع منشور آخر فى الطبق الذى كان يضع فيه منديله . ياله من تعصب أعمى وحماقة . كان هذا المنشور يحتوى على نقد لاذع ضد الكنيسة الكاثوليكية ممثلة فى البابا والكرادلة والأساقفة والكهنة ، وضد مفهوم الكنيسة لعقيدة الافخارستية ، وبعض العقائد الأخرى [٢٥]. ولقد كتب هذا المنشور بأسلوب هجومى عنيف خالٍ من الأدب ومن اللياقة ، مستعملاً بعض الألفاظ غير المهذبة . والكنيسة الانجيلية تأسف أسفاً شديداً لتطرف هذه الحفنة من المتعصبين ، واستعمالهم هذا الاسلوب الجاف غير المؤدب . على أنها تشكر الله أيضاً بأن روح التعصب هذه لم تكن الروح العامة ، بل كانت قاصرة على نفر قليل جداً من المتعصبين المتطرفين .

وعندما اطلع الملك فرانسوا الأول على هذه المنشورات ، وخاصة عندما وجد بعضها ليس فقط معلقاً فى الأماكن العامة فى المدينة بل على باب حجرة نومه وداخلها ، وفى الطبق الذى كان يضع فيه منديله ، ثار ثورة عارمة ، معتبراً بأن هذا الأمر تحدياً لشخصه وجلالته الملكية . ولذلك شن الاضطهادات العنيفة المريعة ، واعداً بمكافأة مالية لكلٍ من يعلن عن اسم وعنوان أى لوثرى من الذين قاموا بلصق هذه الاعلانات . ووصلت بعض الشكاوى التى تحمل أسماء وعناوين بعض اللوثريين ، فقبض عليهم وألقى البعض منهم فى السجون . وفى يوم ٧ نوفمبر حكم بالموت على سبعة منهم .

25- Cadier M. 55-57; Cadier.Lhomme 59-64; Benoit 46

وعندما رجع الملك من مدينة أمبواز إلى باريس ، قام مع كل طبقة الإكليروس وأولاده الثلاثة بتطواف (مظاهرة) تكفيرى فى يوم ٢١ يناير ١٥٣٥ ، وكان الملك فى هذه المظاهرة عارى الرأس مع أولاده الثلاثة ويمسك بيده شمعة مشتعلة . وكان يتوقف الملك فى تطوافه هذا ـــ كذلك كل الجماهير التى كانت تسير خلفه ـــ أمام النيران التى كانت تشتعل فى أجساد الذين كانوا يحرقون أحياء .

وكان رعاع الجماهير يضربون وينهشون ويجذبون الذين قبض عليهم والذين أتهموا بانتسابهم إلى المذهب الانجيلى ، فمزقوا أجسادهم وقتلوهم قبل أن يصلوا إلى كومات الخشب المتقدة لالقائهم فيها [٢٦] . كان هذا اليوم فظيعاً مرعباً يذكره الإنجيليون الفرنسيون بحزن وألم عميقين . فإن موجة الإضطهاد هذه قد طوحت فى النار برجال أتقياء وقادة أكفاء منهم برثلمواس ميلون المشلول واسطفانوس دلا فورج الذى نزل كلفن عليه ضيفاً فى باريس وآخرين كثيرين [٢٧]. وفى عشية هذا اليوم المؤلم المحزن أعلن الملك أثناء العشاء أمام الإكليروس وسفراء الدول الأجنبية ، بأنه سيعامل كل هرطوقى بنفس المعاملة ، حتى ولو كان من عائلته . وهنا أصدرت القرارات بالقبض على كل من ينتمى لهذه الطائفة ، ومصادرة أملاكه وأن تعطى ربع الأملاك للذى يقدم شكوى باسم وعنوان الإنجيلى ، يالها من كارثة وأى كارثة أشاعت الفوضى والحقد والكراهية بين المواطنين !!!!

على أن بعض المؤرخين يعتقدون بأن الأخبار التى كانت تصل إلى الملك فرانسوا فيما يخص الكنيسة الانجيلية وتعاليمها غير صحيحة ومشوهة . فلقد قيل له بأن جماعة الإنجيليين لا تؤمن بوجود كنيسة ، أو حكام أو زواج بل يعيشون كالحيوانات فى حياتهم الزوجية ... على أى حال فإننا نلاحظ أن الملك فرانسوا

26- Benoit 48

27- B, Theodore de Bege.Histoire ecclesiastique des Eglise reformées 1,35; Benoit 49; Cadier 62-63

Calvin contre la secte des Libertius, Ch. 4 Op. 7,p.160 C.F. Herminyard: Correspondance des Reformateure 3,P.166.

Preface au Commentaire des Ps. Cop. 21, p. 24

قد غير اتجاهه وسياسته ، أو على الأقل بدأ يظهر موقفاً معادياً ضد الكنائس الإنجيلية منذ شهر ديسمبر ١٥٣٤ عندما كتب خطابه من ليون إلى البرلمان فى باريس آمراً بالقبض على اللوثريين ومعاملتهم بشدة . من هذا التاريخ شعر المصلح الفرنسى بعدم الاستقرار [٢٨] .

إنه يعيش طريداً مهدداً منبوذاً . نراه ينتقل من أنجولم ، إلى نراك ومن نراك إلى نويون ومن نويون إلى باريس ومن باريس إلى أورليان ، إنه من المستحيل أن يكتب وينتج فى هذا الجو المضطرب القلق المزعج . كان يشعر بأنه محمل برسالة للشعب الإنجيلى الفرنسى برسالة الكتابة والتأليف لبنيان هذه الكنيسة الناشئة غضة العود ضعيفة البنية .

إن كل هذه الأحداث دفعت كلفن بأن يبحث عن مكان يستطيع أن يقوم فيه بتأليف وكتابة هذه الكتب ، ولذلك فقد قرر بأن ينطلق مع صديقه الكاهن لويس دى تليه إلى مدينة بازل فى سويسرا .

28- Jacques. Pannier. Introduıtion à la reedition de lÉpistre au roi : p. 13. Benoit 50-51

الفصل الخامس

يوحنا (جون) كلفن فى سويسرا

١ ـ فى بازل :

وصل يوحنا (جون) كلفن وصديقه لويس دى تليه إلى مدينة بازل . ولقد انضمت هذه المدينة إلى الإصلاح فى سنة ١٥١٩ قبل أن يصل إليها كلفن ، لأن الواعظ كابيتون من مدينة استراسبورج بدأ الوعظ فيها ، وجاء بعد ذلك الواعظ الشهير أكولامباد (Occolampade) ، الذى كان يعظ فى كنيسة القديس مارتن ، وهو الذى قام بإدخال بعض الإصلاحات والتعديلات فى القداس وفى نظام العبادة . ولكنه مات سنة ١٥٣١ قبل أن يصل إليها كلفن . وبازل هى أيضاً المدينة التى كان يسكن فيها العالم الهولندى اراسم فى سنة ١٥١٦ . وهى مدينة عائلة صديقه العميد كوب . وهناك سيقابل لأول مرة فيرية Viret المصلح . إلى هذه المدينة المصلحة جاء جون تحت اسم مستعار لوقاينوس ونزل عند سيدة تدعى « كاترين كالين » التى فى شيخوختها كان لا يحلو لها الكلام إلا عن كلفن التقى المتقشف الذى سكن عندها (١) .

بدأ كلفن فى هذا الجو الهادىء فى الدراسة والبحث والكتابة . فقد انكب بشغف معهود فيه على الغوص فى بطون الكتب القديمة والحديثة لكى يستخرج لآلئها الثمينة . ولذلك فقد انكب على دراسة الكتاب المقدس ، ثم كتابات الآباء وكتابات المصلحين ، لوثر وملانكتون وبوسر (Bucer) . وبينما كان منهمكاً فى الدرس والبحث ، وصلت إليه أخبار محزنة مؤلمة عن الاضطهادات العنيفة القاسية التى قامت بها الكنيسة والملك فرانسوا ضد الإنجيليين . وهنا

1- Benoit 57. F. Wendel 28

تبدأ من جديد المشكلة التى كان يواجهها كلفن فى كل مكان يذهب إليه ، فإنه كان يحلم بأن يجد مكاناً هادئاً لكى يكتب ما يريد أن يكتبه عن الإصلاح [٢]. فعندما تعرَّض للحديث عن الظروف التى دفعته لكتابة كتابه « أسس الديانة المسيحية » يصف كلفن رغبته المتقدة واشتياقه إلى الخلوة لكى يكتب ما يريد أن يكتبه ، والآن تصل إليه هذه الأخبار المؤلمة : أخبار الاضطهاد والمذابح التى يقاسيها إخوته الإنجيليون [٣]. ولهذا السبب فإنه كان يعمل ليل نهار لكى يتُم هذا الكتاب الذى بدأ فى كتابته فى مدينة أنجولم . وبدون الدخول الآن فى محتويات هذا الكتاب وتحليل تعليمه ، لأننا سوف نستعرض لهذا الموضوع فيما بعد ، نريد فقط أن نلفت نظر القارىء إلى أن المصلح كان يريد بكتابة هذا الكتاب أن يقدم الحق الإلهى كتعاليم نقية صافية ، ليس فقط للشعب بل للملوك أيضاً ، لأنه أهداه إلى الملك فرانسوا الأول . كما أنه أراد أن يدافع عن الإنجيليين المضطهدين المطرودين والذين يقدمون كوقود للنيران .

لقد سبق أن أشرنا أن الأخبار التى وصلت إلى أذنى الملك عن الحركة الجديدة كانت مشوهة وغير حقيقية . فعلى مايحتمل بأن البعض قدمهم للملك كجماعة ثورية بدون دين أو عقيدة ، أو مبادىء أخلاقية ، يعيشون كالحيوانات فى علاقاتهم الزوجية ، وقدمهم البعض الآخر للملك مثل جماعة المعمدانيين فى ألمانيا ، الذين ثاروا ضد الحكومة والأمراء وضربوا عرض الحائط بالقوانين والنظم ، وحتى بالكتاب المقدس ، لأن هؤلاء الثوريين كانوا يعتقدون بأن الروح القدس نفسه هو الذى كان يرشدهم . لأجل هذا كتب كلفن هذا الكتاب . فلقد حاول المصلح أن يشرح للملك العقيدة المسيحية الإنجيلية التى ينادى بها هؤلاء الانجيليون ، وما هو إيمانهم وتعاليمهم . إن تعاليمهم مستوحاة من الكتاب المقدس ، الذى يستخدمه الروح القدس لقيادتهم ، وأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض والسيد المطلق وملك الملوك ورب الأرباب ... وهو أيضاً الذى يقود بعنايته ومحبته هذا العالم .. وهناك سبب

---

٢ ـــ هارى ايبرتس ترجمة وليم وهبه بباوى ٢٥ . ٢٧ .

3- Benoit 53-55

آخر من أجله كتب كلفن هذا الكتاب ، وهو الدفاع عن جماعة الإنجيليين أنفسهم . وهنا حاول كلفن كما حاول الرواق سينكا فى كتيبه (Clementia) كليمنتيا ، مدافعاً عن المضطهدين فى أيام نيرون الظالم ، أن يبين بأن جماعة الإنجيليين هى جماعة من المواطنين الذين يحبون وطنهم ويضحون من أجله .

كما أنهم ليسوا بثوريين أو متمردين ضد الحكومة والحكم . بل إنهم يخضعون لحكامهم ويصلون من أجلهم . ومن المعروف بأن الأمراء البروتستانت فى ألمانيا كانوا يتتبعون بقلق شديد أخبار اضطهاد وقتل الإنجيليين فى فرنسا ، وسألوا الملك « فرانسوا » مندهشين : كيف يمكنك أن تطالبنا باجراء وحدة سياسية بين ألمانيا وفرنسا ضد الامبراطور شارل الخامس ، وأنت تقوم بقتل وتشريد إخواننا الإنجيليين فى فرنسا ؟ وكان رد الملك الفرنسى على هذا الاعتراض ، بأن الذين يقوم باضطهادهم ليسوا لوثريين بل هم جماعة من الثوريين العصاة المتمردين والخارجين على القانون ، فيجب على الدولة بأن تعاقبهم وتوقفهم عند حدهم . ثم يتخذ لهم مثالا من حياتهم فى ألمانيا ، فيشير إلى موقف الحكام فى ألمانيا إزاء المتمردين والعصاة ، وموقف لوثر نفسه ضد الحركات المتعصبة المتمردة المتطرفة . ألم تضرب الحكومة الألمانية بشدة هذه الحركات المتزمتة ؟ !! فإن ما قامت به الحكومة فى فرنسا إنما قامت به ضد هذه الجماعة الثورية المتمردة [4]. وهنا يرد كلفن على هذا الإتهام غير الصحيح بأن جماعة الانجيليين تختلف الاختلاف كله عن جماعة الثوريين أو المعمدانيين فى ألمانيا [4]. إن جماعة الإنجيليين ليسوا بجماعة « دراويش » أمثال الثوريين والمعمدانيين الذين لايخضعون للكتاب المقدس بل لوحى الروح القدس المباشر لهم ، وبناء على ذلك فكل واحد منهم يحيا ويتصرف ليس بحسب المكتوب بل بحسب وحيه الخاص . كلا ليست هذه هى جماعة الإنجيليين ، وكل هذه الادعاءات ضدهم إنما هى ادعاءات باطلة كاذبة ولا أساس لها فى الكتاب المقدس الذى يؤمنون به . ولقد نبر على أن الذين يموتون كشهداء كل يوم

4- Benoit 49-51

مارتن لوثر (حنا جرجس) ١٣٣ــ١٣٦

بسبب هذا الاضطهاد العنيف هم قديسون وأتقياء [٥]. بهذا الكتاب أراد كلفن أن يدافع عن الإنجيل وعن إخوته الإنجيليين المضطهدين ، وأن ينير الرأى العام . وكتب كلفن مقدمة هذا الكتاب ، التى أهداها إلى الملك فرانسوا الأول ، بتاريخ ٢٣ أغسطس ١٥٣٥ ، وخرج الكتاب كله باللغة اللاتينية من مطبعة بالتازارلازيسوس (Baltazar Lasius) فى مدينة بازل فى شهر مارس ١٥٣٦ . كان الكتاب يحتوى على ٦ فصول فى ٥١٩ صفحة من الحجم الصغير [٦].

٢ ـــ كلفن فى ايطاليا

لقد بدأ اسم المصلح يتردد على أفواه كثيرة ووصلت سمعته إلى إيطاليا ، فقد ذهبت إلى مدينة فرار ، وهنا نرى رينيه (Renee) أميرة فرار وهى بنت الملك لويس وبنت آن دى بريطان ، وبناء على ذلك فهى من عائلة فرانسوا الأول (مارجريت دانجولم) تستقبل هذا المصلح فى قصرها . وكانت هذه الأميرة مثل قريبتها (مارجريت دانجولم) إن لم تزد عنها غيرة فى ميولها إلى الإنجيلية وتشجيعها لقادتها وحماية المطاردين المضطهدين . إن شجاعتها تخطت هذه الحدود ، فعند رجوعها إلى فرنسا قبلت الإصلاح علانية [٧].

لقد قضى المصلح الشاب مع صديقه لويس دى تليه فرصة قصيرة فى هذا البلاط بالقرب من الأميرة رينيه . لانعرف مضمون المناقشات التى دارت بين هذه الأميرة وبين المصلح ، ولكن الرسائل التى كتباها ـــ فيما بعد ـــ تدل على صداقة عظيمة ، وعلى أن كلفن أصبح كمرشدها الروحى [٨] كل حياته .

بعد هذه الزيارة القصيرة والمثمرة فى قصر الأميرة « رينيه » زوجة الدوق هيراقلس حفيد البابا اسكندر السادس ، رجع كلفن وصديقه الكاهن لويس دى تليه ، إلى بازل ومنها انطلقا إلى نويون *، وهناك باع كل أملاكه حتى يستطيع أن يتخصص للدرس والبحث . وأثناء هذه الزيارة الخاطفة لعائلته

5- Cadier Mythes 58-60

6- Cadier lhomme. 64-65, Choisy 28

7- Benoit

8- Benoit 60; Cadier Mythes 67-70; F. Wendel 27-28

* يعتقد البعض بأن كلفن ذهب إلى باريس فقط والبعض الآخر يعتقد بأنه ذهب إلى نويون

استطاع أن يقنع أخته مارى وأخاه أنطوان بالتعاليم الجديدة التى كان ينادى بها فتبعاه فى الطريق [٩].

إن كلفن يشعر الآن بنوع من الرضى والسرور : لأن كتابه الدينى الأول ظهر وحصل على نجاح مرموق باهر . ولذلك فقد قرر فى نفسه بعد أن باع كل أملاكه فى نويون بأن يكرس كل وقته وماله للدرس والبحث لكى ينتج بطريقة أفضل وأسرع . وهنا تظهر أمام عينيه مدينة استراسبورج كأفضل مدينة مناسبة لدراساته للعلوم الدينية ولكن وهو منطلق فى طريقه إلى هذه المدينة وجد الطريق مغلقاً بسبب الحرب التى نشبت بين الملك فرانسوا الأول وبين شارل الخامس . ولذلك فقد مر بمدينة لبون ثم وصل إلى مدينة جنيف لكى يقضى فيها ليلة واحدة . وبعد ذلك يواصل طريقه إلى استراسبورج لمتابعة دراساته الدينية .

9- F. Wendel 28

الفصل السادس
يوحنا كلفن فى جنيف
(إقامته الأولى)

وصل يوحنا (جون) كلفن إلى مدينة جنيف فى سنة ١٥٣٦ ، لكى يقضى فيها ليلة واحدة فقط كما يقول هو نفسه فى مقدمة شرحه لكتاب المزامير (سنة ١٥٥٧) : « وبما أن الطريق المباشر إلى استراسبورج التى كنت ذاهباً إليها كان مغلقاً بسبب الحرب ، فقد قررت أن أمر بجنيف مروراً عاجلاً ، وكان فى نيتى ألا أقضى فيها أكثر من ليلة واحدة فقط »

ولكن قبل أن يصل كلفن إلى هذه المدينة وصل كتابه « أسس الديانة المسيحية » وانتشر بين الذين قبلوا الاصلاح ، وخاصة المصلح جيوم فارل (Guillaume Farel) . ولم يكن فارل على علم بوصول كلفن ، لأن المصلح كان يرغب فى رحلاته أن ينتحل أسماء مختلفة حتى يتجنب بعض المشاكل . ويبدو أن شخصاً قد أخبر جيوم فارل بوصول كلفن إلى جنيف ، فمن تراه يكون هذا الشخص ؟

إن كلفن يشير إلى هذا الشخص ، دون أن يذكر اسمه ، عند كلامه عن مقابلته مع فارل . فهو يقول فى مقدمته لشرح سفر المزامير «...إن شخصاً ما ، وهو قد ارتد إلى البابابوية فيما بعد ، قد أخبر الآخرين عنى .... » إن الشخص الذى لم يذكر اسمه هو صديقه الحميم ورفيقه فى معظم الرحلات الكاهن لويس دى تليه ، والتاريخ يعرفنا بأنه قد ارتد إلى البابوية فى سنة ١٥٣٨ ولذلك فهو يقول إن شخصاً ما قد ارتد إلى البابوية ... ولقد أرسل خطاباً إلى كلفن بعد ارتداده إلى كنيسة روما شارحاً له الأسباب التى من أجلها

رجع إلى الكثلكة [١]. على أى حال عندما عرف فارل بخبر وصول كلفن جاء مسرعاً إلى الفندق الذى كان المصلح نازلاً فيه وشرح له الظروف التى تمر فيها الكنيسة الناشئة والصعوبات الكبار التى تعترض طريقهم فى السير إلى الإصلاح. وإنهم فى حاجة ماسة إلى معلمين وأنك هو المعلم الذى نبحث عنه .

وهنا يرفض كلفن بشدة ، فهو لايريد أن يرتبط برعوية ، لأنه رجل خجول ، قد خلق للدرس والبحث والكتابة ، وليس للمناقشات . إنه باع أملاكه فى نويون لكى يتخصص للدرس والكتابة وليس للحياة الرعوية . وكان كلفن عنيداً فرفض هذا الطلب بشدة . وعندما أدرك فارل اصرار هذا الشاب على مواصلة الدراسة وتمسكه بها وعدم قبول مساعدته فى الخدمة ثار غضباً وصرخ فى وجهه بصوت مرتفع جهورى كعادته لاعناً الدراسة والبحث وكلفن نفسه . ويقول كلفن « ... وعندما أدرك بأن توسلاته لاتجد أذاناً صاغية ، أمطر علىَّ لعناته قائلاً إن الله سيحرمك من السلام والراحة والهدوء إن بخلت بمد يدك لمساعدتهم فى هذه الظروف الحرجة » . إن كلماته هزتنى وأرعبتنى وعندئذ شعرت بالخجل والجبن فتركت مشروع الرحلة وقبلت بعض المسئوليات [٢].

كان كلفن وسيكون الرجل الذى يشعر بأن يد الله تسيِّر كل الأمور بحسب قصد مشيئته . كان يؤمن ايماناً ثابتاً بأن حياتنا وأمورنا مسيَّرة من الله . وسوف تكون لنا الفرصة لدراسة بعضاًمن تعاليمه ، فقد آمن بأن يد الله القوية تتدخل فى كل الأمور الكبيرة والصغيرة . ولذلك فإنه ارتعب واهتز من كلمات فارل الشديدة وشعر أن صوت الله يتكلم إليه ، فويل له إن لم يسمع : فسمع فعلاً وأطاع ومكث فى جنيف ، وبدأ خدمته فى كنيستها كمحاضر فى الكتب المقدسة [٣] ، أو مفسر للكتب المقدسة .

اعتقد البعض بأن كلفن هو الذى أدخل الإصلاح فى سويسرا ، أو على الأقل فى جنيف ، وهذا خطأ شائع ، وخاصة فى بلادنا العربية .إن كلفن دخل المقاطعات السويسرية بعد أن غزاها الإصلاح وانتشر فى معظم مدنها . ولكن

1- Herminjard Correspondanıes des reformateurs T.4; p.692 A. Crottet...de Calıin aı eı Louis du Tillet, 185a.p. 29-49

2- Wendel 29-30; Cadier Mythes 69-70

3- Wendel 30

انتشر فى تلك البلاد ؟ إن هذا الإصلاح الذى دخل إلى جنيف قبل وصول كلفن كان يحتاج إلى تنقية وتصفية وتشذيب وتهذيب . ولذلك تمسك فارل بالشاب الفرنسى (كلفن) ، لأنه رأى فيه ذلك الفلاح الماهر الذى سوف يهتم بهذه التربة الخصبة . كانت جنيف فعلا تربة خصبة ولذلك تكاثر الغزاة ، للاستيلاء والسيطرة عليها . فعلى هذه المدينة التى كان لايزيد عدد سكانها فى ذلك الوقت على الاثنى عشر ألفاً ، تناحرت الدول والمدن المجاورة لها لإخضاعها تحت سلطانها . فإن أسقف المدينة وممثل الكنيسة الرومانية كان يريد أن يكون الحاكم فيها . ولذلك فقد دخل فى صراع ضد أمراء دوقية السافوى المتاخمة لها ، الذين كانوا يقومون مراراً وتكراراً بالهجوم عليها لإخضاعها لسلطانهم واستغلالها . ولكن قبل نهاية القرن الرابع عشر استيقظ شعب هذه المدينة من غفلته وطالب هو نفسه أيضاً بحقوقه كشعب . وكان الصراع عنيفاً بين الأساقفة الذين يريدون الاحتفاظ بالسلطة وبين القوات الخارجية الممثلة فى دوقية سافوى وبينهم وبين هذا الشعب أيضاً الذى كان يطالب بالاستقلال وإبعاد هاتين السلطتين . وانتهى الأمر فى نهاية المطاف بأن استولى أمراء السافوى فى أوائل القرن الخامس عشر على المدينة شعباً وإكليروساً . وظلت جنيف تحت سلطان دوقيات السافوى إلى بداية القرن السادس عشر . وفى سنة ١٥٢٨ إستطاع شعب جنيف أن يتخلص من سلطة أمراء سافوى . كما أنه حصل أيضاً على استقلاله من سلطة الكنيسة بعد أن طرد آخر أسقف منها فى سنة ١٥٣٤ [٤] . وبينما كانت جنيف تمر فى هذه الظروف : ظروف القلق والاضطراب ، وصل إليها واعظ مشهور ، قوى قصير القامة ، يتمتع بصوت جهورى ، ألا وهو جيوم فارل (Guillaume Farel) الذى ولد فى مدينة كاب (Gap) فى فرنسا فى سنة ١٤٨٩ [٥].

وعلى ما يبدو فإن فارل كان يقود اجتماع الإنجيليين فى باريس فى سنة ١٥٢٣ فى نفس السنة التى وصل فيها كلفن إلى هذه المدينة ، كما أنه خدم

---

٤ ـــ مصلح فى المنفى بقلم دكتور هارى ابرتس ترجمة وليم وهبه بباوى ٢٨ـــ٣٣

5- Doumergue 2:97-149; Choisy Eduıateur 60-63 Choisy La Theoıratie a Geneíe du Tempe de Calıin

أيضاً فى لوزان ونيوشاتل . وفى سنة ١٥٣٢ وصل إلى جنيف . كان هذا الرجل يتمتع بصوت جهورى كما قلنا وشجاعة منقطعة النظير . فكان يعظ فى كل مكان ، ولقد حاول البعض طرحه فى نهر الرون .. وفى سنة ١٥٣٣ جاء أيضاً إلى هذه المدينة مصلح آخر ، من نفس المنطقة التى جاء منها فارل من منطقة الدوفينية Dauphine وهو انطوان فرومنت(٦) . ولقد فتح مدرسة وكان يعظ فى ساحة مولار والتحق بهما مصلح آخر وهو بيير فيرت (Pierre Viret) . ولقد شجعت مدينة برن الإصلاح فى جنيف ، لأن هذه الأخيرة كانت قد قطعت معها معاهدة تعاون وإتحاد . وفى مارس ١٥٣٤ استولى فارل على دير فى جنيف ووعظ فيه ، ثم قام بعد ذلك بخدمة العشاء الربانى . وفى سنة ١٥٣٥ جاءت الجماهير واصطحبت فارل وذهبوا معاً إلى كنيسة المجدلية ، وقام هناك بالخدمة فيها . وبعد ذلك إنطلقوا إلى كنيسة القديس جرفه ، ثم إلى كاتدرائية القديس بطرس . وفى سنة ١٥٣٦ أعلن مجلس المدينة إقامة حوار عقيدى عام بين الكاثوليك والإنجيليين فى دير ريف (Rive).وبعد هذا الحوار قرر شعب جنيف قبول الإصلاح فى مايو ١٥٣٦(٧) .

قصدنا من هذا العرض السريع الموجز أن نبين أن الإصلاح كان قد بدأ فى جنيف قبل وصول كلفن إليها . كانت هذه المدينة كما رأينا فى حالة اضطراب وعدم استقرار سياسى أو دينى . كان فارل والمصلحون الآخرون أناساً أتقياء امتلأوا بالحماسة وقاموا بالوعظ والإرشاد ، وهذا كل ما كانوا يعملونه . وهذا ما قاله كلفن نفسه فى كلماته الوداعية لأهل جنيف من على فراش الموت ... « كانوا يعظون فى جنيف ، وهذا كل ما كانوا يقومون به ». ولكن هذه المدينة كانت فى حاجة ماسة ليس فقط إلى واعظ بل إلى تعليم وتنظيم . ولقد وجد فارل فى شخص جون كلفن الواعظ والمعلم والمنظم ، ولذلك فقد تمسك به بشدة وصب عليه لعناته وهدده بغضب الله عليه إذا هو

6- Guillaume Farel (148-1565) Biographie Nou elle par un groupe dhistoriens, Neu hatel, 1930.

7- Cadier Mythes 71-73

حاول الإفلات من يده والهروب من الخدمة . بدأ يوحنا كلفن خدمته فى جنيف ــ كما تشير إلى ذلك الوثائق التاريخية ــ كمحاضر فى الكتب المقدسة ، ومفسر للكتب المقدسة ومن المدهش أن هذا الرجل الذى سوف يكون علماً ومعروفاً ليس فقط من أهل هذه المدينة ، بل من بلاد كثيرة جداً وعديدة ، نسى سكرتير مجلس مدينة جنيف اسمه . فعندما طلب فارل بأن يعين مرتباً للخادم الجديد ، وقدم السكرتير هذا الطلب لمجلس المدينة ، لم يستطع أن يتذكر اسم هذا الخادم الجديد ، فقال مرتب لهذا « الفرنسى » . لقد كان ــ فعلاً ــ هذا الخادم أجنبياً فى جنيف ، وظل أجنبياً ولم يحصل على البرجوازية (الجنسية السويسرية) فى جنيف ، إلا أربع سنوات فقط قبل موته (٨) .

لقد بدأ هذا الرجل العظيم المطارد فى تنظيم الكنيسة فى جنيف ؛ بدأ أولاً بالوعظ والتعليم فى كاتدرائية القديس بطرس كمساعد لفارل وفيره . ومع أنه كان يصغر عنهما سناً وخاصة عن فارل الذى كان قد تجاوز الخامسة والأربعين عند وصول كلفن إلى جنيف ، إلا أنه كان صائب الرأى بعيد الرؤية عالماً بالكتب المقدسة وكتابات الآباء . ولقد بدأ نجم المصلح الشاب يلمع وبدأت مواهبه تظهر عندما دعى للاشتراك فى الحوار العقيدى الذى دار بين الكاثوليك والبروتستانت فى مدينة لوزان فى شهر اكتوبر سنة ١٥٣٦ . كان الشعب يعرف جيداً القس فارل راعى كنيسة جنيف وكذلك فيره ، وأما كلفن فلم يكن معروفاً بعد من الشعب . بدأ الحوار بين قادة الكنيستين * أمام الجماهير التى جاءت لتسمع وتحكم ، ثم تقرر مصيرها وانضمامها إلى الكنيسة التى تحوز فى نهاية الحوار على النصر . كان فارل هو الذى كتب وقدم النقاط الأساسية التى دار حولها النقاش . وفى أثناء الحوار ، طلب كلفن أن يقوم بإيضاح وشرح بعض النقاط التى بدت له وللسامعين غير واضحة . وفى شرحه هذه النقاط كان سلساً فى أسلوبه ، عميقاً فى تفكيره مقنعاً فى حججه بالرغم من صعوبة الموضوعات التى تعرض لشرحها . كما أنه أظهر قدرته الجبارة ، ليس

8- Cadier Mythes 73

* لم يحضر من الكنيسة الكاثوليكية إلا كاهنان وبعض القادة من العلمانيين

فقط فى معرفة الكتب المقدسة وأقوال الآباء فيما يتعلق بالموضوعات التى كانت تناقش ، بل إنه استطاع أن يقتبس غيباً هذه الأقوال ، وخاصة عن العشاء الربانى ، وهو واحد من الموضوعات التى نوقشت فى هذا الاجتماع . فدهش الجميع من علم وتعمق هذا الشاب المصلح [٩] ؛ وخرج المصلحون من هذا الاجتماع بانتصار عظيم .

عندما رجع المصلحون إلى مدينة جنيف بدأوا فى تنظيم الكنيسة ، التى كانت تعيش فى مدينة يسيطر عليها القلق والاضطراب وعدم الاستقرار من جميع النواحى . ولتنظيم هذه الكنيسة والمدينة ، كان من المحتم إصدار بعض القوانين واللوائح التى كان على الشعب احترامها وتنفيذها . وقام كلفن الرجل الذى درس القانون ، وحصل على درجة علمية فيه ، بتأليف هذه التشريعات أو الأوامر أو اللوائح والدساتير الكنيسية (Ordonannaces) . وقبل أن نستعرض لهذه التشريعات التى ألفها واقترحها كلفن على مدينة جينيف ، والتى انتقدها عدد كبير من الكتاب ملقين بها — فى بعض الأحيان بمؤلفها أيضاً — عرض الحائط ، نود أن نلفت نظر الدارس إلى نقطة فى غاية الأهمية : إننا ننتقد هذا الرجل لأننا نجهل — فى بعض الأحيان — الظروف التى كانت تمر فيها الكنيسة والمدينة فى ذلك الوقت . فمع أننا لانتفق معه على طول الخط فى بعض النقاط ، إلا أننا يمكننا أن نقول بأن الظروف السياسية والدينية والاجتماعية التى كانت تعيش فيها المدينة كانت لاتحتاج فعلاً إلى كل هذه التشريعات والقوانين والدقة والمراقبة ، بل كانت تحتاج إلى بعض من هذه التشريعات والقوانين ، لأنها لم تتعود بعد على الاستقلال التى كانت تحلم به وتجد فى أثره . كانت عبارة عن كرة تتلقفها أيدى اللاعبين ، فتوجد مرة بين أيدى أمراء السافوى ومرة أخرى فى أيدى الأساقفة والكنيسة . وها هى الآن حصلت على استقلالها وأصبحت سيدة نفسها . وفى بهجتها وسكرها لم تستطع أن تميز بين السلطان الروحى والسلطان المدنى . فكما أن الأساقفة قبل أن يطردوا من جنيف كانوا يقبضون على السلطتين الزمنية والروحية ، أرادت المدينة أن تحتكر هى أيضاً هذا السلطان . ومن هنا سوف تندلع

9- Wendel. 30; Cadier Mythes 73-74; Cadier lhomme p. 80

الحرب الشعواء بين الكنيسة وبين مجلس المدينة . من له السلطان بإصدار القوانين وتنفيذها ؟ من الذى يحكم فى الأمور الدينية الكنسية ؟ هل الكنيسة أم مجلس المدينة ؟ من الذى يقرر قبول المشتركين فى العشاء الربانى ، الكنيسة أم مجلس المدينة ؟ على أى حال سوف نتعرض لهذه المشكلة فى حينه . إن الذى دفع كلفن لوضع هذه القوانين هو حالة الفوضى أو على الأقل شبه الفوضى — التى كانت تعم على جنيف * .

ان فارل نفسه كان يريد أن ينظم هذه المدينة من الناحية الدينية والسياسية كما أنه كان يريد أيضاً إصدار بعض القوانين واللوائح لتنظيم الحياة فيها ، ولكنه لم يكن كفئاً للقيام بهذا العمل التشريعى القانونى . ولذلك فعند وصول كلفن إلى المدينة وجد فيه الشخص الكفء للقيام بهذا العمل . وبدأ كلاهما فى دراسة مشروع تنظيم الحياة المسيحية فى جنيف .

كان كلفن مكلفاً أيضاً بالاهتمام برعاية الشباب وبتفسير الكتب المقدسة ، ولذلك فقد كتب كتيباً صغيراً بعنوان « التعليم المسيحى » وهو عبارة عن ملخص لكتابه « أسس الديانة المسيحية » . وفى هذا الكتاب اتبع كلفن نفس الطريقة التى اتبعها المصلح الألمانى لوثر فى كتابه التعليم المسيحى . فلقد قدم شرحاً للناموس أو الوصايا ، ثم تكلم عن الإيمان وشرح قانون إيمان الرسل . كما إنه تعرض لموضوع الصلاة وشرح الصلاة الربانية ... وفى هذا الكتيب قدم أيضاً شرحاً وافياً لفريضتى العماد والعشاء الربانى [10]* . كان على كل الأطفال أن يدرسوا هذا الكتيب . وطلب من

* لم يكن كلفن هو أول من طالب بوضع التشريعات والقوانين الخاصة بمراقبة الشعب وعاداته ، فإن هذا النظام كان موجوداً فى كنيسة بازل ، وفى استراسبورج وكنائس أخرى Benoit 69 . إن نص الكتيب الذى كتبه كلفن عن التعليم المسيحى اكتشف فى سنة ١٨٧٧ فى مكتبة باريس الوطنية ونشر لأول مرة فى سنة ١٨٧٨ Cadier Mythes 77.

10- Cadier Mythes 61-82; Wendel 30-32 A. Bossert 90-98; Bossert 63-73

كان هذا الكتيب صعباً فى إسلوبه ولذلك فقد اعاد كتابته أثناء اقامته فى استراسبورج ونشر عند عودته الثانية إلى جنيف فى سنة ١٥٤٢ .

الرعاة امتحانهم فيه قبل قبولهم فى عضوية الكنيسة . ولقد ظهر هذا الكتيب فى سنة ١٥٣٧ تحت عنوان « التعليم المسيحى وقانون الإيمان اللذين تستخدمها كنيسة جنيف » . فإن كان كلفن قد اهتم بتربية وتهذيب الشباب من الناحية الروحية والكتابية ، فإنه اهتم أيضاً مع فارل بالكبار وبحياتهم وبعاداتهم وتقليدهم .

ولهذا السبب فقد قام كلاهما فى يوم ١٦ يناير ١٥٣٧ بتقديم ما يدعى باللوائح أو التشريعات «...Ordonnances ecles» إلى المجالس المختلفة فى المدينة [11]. ولقد احتوت هذه اللوائح أو القوانين التشريعية على عدة مواد وقواعد ومبادىء لتنظيم الحياة فى الكنيسة وفى المدينة . ولقد وافق مجلس المدينة على هذه التشريعات فى مارس من نفس السنة .

والمادة الأولى من هذه التشريعات تتكلم عن العشاء الربانى . ولقد اقترح كلفن بأن تمارس فريضة العشاء كل أسبوع وليس مرتين أو ثلاث مرات فى السنة . على أنه قبل ممارسة فريضة العشاء مرة كل شهر ، وفى شرحه لممارسة هذه الفريضة تعرض المصلح لمشكلة شائكة : وهى من هم الذين لهم الحق فى الإشتراك ؟ يعلن المصلحون بأن الذين لهم الحق فى الإشتراك هم الأعضاء الذين انضموا إلى الكنيسة المصلحة ، والذين فحصتهم الكنيسة واعترفت بعضويتهم فيها ، لأنهم اعترفوا هم أيضاً بسيادة الرب عليهم . فعندما حاول المصلحون تطبيق هذا الأمر على الذين تقدموا للإشتراك ظهرت المشكلة الشائكة ، إذ عندما قبلت جنيف الإصلاح فى شهر مايو سنة ١٥٣٦ انضم إلى الكنيسة أفراد بلا عدد ، لأن الكنيسة المصلحة أصبحت كنيسة الدولة ، وهذا ما حدث أيضاً فى أيام الأمبراطور ثيودوسيوس الأول *. عندما أعلن بأن المسيحية هى الديانة الرسمية للدولة دخلت جماعات وأفواج كثيرة إلى الكنيسة دون أن تعرف شيئا عن شخص المسيح .

11- Wendel 30-32

* إن الامبراطور قسطنطين منح الحرية للعبادة المسيحية . اما الامبراطور ثيودوسيوس الأول فهو الذى فرض المسيحية على الوثنيين . ولد الأمبراطور ثيودوسيوس حوالى ٣٤٧ ومات ٣٩٥ ، وملك من سنة ٣٧٩ــ٣٩٥

فلقد امتلأت كنيسة جنيف بأفواج لاعدد لها ، وتقدم هؤلاء للاشتراك فى العشاء الربانى لكى يظهروا انضمامهم إلى الكنيسة الإنجيلية . على أن العدد الكبير من هؤلاء كان يسلك ويتصرف فى حياته اليومية كما كان يسلك ويتصرف قبل انضمامه إلى الكنيسة الإنجيلية . ولهذا السبب كان كلفن والمصلحون مضطرين لسن قانون عملية الفرز أو عزل العضو الذى لايسلك بتدقيق . ولكى يتمكن مجلس الكنيسة من عزل أى شخص عن المائدة كان يجب عليه ان يثبت بأن هذا الشخص لايسلك بحسب الإنجيل . ولأجل هذا السبب طلب المجمع من مجلس المدينة تعيين أشخاص (شيوخ) مشهود لهم بحياة التقوى والتدقيق ، لمراقبة الشعب . ولقد عين المجلس شيخاً فى كل حى من أحياء المدينة . وكان على هذا الشخص أن يراقب تصرفات وسلوك كل شخص من الأشخاص الذين يسكنون فى كل منطقة ، وأن يقوم بلطف ومحبة بإرشاد الذى لايسلك بحسب إنجيل المسيح . فإن لم يتب واستمر فى عصيانه ، فعلى المسئول أن يعلن هذا الأمر للخادم . وكان على الراعى أن يتقابل معه ويرشده . فإذا استمر فى تمرده ولم يتب ، اضطرت الكنيسة إلى عزله منها ومنعه من الاشتراك فى المائدة إلى أن يتوب . وهنا ظهرت مشكلة أخرى : من هو الذى له الحق فى العزل ؟ هل السلطة للكنيسة التى يمثلها المجمع أم السلطة للمدينة التى يمثلها مجلس المدينة : من الذى يعزل ؟ الكنيسة أم مجلس المدينة ؟ تمسك كلفن بأن هذا السلطان هو من حق الكنيسة . وتمسك مجلس المدينة بأن هذا السلطان من حقه كهيئة حاكمة (١٢) . وهنا بدأ الصراع العنيف المرير . وسوف نتحدث عن هذا الصراع فى حينه .

ولقد اقترح كلفن فى هذه التشريعات إدخال ترنيم المزامير أثناء العبادة الجمهورية . حتى تكون فرصة العبادة فرصة تعبد وابتهاج يشترك فيها الشعب كله . قبل مجلس المدينة كل هذه التشريعات وأمر بتنفيذها (١٣) .

كان كلفن وفارل يريدان خلق مدينة جديدة مصلحة . ولذلك فقد قدما

12- J.D. Benoit 65-74; Wendel 30-32; Bossert 90-98; Cadier Mythes 71-81; J.Rilliet 57-70
13- W.Walker, John Calvin 169-170

أيضاً إلى مجلس المدينة مشروعاً أسمياه « الاعتراف بقانون الإيمان » . وكان قانون الإيمان هذا يحتوى على ٢١ مادة ويبدأ بالقول « نعلن أو نقبل بأن الكتاب المقدس هو الدستور الوحيد لأعمالنا ولسلوكنا .... » كان الغرض من تقديم هذا المشروع هو أن تطبق مدينة جنيف بطريقة عملية القرار الذى اتخذته فى مايو ١٥٣٦ ؛ وهو القرار الخاص بقبولها المذهب الإنجيلى . وقبل مجلس المدينة هذا المشروع بعد تردد كبير . وفى شهر أبريل سنة ١٥٣٧ أمر المجلس بتوزيع حوالى ١٥٠٠ نسخة من قانون الإيمان على كل العائلات [١٤].

ولقد قبل أعضاء مجلس المدينة الاعتراف بالمبادىء الإنجيلية لكى يكونوا مثالاً للشعب . ولكن الصعوبة الكبرى بدأت عندما تمسك المصلحون بعرض قانون الإيمان على كل سكان المدينة . بل إنهم طالبوا بأن الذى لايقبل العقيدة الإنجيلية ينفى خارج المدينة . وهنا بدأ التذمر وعدم الرضى الذى تطور فيما بعد إلى شبه ثورة ضد المصلحين . صحيح ان شعب المدينة قبل فى شهر مايو ١٥٣٦ الإصلاح ، ولكن لم يقبل كل الشعب تعاليم الإصلاح . فهناك جماعة من الكاثوليك لم يقبلوا تعاليم الإصلاح ، وكذلك أيضاً الجماعة التى تتعاطف مع الكاثوليك . ولاتنسى أيضاً جماعة الاحرار (Les Libertins) أو أصحاب الرأى الحر الذين كانوا يريدون أن يعيشوا كما كان يبدو لهم حسناً .

حاول أعضاء مجلس المدينة إقناع الشعب ، فأرسلوا بعض الموظفين من المجلس لكى يناقشوا هذا الأمر مع رب كل عائلة ولم تفلح هذه المحاولة . ولذلك فقد فكروا فى طريقة أخرى ، وهى بأن يجتمع سكان كل حى بدوره فى كاتدرائية القديس بطرس فى ٢٩ يوليو ١٥٣٧ ، لكى يعلنوا مواقفهم من هذه التعاليم .

ولقد اعتقدوا بأن الشعب لن يجسر على إظهار المعارضة بطريقة علنية . وهنا أظهر الشعب معارضته بطريقة واضحة ، إذ تخلف الكثيرون عن الحضور . وهذا ما حدث أيضاً عندما أراد المجلس ان يكرر نفس الاختبار فى ١٥٣٧/١١/٢ . وهنا بدأ المجلس نفسه يظهر قلقه وعدم ارتياحه فيما يخص

14- G. Harkness 11

هذا المشروع ، بل إن المجلس رأى بأن الكنيسة المصلحة بدأت تستولى على سلطة ليس من حقها ممارستها . كان هذا القرار بلا شك خطأ عظيماً وتعسفاً ضد الحرية الشخصية ؛ حرية العقيدة . ولكن لاننسى بأننا نتكلم عن القرن السادس عشر .

عندما جاء وقت الانتخابات فى فبراير سنة ١٥٣٨ كان المجلس يخشى اندلاع ثورة شعبية فى المدينة . ولكن على عكس ما كان ينتظر ، تمت الانتخابات فى هدوء تام . وكانت النتيجة فوز الأربع رؤساء لمجلس المدينة من الحزب المعارض للإصلاح . وعندما تولى هذا الحزب منصبه الجديد بدأ فى خلق المشاكل ووضع العقبات أمام الإصلاح والمصلحين . وهنا بدأت الأزمة بين المجلس الجديد وبين الكنيسة . فإن مجلس المدينة الجديد طلب من الخدام عدم تدخلهم فى الأمور السياسية الخاصة بالمدينة . وفى الوقت نفسه تدخلوا هم فى الأمور الكنسية وتعاليمها ونظامها . ولم يقبل كلفن هذا التدخل ، بل كان يريد أن تكون الكنيسة مستقلة وغير خاضعة للدولة فى الأمور العقائدية . على أن الحزب المعارض للإصلاح ، والذى كان يتمتع بالسلطة بعد الانتخابات الجديدة ، حاول استغلال هذه السلطة ضد كلفن . ولكى ينتصر عليه لجأ إلى مساعدة « برن » التى كانت قد قطعت معاهدة اتحاد مع مدينة جنيف . كانت برن قد إحتفظت حتى بعد انضمامها إلى الإصلاح بعدة تقاليد وطقوس لم يتمسك بها المصلحون فى مدينة جنيف . فقد احتفظت برن ببعض الأعياد ؛ مثل عيد الميلاد والقيامة والصعود وحلول الروح القدس الخ ... ولقد طالبت مدينة برن بتوحيد الطقوس الدينية فى كل المناطق التى كانت تسيطر عليها أو التى قطعت معها معاهدات تحالف . وفى يوم ١١ مارس ١٥٣٨ قبل مجمع المائتين النظام الخاص ، وممارسة الطقوس الدينية المتبعة فى برن كعلامة على اتحادهما . وطلب مجلس المدينة من المجمع ومن القسوس العمل على انتهاج نفس الطريقة المتبعة فى العبادة والطقوس والخدمة فى مدينة برن . وكانت كنيسة برن تمارس أيضاً فريضة العشاء الربانى بخبز بدون خميرة ، بينما كان كلفن فى مدينة جنيف يقدم الفريضة بخبز عادى .

ولكى تصفى برن هذه الخلافات ، أو بالمعنى الأصح ، لكى توحد كل الطقوس المستعملة فى الكنيسة المصلحة فى المدن التى عقدت معها معاهدات ، فقد دعت إلى عقد سنودس فى مدينة لوزان . ودعى كل من كلفن وفارل لكى يمثلا كنيسة جنيف . على أن مجلس المدينة قد اجتمع قبل اجتماع السنودس وقرر قبول كل الطقوس التى تمارسها مدينة برن ، دون ان يستشير الخدام فى هذا الأمر . وطالب من القسوس تنفيذها فوراً . ورفض كلفن وفارل الذهاب إلى السنودس إذا لم يمنحا حق الكلام . فإن كان مجلس المدينة قبل هذه الطقوس ، وإذا كان المصلحان ليس لهما أن يدافعا عن هذا الأمر لأن مجلس المدينة قبل مسبقاً ممارستها فلا داعى للذهاب إلى لوزان . كتب كلفن خطاباً إلى القس كنز (Kinz) فى برن لكى يترجى حكومة برن بأن تتكرم وتقبل تأخير تطبيق هذا القرار لمدة أطول . على أن حكومة برن لم توافق على هذا الطلب وكتبت خطاباً إلى مجلس مدينة جنيف وإلى الخادمين لكى تعرفهما فيه بالقرارات التى اتخذت فى هذا السنودس ، كما أنها طلبت من مجلس مدينة جنيف القيام بعمل اللازم بطريقة سلمية لتطبيق هذه القرارات . وعندئذ دعى مجلس المدينة الخادمين فى يوم ١٩ أبريل ١٥٣٨ وطلب منهما الموافقة على قرارات برن وتنفيذها ، فلم يقبلا . وفى يوم ٢٠ أبريل ١٥٣٨ قام القس (Couraud) بممارسة العشاء الربانى بخبز عادى متحدياً السلطات المدنية . فقبض عليه وألقى فى السجن . وتمسك كلفن وفارل أيضاً بموقفهما . فطلب مجلس المدينة منهما عدم القيام بالخدمة . وبالرغم من الأمر بإيقافهما عن الخدمة ففى ٢١ أبريل ١٥٣٨ الذى وافق يوم القيامة ، توجه فارل إلى كنيسة القديس جرفه وكلفن إلى كاتدرائية القديس بطرس . ولقد جاء عدد كبير ليس فقط لحضور الاجتماع بل لحماية الخادمين أيضاً . على انهما لم يقوما بممارسة العشاء الربانى . ولقد شرح كل منهما من على المنبر ، لماذا امتنعا عن تقديم العشاء الربانى فى هذا اليوم . فإنهما لم يمتنعا عن القيام به لانه توجد مشكلة خبز عادى أو خبز بدون خمير ، بل إن السبب الحقيقى لامتناعهما : هو روح التوتر وعدم السلام التى تسيطر على المدينة والتى لاتتفق والفريضة المقدسة نفسها . لم يقبل مجمع المائتين هذا التحدى واجتمع حالاً

وقرر طرد المصلحين وطالبهما بأن يتركوا المدينة فى بحر ثلاثة أيام . وعندما سمع كلفن بهذا القرار قال « ...حسناً ، لو كنا نخدم الناس لحسبنا أن مكافأتنا رديئة ، ولكننا نخدم السيد العظيم وهو الذى سوف يكافئنا .

لم ينتظر المصلحان ، الثلاثة أيام المتاحة لهما بالبقاء فى جنيف بل غادراها قبل ذلك . وانطلقا كلاهما إلى مدينة برن ، حيث عرضا الأمر مفصلاً على مجلس المدينة هناك فى يوم ٢٧ أبريل ١٥٣٨ . وبعد أن سمع المجلس لهما بكل احترام ، قدم لهما أسفه الشديد ، وندم على الخطاب الذى كتبه إلى مجلس مدينة جنيف الذى استغل بطريقة غير صحيحة . وحالاً كتب إلى جنيف بنفس المعنى طالب بأن يطلق حالاً سراح القس كوردو من سجنه ، وفعلا خرج القس كوردو من السجن . ذهب القس فارل إلى مدينة نيوثاتل حيث نصب راعياً عليها وبقى فيها حتى موته سنة ١٥٦٥ .

أما كلفن فكان يسيطر عليه شعور غريب : خليط من الحزن والابتهاج ، من السرور والألم . نعم كان حزيناً على الكنيسة الناشئة وعلى الأصدقاء المخلصين الذين تركهم هناك ، ثم كان حزيناً على هؤلاء الذين قابلوا جهاده وتعبه وسهره بنكران الجميل . على أنه كان سعيداً فى نفس الوقت . وكيف لايكون سعيداً وأن حلمه الذى كان يداعب أجفانه الليل كله ؛ وهو الدرس والبحث والكتابة بدأ يظهر من جديد . نعم سوف يدرس وسوف يكرس وقته الآن فى الكتابة . انتهى كابوس جنيف ومعارضة المعارضين واحتجاج المحتجين . الآن هو حر طليق . فهل هو فعلا كذلك ؟؟؟؟

الفصل السابع

كلفن فى استراسبورج

فبعد هذا الاختبار المرير فى الخدمة انطلق كلفن إلى مدينة بازل فى سويسرا *. وكان يعتقد اعتقاداً جازماً بأن هذا الاختبار كافٍ لكى يقنع نفسه بأنه غير كفء للحياة الرعوية . وأن مكانه الحقيقى هو الدرس والبحث والكتابة . ولأجل هذا السبب فقد عزم على البقاء فى هذه المدينة لكى يواصل دراسته التى بدأها قبل ذهابه إلى جنيف .

وبينما كان كلفن يفكر ويخطط لعمل برنامج دراسى ، وصله خطاب من مدينة استراسبورج من المصلح بوسر (Bucer) يدعوه فيه للحضور إلى تلك المدينة لرعاية اللاجئين الفرنسيين هناك . ولم يتردد كلفن لحظة واحدة بعد هذا الإختبار الرعوى القاسى ، فى رفض هذا الطلب بشدة . على أن مصلح استراسبورج لم يفشل من رد كلفن بالرفض ، بل أرسل إليه عدة مرات وبإلحاح شديد . وعندما ذهب كلفن إلى استراسبورج فى يوليو ١٥٣٨ ، كتب من هناك فيما بعد خطاباً إلى صديقه القديم الكاهن لويس دتلييه ، يعرفه فيه بأنه قد صمم أن يواصل دراساته وسوف يرجع إلى بازل لتنفيذ هذا المشروع ، وأنه يرفض رفضاً باتاً قبول أى رعوية [(١)]. وتقابل بوسر مع هذا الشاب الذى لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره ، وبدأ النقاش بينهما . ويعرض بوسر على كلفن مشكلة استراسبورج ، وهى تختلف تماماً عن مشكلة جنيف . فالأمر الأساسى هو أن الحاجة ملحة والحقل متسع والفعلة قليلون . إن عدد الفرنسيين الذين فروا هرباً من نيران الاضطهاد المشتعل فى فرنسا كانوا كثيرين فى تلك المدينة ، ويحتاجون لرعاية روحية وثقافية .

---

* إن بعض النصوص الانجليزية والعربية تقول أن بازل فى المانيا ، ولكن حقيقة الأمر أنها بازل الألمانية ، أى أنها المنطقة التى تتكلم باللغة الألمانية فى سويسرا . أنظر كتاب هارى ابرتس ترجمة وليم وهبه بباوى ص ٢٦

1- Wendel 35-37, Donmerque T.2 - pp. 275 SS

وينظر كلفن إلى هذا العمل العظيم ويعتقد فى نفسه بأنه لم يؤهل للخدمة الرعوية . إنه لم يفلح فى جنيف بل فشل ، ومن يضمن له النجاح مع هؤلاء العمالقة الذين يقودون الإصلاح فى هذه المدينة ؟ ولذلك رفض كلفن بإصرار شديد . وهنا نظر إليه بوسر واستعمل نفس الأسلوب الذى استعمله القس فارل من حوالى سنتين ؛ فقد شبهه بيونان الهارب من وجه الله . ثم قال له بأن الله يعرف كيف يرجع نبيه الهارب . وكما أن كلفن ارتعب وخاف من اللعنات والتهديدات التى انهالت عليه من فم فارل عندما رفض قبول الخدمة فى جنيف ، فإنه اضطرب أيضاً أمام هذه الكلمات التى لفظ بها بوسر . وعندئذ قبل الخدمة فى هذه المدينة والعمل فيها (٢).

بدأ المصلح المطرود من جنيف عمله فى مدينة استراسبورج فى سبتمبر ، ولقد ألقى عظته الأولى فى يوم ٨ سبتمبر ١٥٣٨ فى كنيسة القديس نيقولا أوزوند (٣). بدأ يوحنا « جون » كلفن خدمته فى جنيف وفى استراسبورج كنبى وليس كراع : لأنه لم يسم خادماً ولم توضع عليه الأيدى . هل كان ـــ ياترى ـــ يعتبر انه استلم من الرب نفسه هذه الخدمة ؟

كانت استراسبورج فى ملتقى الطرق ، كما أنها كانت أيضاً مدينة حرة ، قد فتحت قلبها وأبوابها على مصراعيها للإصلاح . فهى تعتبر المدينة الثانية بعد مدينة وتمبرج بألمانيا فى أهميتها كمركز من المراكز اللوثرية . ولقد جاء إلى هذه المدينة الحرة عدد كبير جداً من اللاجئين المطاردين والمطرودين من بلادهم بسبب اعتقاداتهم الجديدة . فلقد جاء إليها حوالى خمسة آلاف أو ستة آلاف لاجىء فرنسى طالبين كرم ضيافتها وحمايتها (٤).

2- Harkness, 14-19, Doumerque 295 SS.Cadier Mythes. 81-85, Cadier lhomme.91-93 Jacques Pennier: Calvin a Strasbourg 1925, Jean D. Benoit: Calvin a Strasbourg 1538 G.Courvoisier Bucer et Calvin.

3- Cadier lhomme 91

4- G. Rilliet 78-80, A. Bossert 105, Benoit 78

ولقد جذبت هذه المدينة عدداً كبيراً من الكتاب والمفكرين وخاصة المصلحين ، لإهميتها السياسية والدينية والثقافية ، ومنح مواطنوها الحرية فى التعبير والعبادة . ففيها نجد اللوثريين والزونجليين والمعمدانيين وغيرهم .

وفى هذه المدينة أيضاً نجد «متى زل» (Mathieu Zell) » الذى كان قد تجاوز الستين من عمره عند وصول كلفن إليها . و « متى زل » هو الواعظ الإنجيلى الأول الذى قام بالإصلاح فى استراسبورج . بل إنه هو الذى نادى بزواج الكهنة قبل أن يعلم به لوثر بسنتين . ولا ننسى العالم المشهور والباحث فى علم الآباء وهو القس هديون Hedion [٥]. وكذلك أيضاً العالم يوحنا ستورم (Jean Sturm) ، الذى كان قد بدأ فى مشروع فتح مدرسة للدراسات العليا فى نفس الوقت الذى وصل فيه كلفن [٦]. وإن نسينا لا يمكننا أن ننسى العملاق الكبير والمصلح المعروف ، الذى تجدد على يد لوثر ، وكان يدعوه كلفن أسقف مدينة استراسبورج ، ألا وهو « مارتن بوسر » Martin Bucer [٧]. كان مارتن بوسر يكبر كلفن بحوالى ثمانى عشرة سنة . ولقد ترك تأثيرات عميقة جداً على المصلح الفرنسى . ويمكننا أن نقول ان السنوات الثلاث التى قضاها كلفن فى استراسبورج تعتبر أفضل سنى حياته من ناحية إعداده للخدمة والتدريس والكتابة . كانت العناية الإلهية قد رتبت له رجلاً مثل بوسر لكى يعده بطريقة أفضل لهذه الخدمة التى دعى للقيام بها ليس فى استراسبورج فقط بل فى جنيف ايضا عندما رجع إليها فيما بعد .

بدأ كلفن عمله مع هؤلاء العمالقة وخاصة مع بوسر ومع القس الدكتور كاينون . وكان العمل الذى أسند إليه هو الاهتمام باللاجئين الفرنسيين الذين هربوا من وجه الإضطهاد العنيف فى فرنسا . وكان مرتب كلفن السنوى كراع وكأستاذ ٥٢ فلورانس * اى حوالى ٥٢ دولاراً فى السنة . ولم يكن هذا المرتب كافياً . فكان فى حاجة مادية فى بداية الخدمة ، وخاصة أن مرتبه

5- Benoit 75-80

6- Fr Wendel 36-37

7- Benoit 72-81, Wendel 35-39

* من الصعب معرفة القيمة الحقيقية للفلورانس ولكن كانت تساوى دولاراً تقريبا.

لم يدفع له إلا بعد ستة شهور من تاريخ بدء الخدمة هناك [٨]. وعلى ما يبدو فإن صديقه القديم الكاهن لويس دتلييه قد عرض عليه مساعدة مالية على شرط أن يقلل من نشاطه التعليمى . ويذكر كلفن هذا الأمر بطريقة غير مباشرة فى خطاب كتبه إلى صديقه وزميله المحبوب فارل مشيراً إلى المساعدة المالية التى يقترحها عليه لويس دتلييه . ويعلق كلفن بأن الأرباح التى يطلبها دتلييه مرتفعة جداً . ويقصد بالأرباح صمته عن التحدث بالعقيدة الجديدة [٩] ، وكان صديقه فارل خير مساعد له . لم يصمت كلفن عن التحدث بما كان يؤمن به ومواصلة إعلان الحق الكتابى مهما كان الثمن غالياً والتضحية كبيرة . وبدأ يخدم فى كنيسة اللاجئين فى استراسبورج ، وفى الوقت نفسه قام بتدريس العلوم الدينية هناك .

عندما استلم كلفن مسئولية رعاية هذه الكنيسة للاجئين الفرنسيين ، كان يريد أن يخلق منها نموذجاً تسير عليه فيما بعد الكنائس المصلحة فى فرنسا . ولذلك فقد كرس وقته وعلمه وكفاءته ودراساته لتكوين وتشكيل هذه الكنيسة التى كان يريد أن يقدمها كمثال أو نموذج فى التعليم والعبادة لكنائس المستقبل المصلحة . كان كلفن يقوم بخدمة الوعظ حوالى ثلاث أو اربع مرات فى الأسبوع . وكان عليه أن يدرِّس فى مدرسة العلوم الدينية ورعاية الشباب والكتابة وتنظيم الكنيسة ومساعدة المصلح «بوسر» .

إن ما كان يشغل بال المصلح ليل نهار هو تنظيم الكنيسة . وهنا فى استراسبورج يكتشف نظماً جديدة وطرق عبادة جديدة . كما أنه وجد فى «بوسر» أخاً محبا وعالماً قديراً فتلاقت أفكارهما واتحدت فى مواضيع عقيدية كثيرة . فإن بوسر الذى كان يعرف لوثر شخصياً وتجدد على يديه فى مجمع هيدلبرج ، ترك تأثيراً عميقاً جداً على معلم جنيف . فهنا فى استراسبورج وبمساعدة هذا المصلح استطاع كلفن أن يبلور أفكاره وتعاليمه الخاصة بالنظام والدستور والعبادة ، وسياسة الكنيسة وتكوينها ...الخ . فلقد اتفق كلفن مع بوسر فيما يختص بموضوع نظام العشاء الربانى . فعن طريق الدراسة مع بوسر

8- Harkness 15, Bossert 106

9- Harkness. 15-18, Mme G. Brunel. 85-110

والخدمة فى هذه المدينة استطاع كلفن أن يبلور ويطور تعليمه فى موضوع ممارسة هذه الفريضة . ان كلفن والمصلحين رفضوا فكرة السلطان الذى تعترف به الكنيسة الكاثوليكية للكاهن فى منح الغفران بعد الاعتراف . على أن كلفن إقترح فكرة أخرى بدل الاعتراف ، وهى مقابلة الراعى للشخص الذى يريد الاشتراك فى المائدة . وهنا يستطيع الراعى أثناء هذه المقابلة أن يعرف السبب الحقيقى لطلب الاشتراك هل يريد المتقدم للإشتراك ، أن يشترك فى العشاء الربانى لأن الرب قد دخل فى حياته وغيرها ، وبذلك يريد أن يشترك فى موته وقيامته ، أم أنه مدفوع بقرار جماعى للانضمام للكنيسة المصلحة ؟ كان كلفن يقصد من هذا اللقاء بين الراعى والعضو أن يكون لقاءاً تعليمياً . ففى أثناء هذا اللقاء يستطيع الخادم أن يعلّم الذين لايعرفون شيئاً عن العقيدة الإنجيلية . كما أنه قصد أيضاً تقديم الاحترام اللائق بفريضة العشاء الربانى . أى أنه لايشترك فيه إلا الذين يعترفون بسيادة الرب على حياتهم وسلوكهم . كانت السلطات فى استراسبورج تحتكر هى أيضاً سلطان العزل عن المائدة ومن الكنيسة ، لأنها اعتبرت أن هذا الأمر من اختصاصها . ولم يستطع كلفن أن يغير هذا القرار الذى وافق عليه مجلس المدينة . على أنه استطاع مع المصلحين الآخرين فى استراسبورج الحصول على موافقة مجلس المدينة بأن لايقبل على مائدة العشاء إلا الأعضاء الذين سبق وتقابلوا مع الراعى .

لقد تعرض بوسر لهذه المشكلة فى استراسبورج منذ سنة ١٥٣١ ، كما أنه فهم جيداً الدور الذى كان يقوم به المراقبون الذين كان يعينهم مجلس هذه المدينة من أعضاء المجلس ومن أعضاء الكنيسة لمراقبة الشعب وسلوكه وحياته . على أنه (بوسر) لم يكن راضياً كل الرضى بهذا النظام ، وعلم بأن الكنيسة وحدها ــ وليس الحكومة ــ هى التى تعين الشيوخ [١٠] الذين يشرفون على الحياة الروحية . وفى سنة ١٥٣٦ يقدم مصلح استراسبورج

10- Jacques Courvoisier: Bucer et Calvin a Strasbourg 1538-1938

شرحا لمفهومه للخدمة والخدام . فهو الأول الذى أبرز بوضوح فكرة الأربعة أنواع من الخدمة : ١ ــ الراعى ٢ ــ المعلم ٣ ــ الشيخ ٤ ــ الشماس . فالفضل يرجع اذن فى ابراز هذه الخدمات الأربع إلى بوسر . ولقد أخذ كلفن هذا التعليم عنه ، وسلمه إلى الكنيسة المصلحة [١١]. فعندما رجع كلفن إلى جنيف فى سنة ١٥٤١ وضع الخدمات الأربع على قائمة التشريعات « الدستور » .

كانت إقامة كلفن فى مدينة استراسبورج عاملاً هاماً فى تبلور وتطور أفكاره فى موضوع العشاء الربانى كما رأينا ، وهذا ما حدث له أيضاً فيما يخص موضوع نظام العبادة (الليترجية) .

كانت مدينة استراسبورج تحتل مكانة مرموقة فيما يتعلق بنظام العبادة (Liturgie) . فمنذ ١٥٢٤ ــ ١٥٣٩ نرى ازدهاراً عجيباً مدهشاً فى مجال العبادة وتنوعها ظهر فى هذه المدينة ، والذى حاول كلفن استخدامه فيما بعد عندما قام بوضع نظام العبادة . وكانت تبدأ الخدمة بالنظام الآتى «موجزاً» الاعتراف بالخطايا ، الوعد بالنعمة ومغفرة الخطايا . ترنيم الجزء الأول من الوصايا ، صلاة قصيرة من الراعى ، وفى أثناء صعود الراعى إلى المنبر ترنم الكنيسة الجزء الثانى من الوصايا العشر . ثم صلاة ثم العظة حوالى ساعة أو أكثر من ساعة . وبعدها صلاة طويلة وتنتهى العبادة بترنيم مزمور البركة .

أما النظام الحالى الموجود فى الكنائس المصلحة فهو كالآتى :ــ

السلام والدعوة والخدمة ، عدد من ترنيمة ، لنتعبد ... ثم ترنيمة ناموس الله يليه عدد من ترنيمة اعلان الغفران بالخطايا أو إعلان النعمة ، وعدد من ترنيمة قانون الإيمان وعدد من ترنيمة . صلاة لطلب انارة الرب ، قراءات من الكتاب المقدس ، ترنيمة . العظة ، صلاة ، العطاء ، الإعلانات ، ترنيمة . البركة الرسولية * .

11- J. Courvoisier dans Etudes sur Les Calvinisme B.H.P.F. 1936, Cadier lhomme 92-95

* يوجد نص معين لكل عنوان من هذه العناوين : سواء للدعوة أو الاعتراف بالخطايا ...الخ

لقد رأينا أن كلفن طلب فى قائمة اللوائح التى أصدرها فى جنيف أن يشترك الشعب فى ترنيم المزامير . ولقد كان هذا الأمر شائعاً على مستوى أوسع فى ستراسبورج . فإن نظام العبادة (الليترجية) الذى وضعه بوسر كان يحتوى على مجموعة كاملة من المزامير الملحنة التى كان يرنمها الشعب .

وهنا حاول كلفن ان يدخل نظام الترنيم على نطاق واسع . كما هو الحال فى الكنائس الألمانية فى استراسبورج ـ فى الكنيسة الفرنسية التى كان يقوم برعايتها فى تلك المدينة . وقد عمم هذا النظام فيما بعد فى جنيف . ولذلك فقد كتب كتاب ترنيم فى سنة ١٥٣٩ يحتوى على ١٨ مزموراً وثلاث ترانيم : وهى الوصايا العشرة ، وترنيمة سمعان ، وترنيمة قانون الإيمان [١٢] فقد أستطاع كلفن أن يقدم للكنيسة نظاماً لطريقة العبادة وخدمة العشاء الربانى والخدمات الأخرى كخدمة الزواج وغيرها . وكانت تأثيرات وانطباعات بوسر واضحة فى اعمال كلفن . والسؤال هو :
ألم يغير اسلوبه وطريقته فى كتابه الثانى الذى يدعى التعليم المسيحى ؟ ففى كتابه الأول الذى نشر فى سنة ١٥٣٧ والذى كان عبارة عن ملخص لكتابه .. « أسس الديانة المسيحية » عالج المواضيع الآتية : الناموس الإيمان ، الصلاة ، الفرائض ، وهو نفس البرنامج الذى اتبعه لوثر فى كتابة ، « التعليم المسيحى » . وغير كلفن هذا النظام فى كتابه الثانى « التعليم المسيحى» الذى نشر سنة ١٥٤٢ . وفيه اتبع الترتيب الآتى : الإيمان ، الناموس ، الصلاة ، الفرائض . وعندما يضع كلفن الإيمان ، على رأس القائمة يشدد على ضرورة وأولوية الإيمان .

ففى هذة المدينة أيضاً ظهرت الطبعة الثانية من كتابه « أسس الديانة المسيحية » فى سنة ١٥٣٩ ويحتوى على سبعة عشر فصلاً . كما أنه نشر أول كتاب تفسيرى له وكان عن رسالة القديس بولس الرسول لأهل رومية وظهر فى ١٨ أكتوبر سنة ١٥٣٩ . كما أنه كتب أيضاً كتيباً عن مشكلة العشاء الربانى وظهر فى سنة ١٥٣٩ .

12- Benoit 87-89, F. Wendel 37-38.

وبما أننا فى صدد الكلام عما كتبه كلفن* أثناء إقامته فى ستراسبورج لا يمكننا أن ننسى الرسالة التى أرسلها إلى الكردينال سادوليه Sadolet ، ويجب أن نتوقف قليلاً عند هذه الرسالة .

فبعد أن نفى كلفن من مدينة جنيف تمت بعض الاتصالات بين الذين كانوا يتمسكون بالكثلكة فى جنيف وبين بعض المسئولين فى روما . وقام البابا بدراسة هذه المشكلة مع بعض الكرادلة والأساقفة ، وفكروا فى إرجاع هذه المدينة إلى حضن الكنيسة . ولقد كلف البابا وجماعة الكرادلة الكاردينال « سادوليه » بالكتابة إلى مجلس مدينة جنيف . وكان الكردينال سادوليه سياسياً محنكاً وعالماً من علماء عصره وأديباً من الأدباء . فكتب إلى مجلس مدينة جنيف فى ١٨ مارس ١٥٣٩ رسالة بأسلوب رقيق لطيف مادحا فيها مجلس وشعب هذه المدينة . لقد وصف الشعب بأنه تقى بالسليقه ومتدين . وهو مدفوع كأب محب لهذا الشعب بأن يكتب هذه الرسالة لكى يبين لهم الخطر الذى يهدد حياتهم الروحية . ولقد انتقد فى هذه الرسالة الإصلاح وتعاليمه ، كما أنه تكلم عن الخلاص بالإيمان وعن الكتاب المقدس وعن الكنيسة الأم .

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى مجلس المدينة فى جنيف أرسلها المجلس إلى برن لكى ترد هذه الأخيرة على الكاردينال . أما حكومة برن فقد أرسلت رسالة الكاردينال إلى كلفن وترجته بأن يتكرم ويكتب رداً عليها .

لم يتردد كلفن لحظة واحدة فى الرد على رسالة سادوليه . وبدأ فى رده يمدح كاتبها على أسلوبه ولطفه ، ثم تناول الرسالة محللا إياها جملة جملة ، ناقضاً التعاليم التى قدمها كاتبها ، مستنداً فى نقضها على الكتاب المقدس وكتابات الآباء . وتعرض لعقيدتى التبرير بالايمان والافخارستية التى تكلم عنهما سادوليه وشرح هاتين العقيدتين بطريقة واضحة ومقنعة .

---

* إن كتاب أسس الديانة المسيحية « كان كتاباً واحداً ظهر أولاً فى سنة ١٥٣٦ باللغة اللاتينية فى بازل ويحتوى على ستة فصول فقط . وظهرت الطبعة الثانية فى استراسبورج وتحتوى على ١٧ فصلاً فى أغسطس سنة ١٥٣٩ . وقام هو نفسه بترجمتها إلى الفرنسية فى سنة ١٥٤١ . وظهرت الطبعة الثالثة فى ١٥٤٣ كانت تحتوى على واحد وعشرين فصلا والطبعة الرابعة ظهرت فى سنة ١٥٥٩ . وفى هذه الطبعة التى ترجمت إلى الفرنسية سنة ١٥٦٠ قسم الكتاب إلى اربع كتب ويحتوى على ثمانين فصلا . كان كلفن يضيف إلى كل طبعة بعض الفصول وبعض التعديلات إلى أن وصل إلى الطبعة الرابعة فى سنة ١٥٥٩ باللاتينية وظهرت الترجمة الفرنسية التي يحتمل بأنه قام هو نفسه بترجمتها فى سنة ١٥٦٠

وصل الرد إلى سادولية وإلى جنيف . وهنا بدأت جنيف ، تدرك محبة هذا الرجل العظيم لسيده ولهذه المدينة فلم يذكر لهم أخطاءهم بل اندفع بكل قوته وإيمانه وعلمه فى الدفاع عنهم . كان الرجل فعلاً عظيماً . ولم تنسى جنيف هذا الخطاب (١٣).

زواج يوحنا كلفن :ـ

كانت الدراسات الطويلة فى المدارس والجامعات قد استولت على وقت وتفكير جون كلفن . وبعد إنهاء الدراسات الجامعية المنظمة بدأ فى دراساته الشخصية والكتابة والعمل الرعوى وتنظيم الكنيسة فى جنيف واستراسبورج والصراع مع الكنائس ، سواء الكنائس المضطهدة فى فرنسا أو الكنائس التى كان يقوم هو نفسه برعايتها والإشراف عليها . كل هذه الأعمال والأنشطة استحوذت على وقت المصلح فلم يتخذ حتى ذلك الوقت خطوة عملية نحو الزواج . لم يكن كلفن ضد الزواج ، لابل علم بزواج الكهنة والخدام منذ البداية (١٤) .

وفى مدينة ستراسبورج بدأ يفكر جدياً فى هذا الموضوع . فمن هذه المدينة أرسل خطاباً فى بداية سنة ١٥٤٠ * إلى زميله فى الخدمة وصديقه المحبوب فارل ، وهذا الأخير كان هو أيضاً أعزباً * . فى هذا الخطاب يخبره بأنه يفكر جدياً فى الزواج . وفى خطاب فى مايو ١٥٤٩ يعطى لكاتم أسراره فارل وصفاً للمرأة التى يحلم بأن تكون زوجته فى المستقبل ، فيقول يجب أن تكون محتشمة خاضعة متواضعة ، اقتصادية ، صبورة ، وأن تسهر على صحته . وفى نفس الخطاب يعرِّف صديقه بأنه قد أقتُرح عليه الزواج من فتاة ، ولم يذكر اسمها . وكان أخوها من المغرمين بالمصلح ونشاطه ، كما أن أبويها ألحا كثيراً عليه بأن يتزوج منها . على ان كلفن كان يتردد كثيراً إزاء هذه الفتاة . ويقول

13- Felix Bungener.Calvin sa vie, son oeuvre et ses écrits.1863. 180-200, Wendel 39, Bossert 105-115-

14- Doumerque T pp. 447 SS

* للاسف ان الوثائق الأصلية من هذه الخطابات ضاعت

* تزوج فارل فى التاسعة والستين من عمره بسيدة لم تتجاوز الاربعين من عمرها .

هناك سببان يبعداننى عنها : أولاً ـــ أنها لاتجيد لغتنا ، وثانيا ـــ أخشى بأنها تتمسك كثيراً بجنسها وثقافتها الألمانية لأنها كانت من ستراسبورج . ولقد أظهر فى هذا الخطاب رغبته الشديدة فى مناقشة هذا الموضوع مع فارل وجهاً لوجه . وعلى ما يحتمل بأن فارل لم يستطع أن يذهب إلى ستراسبورج ، ولذلك كتب له كلفن خطاباً آخر بتاريخ ٢٩ مارس ١٥٤٠ ، ويقص عليه فى هذا الخطاب أن أخاه قد وجد «عروساً» له . ولقد ذهب أخوه مد صديق له لمقابلة العائلة ولكن بعد رجوعهما بثلاثة أيام حدثت بعض الأحداث التى أرغمته على إرسال أخيه مرة ثانية إلى العائلة لتبليغها بعدم الموافقة . وهكذا جرح كلفن فى قلبه ، على أن هذا الجرح لم يستمر طويلا .

ففى يوم من الأيام اقترح المصلح بوسر على صديقه الشاب اسم أرملة شخص معمدانى يدعى ستوردر (Stordeur) وهى اديلت دى بير (Idelette de Bure). لانعلم بالضبط فيما اذا كان كلفن يعرف هذه السيدة او تقابل معها قبل ذلك . ولكننا نعرف بأن زوجها ستوردر قد ترك الكنيسة المعمدانية وانضم إلى الكنيسة الإنجيلية على يد كلفن . ولقد جاء صديقه الحميم فارل من مدينة نيوشاتل لكى يقوم بمراسيم الزواج الذى تم فى شهر أغسطس سنة ١٥٤٠ . كانت « اديلت » قد أنجبت من زوجها السابق ولداً فى حوالى الثانية عشرة وابنة فى حوالى التاسعة . ويقول فارل عن زوجة كلفن بأنها كانت جميلة مخلصة وكان زواجهما سعيداً . على انه لم يعِّمر طويلاً ، إذ أنها ماتت فى ٢٩ مارس ١٥٤٩ بعد مرض طويل . ولقد ترك موتها على كلفن تأثيراً عميقاً جداً . ولقد كتب كلفن إلى فارل فى اليوم الثانى بعد وفاتها يقول « والآن حرمت من شريكة حياتى الممتازة التى كانت على استعداد تام ... بأن تشاركنى ليس فقط المأساة بل النفى والموت أيضاً ... ففى حياتها كانت خير مساعد أمين لى فى خدمتى ، ولم أجد فيها أى معطل للخدمة ... »

لقد أنجب كلفن منها طفلاً يدعى يعقوب ، ولكنه مات فى يوليو ١٥٤٢ بعد خمسة عشرة يوماً من ميلاده . وكان موته تجربة صعبة قاسية على يوحنا (جون) واديلت وخاصة للأم ولصحتها . وللأسف لانملك أية صورة لاديلت

كلفن [١٥] على عكس كاترين زوجة مارتن لوثر .

لقد كانت الفترة التى قضاها كلفن فى مدينة استراسبورج حافلة بالأحداث والاختبارات والذكريات الخالدة . ومن هذه الأحداث الهامة اشتراكه فى عدة مؤتمرات : فان الامبراطور شارل الخامس أمر بعقد عدة مؤتمرات بين قادة الكاثوليك والبروتستانت لكى يبحثوا عن حل لمشكلة الانقسامات الطائفية . فلقد عقد مؤتمر فى مدينة (Francfort) فرانكفورت فى أبريل سنة ١٥٣٩ ، ثم مؤتمر آخر فى مدينة هاجنو (Haguenan) فى يونيو ١٥٤٠ ، ثم عقد مؤتمر ثالث فى مدينة فورمس (Worms) فى نوفمبر سنة ١٥٤٠ ، ومؤتمر رابع فى مدينة راتسبون (Ratisbonne) فى أبريل سنة ١٥٤١ . وكان كل من ملانكثون المصلح الألمانى وبوسر يمثلان الكنائس المصلحة . وطلب هذا الأخير من يوحنا كلفن بان يصطحبه إلى هذه المؤتمرات . وفى مدينة فرانكفورت تقابل المصلح الفرنسى جون كلفن مع المصلح الألمانى فيليب فلانكثون ، ومن أول مقابلة ربطت الصداقة بين قلبيهما ، بالرغم من بعض الإختلافات العقيدية ، واستطاع المصلحان أن يناقشا أموراً كتابية وعقيدية كثيرة . فإن كان كلفن لم يتقابل شخصياً مع لوثر فإنه تقابل مع فلانكثون الذى كان يعتبر الذراع الأيمن للمصلح الالمانى . لقد قام كلفن بمجهودات جبارة فى أثناء هذه اللقاءات المسكونية لتمهيد الطريق لإيجاد حل سليم عادل للنزاع الذى كان يمزق جسد المسيح : الكنيسة .

ان اشتراك كلفن فى هذه المؤتمرات وزيارته للكنائس الألمانية كان فرصة عظيمة واختبارا جديدا له . فقد إستطاع أن يرى نظم وطرق العبادة فى هذه الكنائس . فمع أنه لم يكن موافقاً كل الموافقة على نظام العبادة فيها ، لأنه اعتقد بأنها أخذت الكثير عن الكنيسة الكاثوليكية وأنها غير مستقلة عن الحكومة فى قراراتها وإدارتها ، إلا أنه استفاد منها استفادة عظيمة من بعض النواحى . ولقد حاول كلفن أن يعمل جاهداً أيضاً فى إزالة الخلافات القائمة بين الكنائس المصلحة نفسها ، وخاصة بين أتباع « زونكيلى » وأتباع لوثر .

15- Rilliet 80-94, Wendel 40-43, Cadier Mythes 85-87, Cadier lhomme 100-102

كان الاختبار الذى اجتاز فيه كلفن أثناء إقامته فى استراسبورج عظيماً وبنّاء بالنسبة لمستقبل المصلح . فلقد استطاع أن يعمل جنباً إلى جنب مع رجل عظيم وهو بوسر ، الذى ترك عليه انطباعات لا تمحى . والدارس المدقق لتعاليم هذين المصلحين يلاحظ التأثير العظيم الذى تركه بوسر والذى ظهر فى تعاليم كلفن العقيدية . فإن أفكارهما تتلاقى تقريباً فى كثير من الموضوعات العقيدية مثل اختيار الله السابق والعشاء الربانى وسيادة الله المطلقة ودوام سلطة الناموس .

كان مجال العمل امام كلفن فى هذه المدينة متسعاً ، كما أنه كان يشعر بنوع من الحرية فى قيادة كنيسته وفى الكتابة ، ولذلك فقد فكر ان يستقر فيها بصفة نهائية ، وقدم طلباً للحصول على البرجوازية * ، ومنحت له فى يوم ٢٩ يوليو سنة ١٥٣٩ (١٦). لقد وجد كلفن فى هذه المدينة التى كانت تعتبر مركزاً من أهم المراكز الثقافية فى عصره ، جواً مناسباً للخدمة وللعمل ، ولإنتاج كتب تفسيرية وتعليمية . بل إنه قد بدأ فعلاً منذ وصوله إلى هذه المدينة فى الكتابة والإنتاج والتعليم . كان سعيداً فى عمله فى استراسبورج ، فهل تستمر هذه السعادة ؟

لقد سبق ورأينا بأن الحزب الذى فاز فى الانتخابات سنة ١٥٣٨ كان حزباً معادياً للمصلح وطرده مع زميليه فارل وكوردو . وبدأت الاضطرابات والثورات الداخلية بعد ان استلم السلطة الحزب المعارض للمصلح . واستمرت هذه الحالة الخطيرة تسيطر على المدينة وعلى الكنيسة ، لابل أن روح الانقسام ظهرت فى الكنيسة وفى المدينة أيضاً ، لدرجة أن أعضاء الحزب الذى كان يؤيد كلفن رفضوا الاشتراك فى المائدة لأنهم اعتبروا أن الخدام الذين جاءوا بعد المصلحين المطرودين غير أكفاء وليسوا أهلاً للقيام بهذه الخدمة . وبهذه المناسبة كتب كلفن إلى هذا الحزب المؤيد له خطاباً أظهر فيه نبل أخلاقه وسموها ، فوبخهم بشدة على الانقسام الذى يمزق جسد المسيح ، ثم حثهم على الاتحاد والعمل لمجد الله وبناء الوطن . وبالرغم من هذا الخطاب الذى أرسله

* كلمة بورجوازية هنا تعنى حصوله على الجنسية واعتباره مواطناً فى تلك المدينة .

16- Wendel. 41

كلفن إلى الحزب المؤيد له ولفارل ، فإن هذا الحزب الذى كان يدعى حزب كيورمن أو جيورمن (Guillermins) أى أتباع المصلح جيوم فارل ، قام بنشاط مكثف وواسع ضد الحزب الحاكم . ومما « زاد الطينة بلة » أن يوحنا فيلبس (Jean Philippe) وهو واحد من الرؤساء الأربعة لمجلس المدينة قام بثورة شعبية ، فحكم عليه بالاعدام مع ثلاثة آخرين من رؤساء مجلس المدينة ، ونفذ فعلاً فيه الإعدام . أما الثلاثة الآخرون الذين اتهموا بخيانة وطنية ، فقد فروا هاربين خارج جنيف لإنقاذ حياتهم .

لقد قادت هذه الاضطرابات والثورات إلى تغيير مجلس المدينة ، ووصل أعضاء حزب كيورمن ــ الحزب المؤيد لفارل وكلفن ــ إلى الحكم ، وأصبحت أغلبية أعضاء مجلس المدينة من هذا الحزب . ولكن حالة القلق والاضطراب ، لابل روح الثورة كانت تسيطر على المدينة ، وكان الشعب يخشى اندلاع ثورة أهلية وشعر الجميع من الحزب الحاكم والحزب المعارض بأن المدينة كلها فوهة بركان يشتعل ، على وشك الإنفجار . وهنا بدأ الحزب الحاكم والتابع لفارل النقاش مع الحزب المعارض فى موضوع رجوع كلفن إلى المدينة المهددة فى سلامها .

ولقد نوقش هذا الاقتراح فى مجلس المدينة الذى عقد فى يوم ١٥٤٠/٩/٢١ ، وكُلِّف السيد أمى بيرين (Amie Perrin) بالكتابة إلى السيد فارل لعمل اللازم لإرجاع كلفن إلى جنيف ، كما أنه كُلِّفَ أيضاً بالذهاب إلى ستراسبورج لمقابلة كلفن وتسليمه الرسالة المرسلة من مجلس المدينة ومحاولة إقناعه وإقناع مجلس مدينة استراسبورج بالضرورة الملحة لعودة المصلح إلى جنيف . ولقد اجتمع مجلس مدينة جنيف فى يوم ١٩ أكتوبر ١٥٤٠ وسجل فى سجلاته الكلمات الآتية : « يجب استخدام كل الوسائل الممكنة لإرجاع السيد كلفن إلى المدينة لكى يمجِّد الله ويعود السلام » . وفى اليوم التالى ٢٠ أكتوبر ١٥٤٠ اجتمع المجلس العام رأى مجمع المائتين ــ ووافق على إرسال السيد أمى برين ومعه شخص آخر من الحكومة لمقابلة كلفن وإقناعه بالرجوع[١٧].

17- Felix Bungener. 200-204, Benoit. 99-105,Wendel 40-42 Doumerque T.2:653

وقام فعلاً كل من أمى برين ولويس دى تور برحلة لمقابلة كلفن ، ولكن عند وصولهما إلى بازل عرفا بأن كلفن فى فورمس .

عندما استلم كلفن خطاب مجلس مدينة جنيف كتب له رداً من مدينة فورمس وقد شرح فى خطابه العمل الذى يقوم به فى مدينة استراسبورج ، وأنه لايستطيع أن يترك هذا الحقل المتسع للخدمة والذى أُسند إليه للعناية به . على أن مجلس مدينة جنيف لم ييأس من هذا الخطاب بل فكر فى استخدام كل وسائل الضغط التى يمكن استخدامها لكى يرجع كلفن إلى جنيف . ولذلك فقد كتب إلى أصدقائه فى بازل وفى زيورخ وحتى إلى برن ، لكى يكتبوا هم بدورهم إلى مجلس مدينة استراسبورج وإلى كلفن لإقناعه بضرورة العودة لانقاذ هذه المدينة من الانغماس فى الفوضى والثورة الأهلية . فكتب له فعلاً أصدقاؤه وخاصة فارل طالبين منه العودة ، لأن جمهورية جنيف كلها مهددة . وعلى مايحتمل بأن فارل نفسه ذهب بعد الوفد وتقابل مع صديقه كلفن فى ستراسبورج لمحاولة إقناعه . وقف كلفن أمام هذه الخطابات والالتماسات التى جاءت إليه وإلى مجلس مدينة استراسبورج ، من مدن كثيرة فى سويسرا ومن أصدقائه ، وقفة الحائر المتردد . فلقد سبق ان كتب إلى فارل يقول إن جنيف هى المكان الذى يخشاه أكثر من أى مكان آخر تحت السماء . واخيراً بعد تردد وتفكير طويل وصلاة حارة ، كتب إلى صديقه فارل فى أغسطس ١٥٤١ جملته الشهيرة قائلاً : أما عن ما يدور فى خلدى ، فهو لو سمح لى بالاختيار لفضلت أن أفعل أى شىء آخر إلا اطاعتك فى هذا الامر (اى العودة إلى جنيف) ، ولكننى لست ملكاً لذاتى ، فإنى أقدم قلبى كذبيحة للسيد ... ولا أطلب إلا شيئاً واحداً ، وهو عدم الاهتمام بذاتى ، والقيام بالأفضل لمجد الله وفائدة الكنيسة [١٨] .

عندما قبل المصلح بأن يعود إلى جنيف بسبب الاضطرابات التى كانت تسيطر على المدينة ، كان يعتقد بأنه يرجع إليها لفترة قصيرة فقط ، وهذا ما كان يعتقده أيضاً مجلس مدينة استراسبورج . وفى يوم ٢ سبتمبر انطلق المصلح

18- Benoit 102, Cadier Mythes 87, Wendel 43-44

إلى جنيف ، ووصل إليها فى يوم ١٣ سبتمبر ١٥٤١ ، ليس لكى يمكث فيها عدة أسابيع أو أشهر كما كان يعتقد ذلك ، بل لكى يقضى حياته كلها فى جهاد وصراع لكى ينقذ هذه المدينة من الفوضى والانهيار .

الفصل الثامن
المصلح يعود إلى جنيف
(الإقامة الثانية)

يعرفنا مؤرخ حياة كلفن ثيودور دى بز بأن شعب مدينة جنيف قد استقبل مصلحه استقبالاً عظيماً رائعاً وحاراً ، معبراً بهذا الاستقبال عن محبته لهذا الرجل الذى استطاع أن ينكر نفسه وألا يفكر فى انتقام شخصى ، بل بينما كان فى موضع القوة ، مد يده لكى ينقذ هذه المدينة التى كانت تغوص فى الفوضى والانقسام والحرب الأهلية .

إنه جاء لكى يساعد ولكى يخدم سيده فى هذه المدينة . وهذا ما أعلنه حال وصوله ؛ إذ أنه توجه مباشرة إلى مقرّ مجلس المدينة واستقبله رؤساء المجلس . فبعد أن سلم لهم الخطابات التى كان يحملها لهم من ستراسبورج وبازل ، ألقى على المجلس خطاباً رائعاً أعلن فيه بأنه قد رجع إلى جنيف ليخدم سيده وأنه خادم لهذه المدينة .

ولقد اطلع مجلس المدينة على الخطابات التى أرسلتها مدينة ستراسبورج ، والتى تطالب فيها مدينة جنيف بعودة كلفن إليها عندما تستقر الأمور وتسير فى طريقها الطبيعى [١] .

كان هدف كلفن من رجوعه إلى هذه المدينة هو مساعدة قادتها وخدامها على تنظيم الحياة فيها . ولأجل هذا السبب ، ففى نفس اليوم الذى وصل فيه (١٣ سبتمبر ١٥٤١) ، وقبل أن يرى المكان *الذى سيستريح فيه ، قدم طلباً إلى حكام المدينة بتأليف لجنة من بعض القسوس وبعض أعضاء المجلس للقيام بعمل دستور كنسى ، لأنه كان ينوى تأليف هذا الدستور لتنظيم الحياة فى المدينة[٢] .

1- Rilliet 137-139

* بعد أن ألقى خطابه قدم له مجلس المدينة منزلاً فى شارع الكهنة ، وظل فيه حتى موته . ولقد عين له المجلس مرتباً ضعف المرتب الذى كان يقدم للخادم (Doumerque T.3-449)

2- Choisy La Theocratie a Geneve au temps de Calvin 48

فإن السبب الذى من أجله ترك جنيف كان يمس موضوع الدستور والنظام . النظام الذى كانت هذه المدينة ، التى تعيش فى الاضطراب وشبه الفوضى ، فى حاجة إليه أكثر من أى وقت مضى .

لقد جاءت الجماهير الغفيرة العديدة من المؤيدين والمعارضين للمصلح لحضور الخدمة الدينية التى قام بها فى الأحد الأول بعد رجوعه من ستراسبورج . كان الجو مهيباً ، وكانت التساؤلات كثيرة . ماذا سيقول هذا الرجل فى عظته الأولى لمدينة طردته . هل سيهدد ؟ أم سيلوم ؟ أم سيصفح ؟

وقف كلفن فى منبر الكاتدرائية ، وبدأ من نفس النص الذى كان يعظ عنه آخر أحد طرد فيه منها لكى يكمل هذه العظة . لم يهدد ولم يلم بل صفح . إن الغرض الذى من أجله قبل العودة إلى هذه المدينة هو لكى يكمل ما قد بدأ به . ولأجل هذا السبب يبدأ بشرح نفس النص الذى تركه معلقاً . ولكى يكمل هذا العمل أيضاً ـــ يقترح الدستور إلى مجلس المدينة فى يوم ٢٦ سبتمبر لكى يفحصه .

وبعد أن فحص المجلس مواد الدستور قدم اقتراحاته وتعديلاته له ومنها :

إن المجلس لايعترض بأن ينظم المصلح الكنيسة بالطريقة التى يريدها ، على شرط ألا يتدخل فيما يمس اختصاصات أو سلطان مجلس المدينة ، أو ما يلمس العادات المتفق عليها والمقبولة فى الكنيسة فى جنيف وفى برن . ولأجل هذا رفض المجلس ممارسة العشاء الربانى كل شهر مثل ما كان يمارس فى ستراسبورج ، بل يمارس مرة كل ثلاثة شهور .

كما أنه (المجلس) رفض أيضاً سيامة الخدام بوضع الأيدى * كما كان متبعا فى استراسبورج بل يُقدِّم الخادم للشعب ثم ترفع صلاة وبعدها تلقى عظة عن وظيفة الخادم . وقبل كلفن هذه التعديلات لانها لم تكن جوهرية . وفى يوم ٢٠ نوفمبر ١٥٤١ قبل المجلس مشروعه الذى أسماه الدستور الكنسى لمدينة

---

* اعتبر مجلس المدينة خطأ بأن حركة وضع الأيدى نوعاً من الخرافات التقليدية والتى يجب التخلص منها

جنيف ولقد طالب هذا الدستور أن يكون تعليم الأطفال للديانة المسيحية إجبارياً ، وعلى كل الأطفال تسجيل أسمائهم فى كل حى من أحياء المدينة .

ولذلك فقد قام كلفن بتأليف ما يدعى بالتعليم المسيحى فى سنة ١٥٤٢ ، وهو يختلف عن التعليم المسيحى الذى كتبه فى سنة ١٥٣٧ . وكان كتاب سنة ١٥٤٢ عبارة عن حوار بينه وبين الراعى الذى يبدأ بسؤال وبجواب الطفل . فمع أن هذا الكتاب كُتب لتعليم الأطفال لكنه كان يستخدم لتعليم الكبار أيضاً .

وتعرض أيضاً الدستور لنقطة هامة وهى تعيين الرعاة : من يعين الراعى ؟ المجمع أم مجلس المدينة ؟ وكان الدستور الذى قدمه كلفن يقترح بأن هيئة الخدام هى التى تمتحن الطلبة الذين يتقدمون للخدمة . وبعد ذلك يقدمهم المجمع للحكام أو لمجلس المدينة لكى يختار الأفضل منهم ، وأخيراً يقدم الأفضل أو المختارين إلى الكنيسة التى تعطى موافقتها . على أن مجلس المدينة لم يوافق على هذا النظام بل طالب أن يتم اختيار الرعاة عن طريق لجنة مكونة من بعض أعضاء مجلس المدينة ومن بعض أعضاء المجمع ، حتى لاينفرد الرعاة وحدهم بسلطان اختيار زملائهم . كان مجلس المدينة يخشى أن يمنح كلفن المجمع سلطاناً يفوق سلطان مجلس المدينة .

إن النزاع على السلطان بين المجمع وبين مجلس المدينة كان مريراً قاسياً : فإن المجمع كان يشعر بأن مجلس المدينة يحتكر الحكم فى بعض الأمور الروحية التى ليس من حقه أن يحكم فيها . كما أن مجلس المدينة كان يعتقد هو أيضاً بأن المجمع يتدخل فى بعض الشئون المدنية والسياسية التى ليس من حقه الحكم فيها .

ولذلك فإن كل سلطة من السلطتين . المدنية الزمنية والروحية شعرت بأن السلطة الأخرى تغتصب حقها وتتدخل فيما لايحق لها أن تتدخل فيه . ولكى نفهم الموقف على حقيقته لايجب أن يغيب عن بالنا بأن السلطة الزمنية الحاكمة كانت تتمتع فى هذا الوقت بالإشراف على كل شىء فى حياة المواطنين : كانت تشرف على أخلاقهم وعلى سلوكهم الشخصى ، وعلى علاقاتهم وتصرفاتهم ، على ممارستهم للعبادة وعلى اعتقاداتهم ، لا بل كانت تشرف أيضاً حتى على

ملابسهم وعلى طعامهم .

وهذا ما طالب به كلفن معلناً بأن الإشراف على سلوك ومعتقدات الشعب ليس من حق الحاكم بل من حق الكنيسة . ومن هنا نشأ النزاع بين السلطتين. ومع أنهم لم يجدوا حلاً يرضى جميع الأطراف قد اتفق المجلس والمجمع على حل وسط : وهو بأن الذين يشرفون على مراقبة الشعب وسلوكه هم جماعة مكونة من بعض أعضاء مجلس المدينة وبعض الشيوخ من الكنيسة .

على أن مجلس المدينة لم يقبل بأن الكنيسة تعزل شخصاً عن المائدة منفردة وحدها بهذا السلطان . أما كلفن فقد رفض بشدة تدخل مجلس المدينة فى هذا الأمر . ألم يطالب بذلك فى سنة ١٥٣٧ قبل نفيه ؟ ولهذا فقد رفض حتى النقاش فى هذه النقطة . وفعلاً انتصر فى هذا الموضوع ، ولكن ظاهريا فقط ولم يستطع أن يطبق هذا المبدأ إلا بعد سنة ١٥٥٥ . وفى تقديمه للدستور يتعرض كلفن أيضاً لنقطة أخرى هامة من ناحية النظام والتعلم وهى : الوظائف الكنسية . وتوجد أربع وظائف فى الكنيسة :

١ ــ الرعاة ٢ ــ المعلمون ٣ ــ الشيوخ ٤ ــ الشمامسة .

والدارس لتعاليم كلفن يلاحظ بأنه لم يتكلم فى كتابه (أسس الديانة المسيحية) الطبعة الأولى إلا عن الرعاة والشمامسة . وهذا يرجع إلى حقيقة أن المصلح الفرنسى قد اتخذ هذا التعليم عن بوسر أثناء اقامته فى ستراسبورج .

لقد طالب كلفن فى هذا الدستور بتأليف ما يدعى بمجمع الخدام : حيث كان يجتمع الخدام كل يوم جمعة لدراسة الكتاب ، ولكى ينصح بعضهم بعضاً [٣] .

وفى هذا الدستور الكنسى (أو اللوائح الدستورية) الذى قدمه المصلح الفرنسى فى سنة ١٥٤١ ، يشرح أيضاً عدداً كبيراً من المشاكل العقيدية والعملية . فإنه تكلم عن العماد ، وعن العشاء الربانى ، ومن هم الذين لهم الحق فى التقدم على مائدة الرب .

كما أنه تعرض ايضاً لموضوع الزواج [٤].

---

٣ ــ مصلح فى المنفى جون كلفن م.أبرتس : ترجمة وليم وهبه بباوى ٤٢ــ٥٤

4- Wendel o.p.cit...26-44

ولقد كتب فيما بعد سنة ١٥٤٥ بحثاً عن الزواج منبراً على حرية الإختيار للمتزوجين ، وعدم تدخل الآباء فى إرغام أبنائهم على الزواج ممن لايحبون . كما أنه ينصح بأن تقام المراسيم الدينية فى الكنيسة وفى بداية الخدمة ، وأن يحضر العروسان إلى الكنيسة للعبادة وبكل احترام وفى الميعاد . وإن لم يحضرا فى الميعاد يطردا من الكنيسة . ولم ينس فى حديثه عن الزواج ان يذكر بعض الأسباب التى من أجلها يمكن الإنفصال : عدم المقدرة الجنسية ، أو الزنى ، أو ترك المنزل من أحد الزوجين ....

كما أنه نبر بشدة على مساواة الرجل بالمرأة فى الحقوق والواجبات التى تختص بكل منهما . وتكلم كلفن فى هذا الدستور عن زيارات المرضى والمسجونين والعناية بهم ، كما تكلم أيضاً عن الجنازات (٥).

لم يكن وضع وتأليف هذا الدستور الكنسى بالأمر السهل ، بل كان يحتاج إلى تفكير عميق ، وجهاد جبار ، ومعرفة شاملة من الناحية القانونية والكتابية والتقليدية . وكان كلفن يتمتع بهذه الصفات كلها . ولكن الأمر الأصعب هو تنفيذ هذا الدستور وتطبيقه بطريقة عملية على الشعب . ولتطبيق هذا الدستور يقترح كلفن بأن تشرف جماعة من الشيوخ الذين امتازوا بحسن السلوك ونقاوته مع بعض الخدام للعمل على تطبيقه .

وكان على كل شيخ من هؤلاء الشيوخ بأن يقوم بمراقبة سكان الحى الذى يسكن فيه وأن يساعدهم ويرشدهم بلطف ومحبة عندما يتعرض أحدهم لكسر هذه اللوائح الكنسية . وإن لم يقبل هذا الشخص النصائح التى يقدمها له الشيخ ، يبلغ هذا الأخير الراعى المسئول عن الحى ، فيتصل به لكى يتناقش معه بروح المحبة والصلاة . وإذا رفض إرشاد الخادم أو الخدام ، يعزل من المائدة (٦).

لقد انتقد الكثيرون كلفن معتقدين بأن هذا الدستور حل محل القوانين المدنية ، وأن الشيوخ والخدام قاموا بعمل البوليس والمحاكم . لم يرد كلفن أن

5- Rilliet. 140

6- Cadier Mythes. 92-95, Benoit 100-105

يحل الدستور الكنسى أو اللوائح الكنسية التى وضعها لتنظيم الكنيسة محل القانون المدنى والحاكم والبوليس . فالكنيسة لم تستعمل السيف لمقاومة الذين يحاربونها ، بل استعملت سيف الكلمة . ان كلفن بوضعه هذا الدستور كان يريد أن ينظم الحياة فى المدينة وفى الكنيسة ، اللتان كانتا معرضتين للفوضى وللاضطرابات .

كان كلفن يخشى بأن هذه الجماهير الغفيرة التى أدلت بأصواتها فى سنة ١٥٣٦ للانضمام إلى المذهب الإنجيلى أن تدخل إلى الكنيسة المصلحة التى اصبحت كنيسة الدولة بعاداتها وتقليدها وحياتها القديمة دون تجديد أو تغير فى الحياة لأن هذا الجمهور أعلن انضمامه إلى الكنيسة الإنجيلية بحسب قرار جمهورى جماعى اتخذه مجلس المدينة فى سنة ١٥٣٦ . ولقد إعتقد هذا الجمهور أن العلاقة الخارجية لانضمامه لكنيسة الدولة ، هو الاشتراك فى المائدة . ولهذا السبب جاءت الجماهير العديدة لكى تظهر إنجيليتها بهذه العلامة الخارجية ، أى الاشتراك فى العشاء الربانى دون شركة حقيقية مع رب الأفخارستية ، ودون تغيير حقيقى فى الحياة وفى السلوك وفى التصرف . إن كل ما كان يفعله الكثيرون هو الاشتراك فى العشاء الربانى لإظهار انضمامهم لكنيسة الدولة .

لأجل هذا السبب وضع كلفن هذه اللوائح الكبيرة والعديدة ، وكذلك وضع عدداً من المراقبين فى كل حى من الاحياء لمراقبة سلوك هذا الجمهور الغفير الذى انضم دفعة واحدة إلى الكنيسة الإنجيلية دون أن يعرف مطاليب الإنجيل والحياة حسب الدعوة التى دعيوا بها . لم يكن واجب المراقبين ولا هدفهم شيوخاً كانوا أم خداماً ـــ زج الذين لايسلكون بلياقة وتدقيق فى السجون ، بل كان من واجبهم إرشادهم وقيادتهم إلى الطريق السليم والصلاة معهم . فإن لم يتوبوا وإن لم يغيروا حياتهم فليس من حقهم الاشتراك فى المائدة .

مما لاشك فيه أن هذا الدستور احتوى على بعض المواد التى تبدو لنا بأنها ليست من اختصاصات الكنيسة أن تتدخل فيها ، والتى سوف نتعرض لها فيما بعد ، ولكن لايغيب عن بالنا بأننا نتحدث عن كنيسة القرن السادس عشر وعن كنيسة جنيف بالذات . الكنيسة التى كان فيها الأسقف يقبض بين يديه

على سلطتين : السلطة الدينية كأسقف ، والسلطة المدنية كحاكم (٧).

وعندما استقلت المدينة واستولت على سلطان الأسقف كحاكم أراد مجلس المدينة أن يمارس هو أيضاً بدوره (السلطتين) ؛ السلطة الزمنية والسلطة الدينية . أراد أن تكون له الكلمة الأولى والأخيرة فى موضوع عزل الأعضاء من المائدة . لابل أراد أن تكون له الكلمة الأولى والأخيرة فى أمور أخرى كثيرة ، خاصة التعليم والعقائد والسياسة الخ ... أما كلفن فلم يقبل بأن تتدخل الدولة فى أمور الكنيسة وتعاليمها . كان يريد أن تكون الكنيسة مستقلة من ناحية التعليم والدستور ، الأمر الذى لم يكن سهلاً ، لأن الدولة تعودت بأن تتدخل فى شئون الكنيسة . كما أن الكنيسة تعودت أيضاً أن تتدخل فى الشئون السياسية والحكم فيها .

ومن هنا نشأ الصراع العنيف بين مجلس المدينة ومجلس الكنيسة على السلطة : من له الكلمة الأولى والأخيرة ؟ من يحكم ؟ المجمع أم مجلس المدينة ؟ ومن هنا أيضاً نشأت متاعب كلفن ، لأنه كان يريد تطبيق هذا الدستور حرفياً وعملياً فى هذه المدينة التى أراد أن يخلق منها مدينة مثالية . ومن لايقبل تطبيق هذا الدستور فى حياته ينفى من المدينة . ومع اننا لانتفق قط فى هذه المادة وبعض المواد الأخرى فى الدستور مع المصلح العظيم ، لكننا يجب أن ننبه القارىء بأن كلفن كان يعيش فى القرن السادس عشر وكان ابن عصره ، ويعيش فى عصر ، كانت الدولة هى اليد الخادمة والمساعدة للكنيسة فى محاكمة الهراطقة ، ونفس الذين لايطيعون ولايطبقون القوانين الدينية فى حياتهم . ولكن المشكلة الكبرى بالنسبة لجنيف هى أن هذه المدينة كانت تسعى إلى الإستقلال التام وكان مجلس المدينة يريد الاستيلاء على كل السلطات الدينية والزمنية .

ومن هنا بدأت متاعب كلفن ومن هذه المتاعب مشكلته مع السيد : **سباستيان كاستيلو** (Sebastien Castellion)

ولد كاستيلو فى سنة ١٥١٥ ودرس الآداب فى ليون . ولقد كان واحداً

7- Cadier Mythes 93-97 p. 46-50

من الإنسانيين وبعد ذلك انضم إلى الإصلاح . جاء إلى ستراسبورج فى سنة ١٥٤٠ واستقبله كلفن أحسن استقبال واستضافة فى بيته .

عين كاستيلو مديراً لإحدى مدارس جنيف قبل عودة كلفن إليها ، وأظهر جدارة عظيمة فى إدارة هذه المدرسة ، كما أنه كان يتمتع بصفات التضحية والشجاعة ومحبة الآخرين زيادة على مقدرته العلمية والثقافية . فلقد أظهر روح التضحية والشجاعة عندما تطوع بالخدمة فى المستشفيات أثناء وباء الطاعون الذى كان يحصد الشعب حصداً فى سنة ١٥٤٢ ـ ١٥٤٣ . كما أنه حاول ترجمة العهد الجديد ونشره باللغة الفرنسية [٨]. وفى سنة ١٥٤٣ قدم كاستيلو الذى انفرد بهذه الصفات العظيمة طلباً إلى مجمع الخدام لكى يعينه خادماً لاحدى القرى المجاورة لجنيف . وبحسب الدستور الجديد كان على الطالب للخدمة أن يجتاز امتحاناً . وفى أثناء هذا الامتحان أظهر كاستيلو شكه فى وحى كتاب نشيد الإنشاد . كما أنه لم يقبل تفسير كلفن الخاص بالمادة المتعلقة بنزول المسيح إلى الجحيم . فإن كلفن عندما تعرض لشرح هذه المادة من قانون الإيمان « ونزل إلى الجحيم »رفض فكرة ان المسيح نزل إلى الجحيم ، بل أنه يعتقد بأن الجحيم الذى نزل إليه المسيح هو الصليب والعار وكل أنواع الآلام الجسدية والنفسية التى احتملها السيد من أجل خلاصنا . فهذا الجحيم ليس جحيما مادياً بل رمزياً[٩] . أما كاستيلو فقد قبل نص قانون الإيمان كما هو . ثم استند إلى بعض الآيات الكتابية مثل (مز ١٥٧ : ١٦ ، زكريا ٩ : ١١ ، ١ بط ٣ : ١٩ ، أف ٤ : ٩) ، التى فسرها وقبلها بطريقة حرفية .

فعندما أعلن كاستيلو شكه فى وحى سفر نشيد الأنشاد ثم عدم قبوله لشرح كلفن لقانون الإيمان رفض المصلح طلب كاستيلو . فمع أن مجلس المدينة وافق على طلبه ، فإن كلفن أصر على عدم قبوله . وكان اعتراضه على هذا الرجل

8- Rilliet 144; Harkness 30-35

9- Institution 2, 16. 1-15

المثقف العالم والغيور هو بانه لايمكن له أن يقبل خادماً يشك فى وحى الكتاب المقدس . فإن كان الخادم الذى يعلن الكلمة يشك فى وحى جزء من هذا الكتاب الذى هو دستور لأعمالنا ولحياتنا ، ماذا سيكون مصير الكتاب وماهو موقف الشخص العادى منه ؟ كما اعتقد أيضاً بأنه من الخطأ قبول شخص فى الخدمة لايتفق وتفسيره الشخصى للكتاب المقدس . فإن كلفن علل موقفه هذا فيما يخص موضوع عدم اتفاق كاستيلو فى التفسير بأنه يريد تفسيراً موحداً ورأياً واحداً فى الكنيسة ، وكان رأى كاستيلو يختلف عن رأيه . ومن هنا يُطْرح السؤال الآتى : هل كان من حق كلفن الإدعاء بأن تفسيره هو التفسير الارثوذكسى ، ومن يخالفه فى الرأى ليس على حق ؟

مما لاشك فيه بأن كلفن كان يريد أن يدافع عن وحى الكتاب المقدس وعن سلطانه كما أنه كان يريد وحدة فى التفسير حتى يتجنب كل انقسام ، ولكن أين هى الحرية ومن الذى يحكم بصحة تفسير وخطأ تفسير آخر ؟

لقد أعطى كلفن هذا الحق لنفسه ولم يكن محقاً فى ذلك .

رفض طلب كاستيلو بأن يكون خادماً ، على أنه لم يعزل من إدارة المدرسة ، لابل أن كلفن أعطى له شهادة حسنة عندما تعرض لشرح السبب الذى من أجله لم يقبل فى الخدمة . كان هذا القرار صدمة عنيفة لكاستيلو ، وأثار فيه روح العداوة والمنافسة للمصلح . ففى مايو ١٥٤٤ انتقد خدام جنيف انتقادا لاذعاً وقاسياً ، وعندئذٍ قدم كلفن شكوى ضده للحاكم الذى أصدر قراراً بطرده من المدينة فذهب إلى بازل . وكان هذا القرار قاضياً على المدرسة التى كان يقوم بإدارتها كاستيلو . فقد تدهور التعليم بها وانهار بعد تركه لها . ولم تنهض من هذا التدهور الذى وصلت إليه إلا بعد عشر سنوات من تاريخ طرده من جنيف (١٠).

10- Harkness 30-35, Opera 21, 326-329; Wendel 54-578; Cadier Mythes 98-102; Rilliet 144-148; Ferdinand Buisson, Sebastien Castellion, sa vie, et son oeuvre Paris 1892, 2. Vol. 2; Stephan Zweig Castellion contre Calvin...Paris

بالرغم من هذا استطاع كلفن ، بشخصيته القوية وبأفكاره البناءة المصلحة ، أن يعمل على إصلاح الكنيسة والمدينة معاً . والذى يطلع على السجلات الرسمية لمدينة جنيف لهذه الحقبة يلاحظ اسم ونشاط واثار المصلح فى معظم الصفحات ، لأنه كان يريد أن يخلق من هذه المدينة مدينة مقدسة . ولذلك فقد طلب المجمع من مجلس المدينة فى سنة ١٥٤٥ حق المراقبة والإشراف على عادات الناس وتقاليدهم ومحاكمتهم إذا احتاج الأمر ، لابل إن نفس المجمع طالب بحق إجراء امتحان للرجال والنساء والأطفال لمعرفة معلوماتهم الدينية ، ومراقبة العادات والخرافات التى يمارسونها ، وبحق الإشراف أيضاً على خلافاتهم العائلية وعدم حضورهم للخدمات الدينية ، وممارستهم للسحر أو الرقص أو الشرب المفرط ، أو الضحك أو عمل ضوضاء فى الكنيسة أثناء الخدمة أو الأغانى التهكمية ضد كلفن ... الخ . وكذلك الإشراف على الفنادق ووضع الكتاب المقدس باللغة الفرنسية فى كل حجرة والإشراف على المقاهى ومنع لعب الأوراق .

كانت هذه القوانين وقوانين أخرى سبباً فى إثارة المشاكل الكثيرة ضد كلفن ، مع أنه لم يكن المسئول الوحيد عن تأليف وإصدار هذه القوانين . ومن الذين ثاروا ضد المصلح وضد هذه القوانين شخص يدعى بطرس أمو (Pierre Ameaux) .

كان بطرس أمو عضواً فى مجلس المدينة الصغير ، وكان تاجراً لأوراق اللعب (الكروتات) . وقد أفلست تجارته بسبب القوانين الجديدة التى منعت اللعب بالأوراق . وكما أنه كان غير موفق فى تجارته كان غير موفق أيضاً فى حياته الزوجية ، ولم يصدر المجمع والحكم بعد فى طلاقه من زوجته التى كانت تعتبر بأن تقديم جسدها للآخرين هو شركة مقدسة . وفى شهر يناير ١٥٤٦ أثناء حفل زفاف وبعد أن شرب كثيراً من الخمر ، تطرف أمو فى حديثه ضد كلفن واتهمه أمام المدعوين بأنه رجل شرير يعلم تعاليم ضالة خاطئة ، ويريد أن يكون أسقفاً للمدينة ومتسلطاً عليها [١١].

11- Wendel 56-58; Benoit 102-106.

ولقد اعتبر كلفن أن هذا الإتهام باطل ، لابل إنه إهانة موجهة للمسيح شخصياً . ففى عُرف كلفن ، إذا كان أمو يتهم المفسر للكتاب المقدس بأنه رجل مضل ، وتعاليمه خاطئة فإنه يكون قد أهان الخدمة المقدسة وأهان السيد الذى سلمه هذه الخدمة . وبناء على ذلك فلا سلطان له فى التعليم . فعندما اقترح عليه الحاكم بان أمو يجب أن يحضر أمامه وأمام المجلس المكوَّن من مائتى عضو وأن يقدم اعتذاراته ساجداً رفض كلفن رفضاً باتاً . وأعلن كلفن قائلاً بأنه لم يخطىء إلى شخص ، بل أخطأ إلى التعاليم التى أنادى بها ، أى أنه أخطأ إلى المسيح . وبما أنه أخطأ إلى المسيح ، وبما أنه أخطأ أيضاً علانية ، فلكى يصحح هذا الوضع ، أو لكى يغير هذا المفهوم الذى أشاعه وسط الناس عن تعاليمه بأنها خاطئة ومضللة ، يجب أن يكون الاعتراف أيضاً أمام الجميع . ولقد أعلن بأنه لن يصعد إلى المنبر إن لم يصحح هذا الخطأ علانية وفى يوم ٨ أبريل ١٥٤٦ أصدر مجلس المدينة حكمه على بطرس أمو بأن يطوف مدينة جنيف عارى الرأس يرتدى قميصاً بسيطاً وشعلة مشتعلة فى يده . وبعد أن ينتهى من طوافه فى المدينة يتوجه إلى المحكمة صارخاً بصوت عالٍ طالباً الرحمة والغفران.

كان هذا المشهد مشهداً محزناً مؤلماً . ولحسن الحظ أعلن البعض عدم موافقتهم على هذا الموقف الذى اتخذه كلفن لا بل ان احد الرعاة استطاع متجاسراً بأن ينتقد كلفن ، فعزله من منصبه حالا .

مما لاشك فيه بأن هذا الموقف لايتفق ، وروح المسيح الذى كان مثالاً فى بذل الذات والغفران غير المحدود . وإننا لا نتفق مع كلفن فى هذا التصرف . ولكن يجب أن لايغيب عن بالنا فى أثناء دراستنا لتعاليمه ولسلوكه وتصرفاته ، بأن هذا الرجل بدأ الخدمة فى مدينة كان يحكمها إما الأسقف صاحب السلطان المطلق فى الأمور الدينية والزمنية ، أو الأمراء الذين منحوا لأنفسهم حق الحكم فيها روحياً وسياسياً . وهنا يأتى دور المصلح ، أنه كان يعتبر نفسه المفسر الوحيد فى المدينة فإذا قام البعض أمثال بطرس أمو أو آخرون كما سنرى فيما بعد بحملة تشكيك فى تعاليمه وفى صحتها ، فإن كل البناء الذى قام بتشييده يسقط لامحالة . كان كلفن يعتبر أن أى هجوم على التعاليم التى ينادى بها يعرض شعب هذه المدينة إلى التعثر والارتداد . إن كل ما كان يخشاه

المصلح هو أن يشك الشعب فى تعاليمه وفى الإصلاح . إنه رأى فى هجوم بطرس أمو هجوماً على التعاليم الإنجيلية وخطراً عظيماً على مستقبل الإصلاح . فعندما طالب بهذا العقاب علانية أراد أن يعرف الشعب بأن أمو كان مخطئاً فى حكمه على تعاليمه التى كان ينادى بها ، ويدعو شعب المدينة إلى قبولها [١٢].

قضية عائلتي برين وفافر Les Perrin et les Favre

أظهر المصلحون شجاعة منقطعة النظير فى حياتهم . فعندما حاولوا تطبيق الدستور على شعب جنيف لم يستثنوا أحداً منه ؛ كان القانون مطبقاً على العائلات الصغيرة الغفيرة وعلى العائلات الغنية والكبيرة ذات اليد الطولى والكلمة القوية والسلطان النافذ المفعول ، وهذا ما حدث مع عائلتى برين وفافر . كان أمى برين Ami Perrin فى بداية الإصلاح ، رئيساً للحزب الذى يؤيد الإصلاح ، والذى كان يعمل ساعياً لعودة كلفن إلى جنيف عندما نفى منها . ولكن أمى برين وكذلك نسيبه فافر لم يوافقا على السلطان الذى كان يستعمله المجمع فى مراقبة العادات والحكم عليها ، لأن حياتهما كانت مشبوهة ، وطالبهما المجمع بالمثول أمامه ، لأنه رقص هو وزوجته فى حفل زفاف .

وعندما أصر المجمع بإلحاح على ضرورة حضور فرانسو فافر أمامه لتوبيخه ، فإن زوج ابنته أمى برين اعترض بشدة علانية [١٣] بأنه ليس من حق المجمع ولا فى مقدرته التدخل فى الأمور الشخصية والخاصة بالعادات . وبعد صراع طويل وقف مجلس المدينة بجانب كلفن وسجن فعلاً أمى برين عدة أيام . وبعد خروجه من السجن أرسل إلى الخارج فى مهمة دبلوماسية . ولكن بعد عودته من الخارج ترك الحزب الذى كان يؤيد المصلحين وانضم إلى حزب الأحرار المعارضين للمصلح *.

12- Harkness 32-35; Doumerque T.6. pp.8355; Benoit 108-112; A.Bassert. 138--141; Rilliet 150-155; Cadier Mythes 108.

13- Rilliet 150; Doumerque T.6.pp. 9 1SS; Benoit 110; A.Bassert 139-144; Cadier Mythes 109

* كان كلفن فى صراع عنيف ومرير مع هذا الحزب من سنة ١٥٤٥ — ١٥٥٥

قضية يعقوب جريه

لم تمض إلا عدة أيام على انتهاء قضية أمى برين ورحيله إلى الخارج ، حتى ظهرت فجأة ـــ قضية أخرى . ففى شهر يونيو ١٥٤٧ وجدوا فى منبر كنيسة القديس بطرس فى جنيف بعض المنشورات التى تحتوى على الشتائم والألفاظ التى لا تليق ضد المصلحين والإصلاح . وبعد البحث قبض على يعقوب جريه . وكان هذا الشخص معروفاً بأخلاقه السيئة وحياته غير النزيهة ، كما أنه كان من جماعة الأحرار ** . ولقد قام البوليس بالتفتيش فى بيته فعثروا على بعض الأوراق التى تحتوى على خطاب مرسل لملك فرنسا ملتمساً فيه أن يتدخل سريعاً لإعادة السلام إلى جنيف . كما أن البوليس وجد أيضاً طلباً إلى مجلس المدينة ضد المجمع . وحالاً قامت السلطات المدنية بالحكم على جريه بالاعدام ، بتهمة الخيانة ضد الوطن (١٤).

قضية جيروم بولسك : وعقيدة الاختيار السابق (Jerome Bolsec)

كانت معظم القضايا التى تعرضنا لها حتى الآن خليطاً من القضايا السياسية والدينية معا . ولكن قضية بولسك تعتبر من المشاكل العقيدية المهمة جداً ، لانه اعترض علانية على تعاليم كلفن فى موضوع الاختيار السابق . من هو بولسك ؟ ولد فى باريس ، وانخرط فى سلك الرهبنة الكرملية فى نفس المدينة على أنه لم يستمر طويلا فى الدير ؛ فقد خلع عنه ثياب الرهبان وتخصص فى دراسة العلوم الدينية والطب ، وحصل على درجة الدكتوراه فى العلوم الدينية .

ولقد قبل مذهب الإصلاح ، ولذلك فقد أضطر إلى الفرار فى حوالى سنة ١٥٤٥ إلى مدينة فرار فى إيطاليا عند الأميرة الفرنسية رنيه التى أظهرت عطفاً وتحمساً للمذهب الإنجيلى . وفى حوالى سنة ١٥٤٨ جاء إلى جنيف وسكن فى قرية بالقرب منها ، حيث كان يمارس مهنة الطب . تعود بولسك على

** جماعة الاحرار

Les Libertins كانت هذه الجماعة تدعى بالاحرار لأنهم كانوا ينادون بالحرية المطلقة فى التصرفات والحياة والسلوك ، ولايقبلون القوانين أو الدساتير بل قاوموها ، وهم من أعداء كلفن ولوائحه .

14- Doumerque T.6.120; Benoit 111-112; Bassert 143-148; Wendel 58-59; Rilliet 158-160

حضور اجتماع الخدام الذى كان يعقد كل يوم جمعة . ولقد خُصص هذا الإجتماع لدراسة الكتاب المقدس ومناقشة بعض المسائل العقيدية . ولقد أظهر بولسك فى عدة مناسبات (فى مارس وفى مايو ١٥٥١) عدم موافقته على تعاليم كلفن الخاصة بالاختيار السابق . ولذلك فقد اضطر جماعة الخدام لتوبيخه وتعنيفه . وفى يوم ١٦ أكتوبر من نفس السنة تحدث فى اجتماع الخدام محتجاً بشدة على عقيدة الاختيار السابق ، وخاصة الاختيار المزدوج * (Double Prédistination) . وأعلن أن كلفن بقبوله لهذه العقيدة والتعليم بها ينسب لله فعل الخطية ، باعتباره (الله) المسئول عن هلاك الهالكين . لأنه هو الذى سبق وعينهم للهلاك . وهذا الاختيار لا يتم بحسب الأعمال الصالحة أو الأعمال الشريرة التى يقوم بها الإنسان ، بل إن هذا الاختيار يتم حسب مسرة الله وإرادته ، أى أن تعاليم كلفن هذه تجعل من الله الهاً غير عادل وطاغية . ويواصل بولسك تعليقه قائلاً إن كلفن اعتقد أن القديس أغسطينوس واحد من الذين يؤمنون بتعليم الإختيار المزدوج ولكن القديس أغسطينوس وكل معلمى الكنيسة القديمة لم يتمسكوا بهذا التعليم . وبعد أن أنهى بولسك حديثه فى الاجتماع قام كلفن بالدفاع عن عقيدة الاختيار المزدوج ورجع إلى الكتاب المقدس (يو ٦:٤٤ ، ١٧:٦ ، ٢٩:١٠ ، رومية ٩ — ١١) [١٥] وإلى أقوال القديس أغسطينوس لكى يؤيد نظريته . كان كلفن منفعلاً جداً فى حديثه . ولقد استعمل أسلوبا شديد اللهجة ، وكلمات قاسية بل جارحة لبولسك . وكان حاضراً فى هذا الإجتماع واحد من المسئولين عن النظام والقضاء فى المدينة ، فأمر حالا بالقبض على بولسك وألقى فى السجن ، واستمرت القضية طويلاً . وكان النقاش بين المتهم وكلفن نقاشاً حاداً . وأخيراً تقرر بأن يرسل رعاة جنيف رسالة إلى الكنائس المصلحة الأخرى لكى تبدى رأيها فى هذه القضية . ويعتقد بعض المؤرخين بأن الخطاب الذى أرسله خدام جنيف إلى الكنائس المصلحة السويسرية ، أوحى بطريقة

* الاختيار السابق المزدوج بمعنى أن الله لم يسبق ويعين بعض الأفراد للحياة الأبدية فقط بل عين أيضاً البعض الآخر للهلاك الأبدى .

15- Wendel 60-64

غير مباشرة بعقاب الموت لبولسك ، على أن كلفن كان لايتفق معهم فى هذا الرأى [١٦].

كانت ردود كنائس بازل وزيورخ وبرن تطالب بالاعتدال وعدم استعمال الشدة والقسوة فى هذا الأمر . أما القس فارل راعى كنيسة نيوشاتل فكان الوحيد الذى استعمل أسلوباً شديد اللهجة فى حكمه على بولسك . وجاءت ردود الكنائس السويسرية ، ولم تكن فى صالح بولسك . وعندما اجتمع مجلس المدينة فى يوم ٢١ ديسمبر ١٥٥١ حكم عليه بالنفى المؤبد ، لأنه حكم بخطئه ، على أنه لم يعط كل الحق لكلفن . ومع ذلك فإنه أعلن أن كلفن هو المفسر الرسمى فى كنيسة جنيف . ولذلك عاد بولسك إلى الكنيسة الكاثوليكية .

وفى سنة ١٥٧٧ ألف كتاباً عن حياة كلفن ، وجمع فيه بعض القصص الكاذبة عن حياة المصلح ، والتى لا أساس لها تاريخياً . وللأسف ظل هذا الكتاب قرابة قرنين مرجعاً لكل الذين يريدون تشويه سمعة المصلح [١٧].

قدم كلفن فى اجتماع الخدام بعد حادثة بولسك شرحاً مفصلاً لتعاليمه عن عقيدة الاختيار السابق وطلب من خدام جنيف وضواحيها الموافقة عليها .

كان نفى بولسك من المدينة يعتبر انتصارا لكلفن ولأتباعه ، ولكن بالرغم من هذا الانتصار فقد كان سجنه (بولسك) فرصة أضعفت من نفوذ كلفن وأتباعه . فإن الفترة التى قضاها بولسك فى السجن أثارت عطف الكثيرين عليه . لا بل قوّت روح المقاومة ضد كلفن وأتباعه . وبدأ حزب المعارضة الاحتجاج من جديد على سلطان كلفن والمجمع . وهنا ظهر خصم آخر ومعارض لتعاليم المصلح الخاصة بالاختيار السابق وهو القس ترولية (Trolliet) الذى كان قد عزله كلفن من الخدمة . ولقد انتهز ترولية فرصة الصراع العقيدى وهو صديق لامى برين رئيس الحزب المعارض للإصلاح وقدم احتجاجاً على تعاليم كلفن فى موضوع اختيار الله السابق معلناً بأن هذه التعاليم

16- Doumerque Tom. 6 : 145 - 157
17- Doumerque Tom.6 : 142 - 160

تقود إلى استنتاج أن الخطية كانت ضرورية ولازمة ومصدرها الله . وكتب كلفن إلى مجلس المدينة ورؤسائه رسالة طويلة مفصلة عن تعاليم تروليه ، معلناً فيها بأن ضميره مستريح ومطمئن إلى كل ماعلم به ، وأن كل ماكتبه استلمه من الله وليس من اختراع بشرى . فعلى اذن أن أتمسك به اذا كنت لأأريد ان أكون خائناً للحق الإلهى (١٨).

إننا نتفق تماماً مع فندل بأن المشكلة الكبرى التى كانت تواجه كلفن فى صراعه هى مشكلة السلطة . فانه كان يعتقد فى نفسه بأنه هو المفسر الحقيقى للكتاب المقدس الذى به وعن طريقه يريد الله أن يهدم سلطان الكنيسة التى تطرفت فى استخدام هذا السلطان فى ذلك العصر . فاذا اهتز سلطانه كمفسر للكتاب انهار البناء الذى كان يقوم بإنشائه .

قضية برتيليه :

لقد سبق وأشرنا بأن أمى برين قد ترك الحزب الذى كان يؤيد الإصلاح وانضم إلى حزب الأحرار الذى كان يقاوم كلفن واللوائح والدساتير . ولقد فاز أيضاً هذا الحزب فى الانتخابات التى أجريت فى سنة ١٥٤٨ .

كان هذا الحزب فى صراع مستمر ضد الإصلاح ، ولم يأل جهداً فى محاربته علانية ، وخاصة بعد فوزه فى الانتخابات ووصوله للحكم فى سنة ١٥٤٥ . فلقد استخدم كل الوسائل لاستفزاز وإغاظة كلفن والمصلحين . فقد كان هناك حزبان يتصارعان على السلطة . الحزب المؤيد للإصلاح وكانت أغلبيته من اللاجئين الفرنسيين والإيطاليين ، والحزب الثانى هو حزب الأحرار وعلى رأسه أمى برين وأغلبية أعضائه من العائلات العريقة فى مدينة جنيف . وكان هذا الحزب ينظر إلى حزب الإصلاح وأتباعه وخاصة إلى الفرنسيين والإيطاليين بنوع من التحفظ ، لا بل نوع من الكراهية . وخاصة أن عدد اللاجئين إلى هذه المدينة كان يزداد كل يوم .

18- Wendel 63-64.

ولقد تطرف هذا الحزب فى موقفه العدائى ضد حزب الإصلاح . فقد نظم البعض أناشيداً تهكمية على اللاجئين وطالب بطرحهم فى نهر الرون . فى هذا الجو المعادى للمصلح وللإصلاح تقدم برتليه ، وهو من الحزب المعارض للإصلاح ، ومن أتباع الأحرار بطلب إلى مجلس المدينة يلتمس فيه بأن يسمح له بالاشتراك فى العشاء الربانى . كان برتيليه يهدف من هذا الطلب هدم وتحطيم سلطان كلفن وسلطان المجمع نهائياً ، وخاصة فى هذه الظروف .

واجتمع مجلس المدينة الذى كان أغلبية أعضائه المنافسين والرافضين للإصلاح ، وتحت رئاسة أمى برين العدو اللدود لكلفن .

ولقد قرر هذا المجلس بأن تترك الحرية الكاملة للسيد برتيليه للاشتراك أو عدم الاشتراك ، كما يوحى له ضميره . وليس للمجمع أى سلطان بأن يمنعه عن ذلك وتمسك بهذا القرار . كان القرار تحدياً صارخاً لسلطان الكنيسة ولسلطان كلفن . وعندما تقدم السيد برتيليه بطلبه هذا إلى مجلس المدينة لكى يحصل منه على قرار مدنى للاشتراك فى العشاء الربانى لم يتقدم بهذا الطلب عن رغبة صادقة للاشتراك فى المائدة ، بل لتجريد المجمع وكلفن من هذا السلطان . كان يريد أن يحطم كلفن ويحطم الإصلاح لأنه اعتقد ان قضية ميشيل سرفه وثورته على كلفن وتعاليمه سوف تؤثر على الموقف . وهنا وقف كلفن كعادته كصخر لا يلين ، لا بالماء ولا بالنار . فإنه لايقبل بأن مجلس المدينة يقرر فى الأمور الروحية التى لايفهم فيها شيئاً ، وأن هذا السلطان الخاص بقبول البعض على المائدة أو عزلهم عنها مخوَّل للرعاة والشيوخ فقط ، ليس لأعضاء مجلس المدينة . ولهذا السبب فقد أعلن بأنه يفضل الموت مثل القديس يوحنا فم الذهب على أن يطيع أوامراً لاتتفق مع مفهومه لممارسة العشاء الربانى . إن هذا التصرف إهانة للمائدة . وفى يوم الأحد أعدت المائدة ووعظ كلفن فى كنيسة القديس بطرس وأعلن من على المنبر أمام مجلس المدينة . الذى كان حاضراً فى الخدمة بأنه على استعداد تام بأن يتبع مثال القديس العظيم يوحنا فم الذهب ، أى الموت على أن يتراجع فى قراره .

كان وجهه شاحباً وظهرت عليه علامات التعب والإرهاق الجسدى والنفسى . نظر إلى الشعب أمامه نظرات ثاقبة ، فاحصة وخطيرة . وتقدم

المشتركون إلى المائدة ، وساد الصمت القاتل الممزوج بالخوف والاضطراب ولم يتقدم برتيليه . فلقد أشار عليه البعض من أعضاء مجلس المدينة بأن لايتقدم للإشتراك فلم يتقدم .

كان انتصار كلفن عظيما . ولكنه كان يعد نفسه للرحيل وترك المدينة ، ليس هربا من المسئولية ، بل منفيا من أهلها كما حدث ذلك فى سنة ١٥٣٨ . ففى نفس اليوم قال لهم فى عظة المساء ، ربما ستكون هذه آخر عظة له سيلقيها فى جنيف . ولكنها لم تكن آخر عظة . بل كان عليه أن يقوم بصراع آخر مرير وقاسى . لأنه وضع فى قلبه أن يخدم سيده .

قضية ميشيل سرفه :

عندما قدم السيد برتيليه طلباً إلى مجلس المدينة لكى يُسمح له بالاشتراك على المائدة كان يريد أن يهدم ليس فقط سلطان كلفن بل سلطان المجمع كله . وكانت كل الظروف السياسية التى تجتاز فيها المدينة فى هذه الفترة مواتية فى صالحه . فلقد اختار هذه الفرصة بالذات التى كان يحاكم فيها ميشيل سرفه ، كما أنه اختار أيضاً فرصة انتصار الحزب المعارض فى الانتخابات . فإن أمى برين عدو كلفن اللدود قد صار الرئيس الأول لمدينة جنيف . وكان يسعى بكل الوسائل لتجريد كلفن والمجمع من كل سلطان ، وكان النزاع فى هذا المجال مريراً ومؤلماً .

وبالرغم من كل هذه الظروف المعادية ، استطاع كلفن أن يقف وقفة البطل فى قضية برتيليه . لأنه كان يؤمن بأن هذا التحدى ليس ضده فقط بل ضد سيد العشاء الربانى ، الذى يريد برتيليه الاشتراك فيه . وكان يعتقد بأن تقدم هذا الرجل المدفوع بدوافع سياسية « خسيسة » إهانة لله وللمائدة . ولهذا السبب لم يتزحزح عن موقفه ولاقيد أنملة ، بالرغم من الكابوس القاسى المؤلم الذى كان جاسماً على صدره فى نفس الوقت ، وهو قضية ميشيل سرفه .

ميشيل سرفه : (Michel Servet)

كانت هذه القضية وما زالت حتى الآن عثرة لكثيرين فى حياة الرجل

المصلح العظيم يوحنا (جون) كلفن . ولكى نفهم القضية بطريقة صحيحة يجب أن ندرس الظروف التى حدثت فيها :

من هو ميشيل سرفه ؟ (Michel Servet)

ولد فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٥١١ فى مدينة تودلا فى منطقة أراكون فى أسبانيا . كان أبوه كاتباً شرعياً وهو أسبانى ، أما أمه فكانت من أصل فرنسى . ولانعرف شيئاً مطلقاً عن طفولته ، ونعرف القليل جداً عن شبابه ، ففى سن السادسة عشرة ، كان يعمل كخادم لأحد الكهنة الذين كانوا يصطحبون جيش الامبراطور شارل الخامس [١٩]. وقد اتاحت له هذه الفرصة أن يزور إيطاليا وألمانيا وهناك تعرف على بعض المصلحين ، لا بل يحتمل بأنه تقابل مع بعضهم ، مثل بوسر ، وناقش معهم أموراً عقيدية كثيرة . وبعد رجوعه من هذه المهمة بدأ فى دراسة القانون فى مدينة تولوز . وعلى ما يبدو أنه بدأ فى نفس الفترة فى دراسة الكتاب المقدس وأحبه [٢٠]. كما أنه كان يدرس فى ذلك الوقت العلوم الدينية (اللاهوت) ؛ فدرس اللغة اليونانية والعبرية ، على أنه ترك دراسة العلوم الدينية جزئيا وتخصص فى دراسة الطب فى باريس ؛ وقد قام باكتشاف أُعتبر فى وقته من الإكتشافات الطبية العظيمة ، وهو مرور الدم فى الرئتين ، وكتب بحثاً عن هذا الإكتشاف ، ونشره ٥ مرات فى بحر ١١ سنة [٢١] . كان سرفه — بالرغم من صغر سنه — متبحراً فى العلوم والدراسة ، فقد درس الفلك والفلسفة ، وأحب الجغرافيا ، كما أنه اهتم أيضاً بالاطلاع على التلمود . لا بل أنه درس شيئاً عن التنجيم والسحر ، وناقش هذا الموضوع مع بعض علماء جامعة السربون ، الأمر الذى كان وحده كفيلاً بأن يقوده للحرق ، لأن السحر كان ممنوعاً .

وعندما بلغ العشرين من عمره نشر كتابه الأول بعنوان « ضلال عقيدة الثالوث » [٢٢]. نشر فى سنة ١٥٣١ فى مدينة ستراسبورج . ولقد أثار

19- Wendel. 64-65; Cadier Mythes. 112-113; Choisy 145

20- J. Benoit 115-118

21- Choisy 146

22- Benoit. 116. Cadier 110-112

هذا الكتاب غضب الكاثوليك والبروتستانت معاً . ومع أنه كان طبيباً فقد صرح بأن الأطباء جهلة ، لأن مرضاً كمرض الطاعون لم يتوصلوا إلى علاجه . فقدمت شكوى ضده ، فاضطر إلى التراجع عن هذا التصريح .

وعلى ما يبدو أنه لم يكن على وفاق مع والديه فتخليا عنه ، ووجد نفسه بدون أى مصدر مالى يقتات منه . ولذلك فقد انطلق إلى مدينة ليون وعمل هناك فى مطبعة . وبعد ذلك ذهب إلى مدينة فين القريبة من مدينة ليون ، وعين طبيباً خاصاً لرئيس الأساقفة هناك ، وكان قد بلغ السادسة والثلاثين من عمره . كان ميشيل سرفه شغوفاً بالكتاب المقدس فانصب على دراسته ، لا بل بدأ فى ترجمة العهد الجديد إلى الفرنسية . ولقد سمع عن كلفن وكتب له عدة رسائل ، محاولاً أن يقنعه بأفكاره وتعاليمه . ونحن نعلم بأنه قد سبق وأعطى له ميعادا لمقابلته فى باريس ولكنه لم يحضر لمقابلته . لم يقتنع كلفن بتعاليم ميشيل سرفه بل وصفها بأنها تعاليم شيطانية . ونأسف لجملة قد كتبها كلفن إلى زميله فى الخدمة فارل بخصوص سرفه بعد أن اطلع على تعاليمه ، فقال فى خطابه المؤرخ ١٣ فبراير ١٥٤٦ : «إذا حضر سرفه إلى جنيف لن أسمح بأن يخرج منها حياً» (٢٣) .

ما هى تعاليم ميشيل سرفه ؟

لقد نشر ميشيل سرفه كتابا سنة ١٥٥٣ بعنوان (La Restitution du Christianisme) يعنى تصحيح أو إصلاح المسيحية أو إرجاع المسيحية إلى أصلها . وفى استخدامه هذا العنوان الذى يكشف عن كبريائه أراد أن يهاجم كتاب كلفن الذى يدعى (LÍnstitution de la Religion Chretienne) « أسس الديانة المسيحية » ، وأن يحل هذا الكتاب محل كتابه . ولقد ادعى بكتابة هذا الكتاب أنه سوف ينقى المسيحية من خزعبلاتها ، ومن الأخطاء الموجودة فيها . وأنه سوف يرجعها إلى أصولها الأولى . ولقد نُشر هذا الكتاب بطريقة سرية وبدون اسم المؤلف ، ولايوجد إلا ثلاثة حروف الأولى من اسمه وهى MSV (deVilleneuve) . ولا يوجد حالياً من هذا الكتاب إلا ثلاث نسخ :

23- Benoit. 115-117. Cadier 102-114

واحدة فى النمسا ونسخة أخرى فى باريس والنسخة الثالثة فى ابدينورج .

لقد تناول سرفه فى كتابه هذا مواضيع كثيرة ومختلفة . فقد قدم بحثاً طبياً عن دورة الدم فى الرئتين أو مرور الدم فى الرئتين ، وهو الاكتشاف العلمى الذى قام به . ولكن ما يهمنا هنا هو تعاليمه الدينية . كانت تعاليمه مزيجاً من الوثنية واليهودية والمسيحية . كان يعتقد بأن كل شيء موجود هو جزء من الله والطبيعة هى روحه : الله موجود فى كل الأشياء فحتى الشيطان نفسه هو جوهر الله [٢٤]. أما الكلمة فهو الفعل السامى المثالى ، هو الفكرة الأولى : هو أيضاً الفكر الذى يفهم كل شيء وهو جوهر كل شى أيضاً .

ولقد خرجت الخليقة (أو الخلائق) من الأصل الإلهى ولكن أقل درجة من اللاهوت [٢٥]. كما أنه دعى المسيح كلمة الله الذى صار جسداً ، لابل يمكن أن نصلى له . وأن جسده من جوهر إلهى . ويمكننا أيضاً أن نعطى لقب أم الله لمريم [٢٦].

كان سرفه لا يؤمن بأزلية الابن . وكاديه يقول إنه هاجم لاهوت المسيح [٢٧]. وأما بنو (Benoit) فيؤكد بأن سرفه علّم بأن يسوع ليس هو الأقنوم الثانى والإبن الأزلى كما تعلم بذلك المسيحية : إن يسوع لم يبدأ وجوده إلا بعد الميلاد المعجزى ، وأن وجوده قبل الميلاد لم يكن إلا فى فكر الله [٢٨].. وهنا يتفق ميشيل سرفه مع أريوس الذى علّم قبله بأنه يوجد وقت مالم يكن الابن موجوداً فيه [٢٩]. فهو ينكر إذاً أزلية الابن ومساواته للآب فى أزليته [٣٠]. كما يعتقد بأن الله بسيط . خلق الكون وهو مصدر كل الأشياء ، والابن هو أيضاً جوهر إلهى وليس من نفس جوهر الآب ، ولم يوجد بطريقة فعلية إلا بعد التجسد . كما أنه رفض بشدة عقيدة الثالوث ،

24- Cadier Mythes. 114-115
25- Wendel. 64-66
26- Choisy. 149-151
27- Cadier Mythes. 114-116
28- Benoit. 116-120
29- Bassert. 152-156

٣٠ ــ د.حنا جرجس الخضرى. تاريخ الفكر المسيحى المجلد الأول ص ٦١٨ ــ ٦٢١

وتهكم على هذا التعليم ، ويعتقد بأنه عثرة لليهود ولآخرين أيضاً .

ولقد تعرض فى هذا الكتاب لمشكلة الخطية الأصلية . فهو يعتقد بأنه لا وجود للخطية الأصلية ، كما أن الخطية الفعلية لاتحسب على الإنسان إلا بعد أن يبلغ العشرين من عمره ، وهو السن الذى فيه يستطيع الإنسان أن يميز بطريقة واعية بين الخير والشر ، وأن يختار لنفسه ما هو أفضل . فكل الخطايا التى يرتكبها الشباب قبل العشرين من عمره لاتحسب عليه . ولمحو هذه الخطايا التى ترتكب بعد سن العشرين يجب على الخاطىء أن يتوب عنها ثم يقبل المعمودية لمغفرة هذه الخطايا . ومن هنا نبر على ممارسة المعمودية بعد سن العشرين . وفى حديثه عن مشكلة المعمودية ، يقول إن عماد الأطفال هو اختراع شيطانى .

ويمكننا أن نلخص تعليمه فى الآتى : ـــ رفض أزلية الابن ولاهوته ، رفض عقيدة الثالوث ، رفض الخطية الأصلية وعماد الأطفال . ومن هنا نلاحظ أن سرفه رفض التعاليم التى تمسكت بها الكنيسة الكاثوليكية وكنائس الإصلاح أيضاً . وبالرغم من ذلك فقد شهد الكثيرون بتقواه . وصلت نسخة من كتابه إلى كلفن . وعندما اطلع على محتوياته ورأى الحروف الاولى (MSV) عرف من هو الكاتب ، خاصة أن سرفه قد سبق وكتب عدة رسائل إلى كلفن يشرح فيها أفكاره وتعاليمه عن العماد ولاهوت المسيح والثالوث محاولاً أن يقنع المصلح بتعاليمه .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن : ما هو الدور الذى قام به المصلح فى محاكمة سرفه ، وخاصة بأن كتابه الذى احتوى على تعاليمه لا يحمل اسمه ؟

فعلى ما يبدو بأن سرفه أرسل بعض النسخ من كتابه ليس إلى كلفن وحده بل إلى بعض الشخصيات المعروفة فى جنيف . وكان يوجد فى جنيف لاجئاً فرنسياً يدعى « جيوم دى ترى » (Guillaume de Trie) . ولقد قبل هذا الرجل مذهب الإصلاح ، مما أثار بعض المشاكل بينه وبين بعض أقاربه الذين كانوا يسكنون فى مدينة ليون بالقرب من مدينة فين التى كان يعمل فيها سرفه كطبيب خاص لرئيس الأساقفة . فعندما قبل جيوم دى ترى الإصلاح ، غضب أقاربه فى ليون ، وعندئذٍ كتب له أحدهم خطاباً وهو كاثوليكى

متعصب ، واصفاً الإصلاح بالهرطقة والفوضى وعدم النظام . وعندما استلم جيوم دى ترى هذا الخطاب غضب جداً . وبما أنه سمع مرات كثيرة من صديقه كلفن عن سرفه وعن تعاليمه المضلة ، كتب هو أيضاً بدوره ـــ وبحماسة ـــ خطاباً إلى قريبه فى ليون يدافع فيه عن الإصلاح ، ثم قال متسائلاً ما معناه . من هو الهرطوقى : هل الهرطوقى هو الكنيسة التى تنادى بالانجيل ، أم الكنيسة التى تهمل الانجيل فى تعاليمها . أليس الهرطوقى هو الشخص الذى ينادى بتعاليم خاطئة مضلة ويعيش حالياً حراً طليقاً ؟

أليس فى مدينة فين بالقرب منكم يعيش الهرطوقى الحقيقى ميشيل سرفه ، وهو الطبيب الخاص لرئيس الأساقفة ؟ وعند وصول هذا الخطاب إلى ليون بدأ أهل جيوم دى ترى البحث عن هذا الطبيب وقبض عليه وقدم للمحاكمة . ولكنه أنكر أنه هو الكاتب للكتاب « إرجاع المسيحية إلى أصلها » . وبما أنه لايوجد أى برهان واضح قانونى ضده ، أطلق سراحه . وعندئذ كتب أقارب جيوم دى ترى خطاباً شديد اللهجة إلى قريبهم فى جنيف شارحين له كيف أن موقفهم كان حرجاً ، لا بل ان هذا ادعاء كاذب ضد هذا الطبيب . وأمام هذا الموقف الحرج فعلاً عرض جيوم دى ترى الأمر على كلفن ، وتوسل إليه كثيراً جداً أن يسلم له الخطابات التى كتبها ميشيل سرفه بخط يده حتى يستطيع أن يرسلها إلى أقاربه الذين يتهمونه بالكذب والافتراء . تردد كلفن وقتاً طويلاً فى تسليم هذه الخطابات إلى صديقه وأخيراً قبل : لأن الخطابات التى أرسلها إليه ميشيل سرفه لم تكن سرية ، لأنه نشرها كلها فى كتابه ، فسلم له الخطابات المكتوبة بيد الطبيب الأسبانى ، فأرسلها حالاً دى ترى إلى أقاربه . فقبض على ميشيل سرفه فى يوم ٤ ابريل ١٥٥٣ ولكنه استطاع الهروب فحكمت عليه المحكمة الكاثوليكية غيابياً بالموت حرقاً [٣١].

القبض عليه ومحاكمته فى جنيف :

والسؤال الذى يجب أن نسأله هنا لماذا اختار ميشيل سرفه مدينة جنيف لكى يهرب إليها بعد أن حكم عليه بالموت حرقاً فى مدينة فين ؟

31- Choisy 150-156; Wendel 64-66;
Benoit 160-120; Cadier Mxt. 119-120

هل كان يأمل بأن الإصلاح يطلق سراحه ؟ أم كان يعتقد بأن كلفن لا يجسر على محاكمته أو على مقاومة تعاليمه ؟ إن الذى يدرس الخطابات التى أرسلها ميشيل سرفه إلى كلفن ، يدرك ـــ من أول وهلة ـــ عداء الرجل للمصلح الفرنسي. فقد كتب له فى إحدى خطاباته يقول « ....أنت لاتفهم شيئاً .... من هو الشيطان الذى علمك ؟ إنك لم تولد بعد من فوق ، انت شرير ومجدف .... [٣٢].

وحتى فى أثناء المحاكمة طالب بطرد كلفن من جنيف ، والإستيلاء على أملاكه وإعطائها له تعويضاً عن الخسائر التى لحقت به .

وهنا نطرح من جديد هذا السؤال لماذا إذن جاء إلى جنيف ؟ إن ميشيل سرفه جاء إلى جنيف لا لكى يجد فيها ملجأ فقط ويهرب من حكم الموت الذى صدر ضده من الكنيسة الكاثوليكية ، بل جاء أيضاً لكى يحارب كلفن ويهدم سلطانه فى مدينة جنيف . فمنذ سنة ١٥٤٥ إلى سنة ١٥٥٦ كان الصراع عنيفاً ومريراً بين الحزب المعارض والأحرار من ناحية ، وبين المجمع من ناحية أخرى . وجاءت انتخابات سنة ١٥٥٣ تحمل انتصاراً عظيماً للحزب المعارض للإصلاح وخاصة بأن أمى برين العدو اللدود لكلفن أصبح رئيس رؤساء الحزب المعارض لكلفن . فإن سلطة قيادة المدينة أصبحت الآن فى يد الحزب المعارض الذى كان على رأسه أمى برين عدو كلفن . هنا نجد الجواب ، لماذا هرب ميشيل سرفه إلى جنيف مدينة كلفن ؟ ذلك لأنه كان يعتقد بأن الحزب المعارض سوف يقف بجانبه . ربما اعتقد فى نفسه بأنه سيكون الآلة التى سوف يستخدمها هذا الحزب لكشف ضلال تعاليم كلفن ولطرده من المدينة وتحطيمه تحطيماً نهائياً . ولهذا السبب عينه لم يأت إلى هذه المدينة خفية كعادة المطاردين والمحكوم عليهم بالإعدام حرقاً [٣٣]. بل دخل فى يوم ١٣ أغسطس ١٥٥٣ كنيسة المجدلية وحضر الخدمة فيها * على مسمع ومرأى من الجميع يعتقد البعض بأن كلفن كان حاضراً فى خدمة يوم ١٣/٨/١٥٥٣ وهو

33- Benoit 120-125

* والبعض الآخر يعتقد بأن ميشيل سرفه جاء إلى جنيف وكان منطلقاً إلى مدينة نابل ، ولم يكن ينوى البقاء فى جنيف Wendel 66 ولكننا نرفض هذا الرأى .

الذى طلب من أحد الحكام القبض على سرفه [٣٤] ، على أن البعض الآخر يعتقد أن كلفن عرف بوصول سرفه إلى جنيف وقدم طلباً بالقبض عليه . على أى حال ، فإن الذى قدم الطلب هو نيقولا دى لافوتيى ، وهو سكرتير كلفن ، وكان مكتوباً بخط المصلح . وجدير بالذكر أن القانون كان يطالب بأن يسجن المتهَم والمتهِم ، وكان المتهِم يتحمل نفس عقاب المتَهم فى حالة براءة الأخير . ولذلك فقد سجن كل من ميشيل سرفه وسكرتير كلفن . على أن سكرتير كلفن خرج من السجن بعد عدة أيام ، بعد دفع كفالة مالية [٣٥].

بدأت القضية يوم ١٥ أغسطس ١٥٥٣ . ولقد طالب سرفه مناقشة عامة مفتوحة بينه وبين كلفن ، أمام شعب المدينة . قبل كلفن هذا الطلب ، ولكن مجلس المدينة لم يوافق على ذلك لسببين

١ ـــ لم يرد مجلس المدينة لكلفن فرصة أخرى للانتصار أمام شعب جنيف.

٢ ـــ لم يرد بأن يتدخل الشعب فى الإستيلاء على سلطة الحكم التى ليست هى من حقه . على أنه (مجلس المدينة) وافق على حضور كلفن أثناء إستجواب ميشيل سرفه [٣٦].

ولقد حاول كلفن بصراحة وأخلاص قيادة ميشيل سرفه إلى طريق الحق وإقناعه بأخطائه حتى يهرب من الموت ، الأمر الذى أدهش القضاة . ولكن ميشيل سرفه كان عنيداً فى تصرفاته متمسكاً باعتقاداته ، متعجرفاً فى كلامه ، مستهزئاً بالمصلح وتعاليمه . لا بل حاول من أول مقابلة مع كلفن أن يهاجم بسخرية واحتقار المصلح وتعاليمه ، وكان على استعداد بأن يظهر ضلاله . ويقول بنوا (Benoit)مامعناه أن سرفه الذى رأيناه فى محكمة فين ، يختلف تماماً عن سرفه الذى كان فى محكمة جنيف . فإن الأول كان يسعى جاهداً لإنقاذ جسده من الحريق وعلى استعداد أن يسحب تعاليمه لكى ينقذ حياته من الموت ، بينما الثانى كان يهاجم ويتحدى كلفن وتعاليمه [٣٧]. ولقد أرسلت محكمة فين حارساً إلى مدينة جنيف لكى يقتاد سرفه للمحاكمة هناك . وعندما عرض القضاة على ميشيل سرفه هذا الأمر ، توسل إليهم بأن يسمحوا له بأن يحاكم فى جنيف.

34- Choisy 153-155
35- Wendel 65-67
36- Choisy 153-157
37- Benoit 121-125

على أى حال لم يكن فى نية قضاة جنيف ترك ميشيل سرفه أن يحاكم خارج جنيف ، لكى يظهروا للمدن الأخرى بأن مجلسها قادر أيضاً على محاكمة الهراطقة .

كانت قضية سرفه قضية معقدة ، وجاءت فى ظروف صعبة معقدة أيضاً . ولقد سبق وأشرنا إلى النزاع القائم بين سلطة المجمع وسلطة مجلس المدينة . وكيف حاول بعض منافسى كلفن استغلال هذه الفرصة لكى يطوحوا به وبسلطانه إلى الأبد . فبرتيليه مثلاً ــ استغل فرصة وصول الحزب المعارض إلى الحكم ، ثم فرصة قضية ميشيل سرفه ليتقدم إلى مجلس المدينة ــ وليس إلى المجمع ــ لكى يسمح له بالإشتراك . وبالرغم من هذا كله ، يقف كلفن كالصخر الصلب الذى لا يتزحزح من لطمة الأمواج ، ويرفض قبول هذا الرجل على المائدة ، لأنه كان يعتقد بأن هذا الأمر يدنس المائدة . كان شعاره دائماً مجد الله ، مهما كلفه الأمر . وهنا يحاول ميشيل سرفه ــ بدوره ــ استغلال وصول الحزب المعارض لكلفن إلى الحكم ، فيقوم بهجوم عنيف على كلفن وعلى تعاليمه . ولهذا السبب فقد قدم طلباً إلى مجلس المدينة فى يوم ٢٢ سبتمبر متهماً كلفن بالهرطقة والمطالبة بطرده من المدينة والاستيلاء على أملاكه وإعطائها له (لسرفه) تعويضاً عن الخسائر التى لحقت به بسببه [٣٨] ، واتهمه أيضاً بالسحر .

لقد تطرف فعلاً سرفه فى تصرفاته ، وفى هجومه على كلفن وعلى تعاليمه ، وكان يعقد امالاً كباراً على مساعدة الحزب المعارض للمصلح ، ولكن عجرفة هذا الرجل أبعدت الكثيرين عنه ، حتى الذين كانوا يقاومون كلفن ، ورأوا فيه خطراً عظيماً يهدد المسيحية وتعاليمها ، وخاصة عندما رفض عقيدة الثالوث ، ورفض أزلية الابن وعدم عماد الأطفال . ان الذين كانوا يقومون بالحكم فى هذه القضية هم : المحكمة والمدينة وقضاة مدنيون وليس كلفن نفسه . كانت القضية معقدة . إن مجلس المدينة كان معادياً لكلفن ولايريد انتصاره ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يعتبر نفسه الحارس للإيمان المسيحى والمدافع عنه . وبهذا فقد أراد مجلس المدينة أن يقدم للعالم الكاثوليكى

38- F. Wendel 65-67; Cadier Mythes 120-125

برهاناً ملموساً بأنه لا يتهاون مع الهرطقات ولا مع الهراطقة . وأمام هذا الأمر الصعب اضطر مجلس المدينة أن يكتب فى يوم ١٩ سبتمبر ١٥٥٣ رسالة إلى الكنائس المصلحة الأخرى فى برن وبازل وزيورخ وشافهوس (Schaffhouse) طالباً آراءهم واقتراحاتهم فى هذه القضية . وبينما كان مجلس المدينة فى انتظار ردود الكنائس ، واصل كلفن نقاشه مع سرفه . وفى منتصف شهر اكتوبر وصلت ردود الكنائس المصلحة ، وقد اتفقت كلها على معاقبة الرجل . على أن بعض الكنائس ترك نوع العقاب إلى محكمة جنيف ، والبعض الآخر أظهر روح الثورة والغضب على سرفه . فإن مجلس مدينة برن الذى لم يكن متعاطفاً مع كلفن ، قال فى رده بأنه لو كان سرفه بين أيديهم لحكموا عليه بالحرق بالنار [٣٩]. بالرغم من المحاولات التى قام بها برين فقد أجمع مجلس المدينة فى يوم ١٥٥٣/١٠/٢٦ وأصدر حكمه على ميشيل سرفه بالحرق حياً . وفى نفس اليوم كتب إلى فارل قائلاً « لقد حكم عليه بالإجماع ، وغداً سوف يقاد إلى العقاب . لقد حاولنا تغيير طريقة الموت ولكننا لم نفلح » . عندما علم كلفن والخدام الآخرون بهذا الحكم الوحشى ، تدخلوا سريعاً لدى مجلس المدينة لكى يغيروا هذا الحكم بالحرق حياً الذى اعتبروه مجرداً من «الإنسانية» بالحكم بالإعدام بالسيف ، ولكن مجهوداتهم وتدخلهم لدى السلطة المدنية كان بلا جدوى . ولما عرف ميشيل سرفه بهذا الخبر ، لم تخب آماله فقط فى الحزب المعارض ، بل انتابته نوبة عصبية وكان يصرخ بالأسبانية قائلاً: (Misericordia). كان فارل بجانبه عندما أعلنوا له هذا الخبر . وحالاً طلب سرفه بأن يتقابل مع كلفن . وعندما رآه طلب منه المغفرة ، فقال له كلفن يجب أن تطلب بالحرى المغفرة من الله الذى جدفت عليه ، بعدم اعترافك بالأقانيم الموجودة فى جوهره «أطلب الغفران من ابن الله الذى أنكرته كمخلص . وبالرغم من ذلك كله فقد ظل سرفه متمسكاً بأفكاره وتعاليمه .

لقد أصدر مجلس المدينة حكمه بحرق سرفه إلى أن يصير جسده رماداً ، وان

39- Choisy. 157-160; Cadier Mythes 120-125; Wendel 64-70

تحرق كتبه أيضاً . ففى يوم ٢٧ أكتوبر١٥٥٣ الساعة الحادية عشر صباحاً قِيد سرفه إلى مقر مجلس المدينة لكى يسمع قراءة الحكم الذى صدر ضده . وبعد قراءة الحكم ، لم يرجع عن معتقداته ، فقادوه فى تطواف صغير ، لم تكن المدينة معتادة على مشاهدته ، وكان يصطحبه فارل على طول الطريق ، إلى أن وصل شميل (Champel) ، المكان الذى نفذ فيه حكم الحرق . وصلى فارل ، ثم تقدم الجلاد ووضع على رأس ضحيته تاجاً مطلياً بالكبريت وحامض الكبريت ، والغرض منه لكى يختنق ويموت سريعاً . ثم وضع سلاسل فى يديه ورجليه وربط شفتيه وأشعل النار أمام عينيه . وبينما كانت تشتعل النيران فى جسده صرخ مصلياً ، أيها السيد الرب يسوع ابن الله الأزلى * ارحم روحى ، وهكذا أسلم الروح .

إن مجلس مدينة جنيف وقضاتها أصدروا حكماً بالموت حرقاً على الطبيب العالم الأسبانى ، ونفذ فعلاً هذا الحكم فيه حرفياً . وهنا بعد موته ارتفعت الأصوات وامتلأت الصحف بالمقالات : البعض يصفق مهنئاً المصلح ومجلس المدينة والقضاة على غيرتهم المسيحية وعلى أرثوذكسيتهم التى لاتمس ولاعيب فيها ، والبعض الآخر ثار غاضباً ، وكتب منتقداً المصلح والإصلاح ومدينة جنيف وقضاتها على هذا العمل الشنيع ، الذى تقشعر منه الأبدان ، وأن المسيحية والإنسانية بريئتان من هذا العمل البربرى الوحشى . على أن الكثيرين أو الاغلبية الساحقة التزمت الصمت واكتفت بوضع علامة استفهام أمام هذه القضية والبعض الآخر لم يفكر قط فيما إذا كان هذا الحكم خاطئاً أو صحيحاً .

وهنا أود أن نقف هنيهة قصيرة لدرس بعض ردود الفعل بالنسبة لهذه القضية :

أولاً المعارضون بعد أن أحرق هذا الرجل تعالت الأصوات وكثرت المقالات وتعددت الانتقادات اللاذعة لهذا الحكم المجرد من الإنسانية والمسيحية . ولكن

---

* يعتقد البعض بأن سرفه عندما قال فى صلاته يسوع ابن الله الازلى ، فانه قصد بأن الله هو الأزلى وليس يسوع.

للأسف الشديد ظهرت هذه الاحتجاجات متأخرة بعد أن صار سرفه رماداً . ومن هذه الاحتجاجات التى ظهرت ضد هذا الحكم البشع اعتراض القس بيلنجر (Bullinger) . فعندما عرف هذا الخبر أظهر قلقه العميق جداً إزاء هذا الحكم القاسى . وعلى مايبدو ، أنه عرَّف كلفن بأنه لايتفق معه فى هذا الأمر . ولذلك فقد كتب له المصلح خطاباً بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٥٥٣ ، لكى يشرح له فيه موقفه من هذه القضية ، وأنه ينوى أن يكتب كتاباً عنها ، وسوف نتعرض لهذا الكتيب فيما بعد . كان اعتراض القس بيلنجر اعترضاً رقيقاً ، ولكنه لايخلو من اللوم والانتقاد .

أما القاضى نيقولا زوركيندن (Nicolas Zurkinden) من برن ، فقد اعترض بشدة على هذا الحكم القاسى . وكان هذا القاضى من أتباع الإصلاح المتحمسين له ، ومن المؤيدين لكلفن وتعاليمه . ولكنه أعلن بأنه لايقبل بأى حال من الأحوال استعمال العنف والقسوة والسيف لمنع الهرطقة والهراطقة .

اما كاستيليو الذى لم يقبله كلفن كراع ، لأنه كان لايؤمن بوحى نشيد الأنشاد ، كما أنه كان يقبل حرفياً عقيدة نزول المسيح إلى الجحيم ، فقد كتب كتابين ضد هذه القضية . ففى كتابه الأول الذى نشره فى بازل حيث كان مقيماً ، شرح مفهومه لموقف المسيحية من الهراطقة ، مبيناً فيه أن استخدام السيف واستعمال القوة لردع الهراطقة ، لا يتفق قط مع روح المسيحية المتسامحة .

أما فى كتابه الثانى فقد قام بهجوم مفتوح وعنيف ضد كلفن . كما أنه تناول كتب كلفن بالتحليل النقدى اللاذع محللاً ومنتقداً كل جملة فى هذا المنشور . ولقد تميز أسلوب كاستيليو فى هذا الكتاب ، بالأسلوب الهزلى والنقد القاسى لكلفن . فهو يقول إن قتل إنسان من أجل التعليم لا يعتبر دفاعاً عن التعليم وتقدمه بل هو قتل إنسان ، فعندما قتلوا ميشيل سرفه لم يدافعوا عن التعليم بل قتلوا انساناً [٤٠].

ولقد ظهر بحث عقيدى آخر كتبه مارتن بيللى (Martin Bellie) يدافع فيه

ـــ كتب كلفن كتيباً يبرز فيه موقفه فى قضية سرفه ، سنراه فيما بعد

40- J.Rilliet. 209-212

عن موت ميشيل سرفه ويهاجم بكل قوة الطريقة الوحشية والبربرية التى استخدمها وتستخدمها الكنيسة فى الحكم على « الهراطقة » . وأمام كلمة هراطقة يتساءل الكاتب من هو المخوَّل والمؤهَّل مائة فى المائة ليحكم على أن هذا هرطوق وذاك أرثوذكسى ؟ ما هو موقف ورد فعل الذين لايعرفون ولايسمعون عن المسيح إلا اسمه ، عندما يرون أن المسيحيين يشعلون النار فى أجساد المسيحيين الذين يخالفونهم فى الرأى ؟ ويواصل الكاتب تساؤلاته باقتباس بعض النصوص من كتب كلفن نفسه ، التى تنادى بعدم استعمال العنف لإرجاع الضالين . كان لهذا الكتاب تأثير عميق جداً على الجماهير (٤١) . و يعوزنا الوقت لو حاولنا أن نسرد كل الاحتجاجات التى قدمها النقاد والمؤرخون معاً ، معارضين أو مؤيدين مغـرضين ام مخلصين . بالرغم من هذه الاحتجاجات فقد ظهرت بعض الاصوات المؤيدة لهذا الحكم .

المؤيدون : كان ثيودور دى بز الصديق الحميم لكلفن ، والذى سوف يخلفه فى رئاسة الأكاديمية والكنيسة ، الذى وصل إلى جنيف واستقر فيها منذ ١٥٤٥ من مؤيدى حكم الموت على ميشيل سرفه .

ولقد حاول أن يشرح موقفه من هذه القضية بمقارنة حالة سرفه بعضو فى الجسد قد أصيب بالغرغرينة . فإن لم يقطع لسمم الجسد كله ... أو بالذئب الذى يريد أن يفترس الخراف الوديعة ... فان لم يقتل لقتل ...(٤٢) .

إن ملانكتون نفسه الرجل اللطيف الوديع والذى أُختير لدبلوماسيته ولطفه ، للمناقشات المسكونية مع الكاثوليك ، كتب إلى كلفن فى خطابه المؤرخ بتاريخ ١٤ اكتوبر ١٥٥٤ يقول : « لقد اطلعت على كتابك الذى ترفض فيه تجديفات سرفه الكريهة ، وإننى أقدم الحمد لابن الله الذى كان « الحكم » فى معركتك . والكنيسة مدينة وستظل مدينة لك لأجل هذا الفضل . وإننى متفق معك فى هذا الحكم ، كما أشهد أيضاً بأن الحاكم و (القاضى) تصرف بعدل فى حكمه بالموت على هذا المجدف بعد محاكمة

41- J.Rilliet 200-215
42- F. Choisy. 162-165

رسمية [٤٣] .

وصل إلى كلفن وإلى أعضاء مجلس المدينة وقضاتها ، عدد كبير من الرسائل التى تؤيد حكمهم وتهنئهم على غيرتهم وأرثوذكسيتهم وتمسكهم بالإيمان الصحيح ومقاومة كل هرطقة وبدعة جديدة .

كانت الأصوات المتفقة والمعارضة لهذه القضية كثيرة ومختلفة ومتنوعة . ولأجل هذا السبب كتب كلفن وخاصة للرد على المعارضين للحكم بالموت على ميشيل سرفه كتيباً ظهر باللاتينية فى بداية شهر فبراير سنة ١٥٥٤ ، وظهرت الترجمة الفرنسية فى نهاية الشهر نفسه ، بعنوان طويل مغزاه «الدفاع عن الايمان الارثوذكسى القديم» .

إن يوحنا كلفن كتب هذا الكتاب بعد أن سمع الانتقادات اللاذعة القاسية ، فحاول أن يشرح ليس فقط عقيدته وعقيدة الكنيسة الإنجيلية ، بل عقيدة الكنيسة الكاثوليكية أيضاً فى موضوع الثالوث ولاهوت المسيح وعماد الأطفال ، وهى العقائد التى رفضها ميشيل سرفه .

وبما أن ميشيل سرفه رفض هذه التعاليم التى تعتبرها الكنيسة كلها أساس الدين المسيحى ، فهو إذاً هرطوق ، وبما أنه هرطوق يجب الحكم عليه بالاعدام . وهنا يتعرض لسؤال الكثيرين : هل يجوز قتل الهرطوق الذى يرفض التعاليم الكتابية ؟ ويحاول كلفن فى هذا الكتيب أن يشرح بأن الله قد منح السيف والسلطان للذين يمسكون السيف والسلطان حتى يستطيعوا عن طريقهما أن يحكموا الناس بالعدل . وبما أن الله منح السلطان للحاكم لكى يردع السارق عن السرقة ، ويحاكم القاتل بعدل حسب شره (رومية ١٣) ، فإن نفس الحاكم فى سلطانه أيضاً أن ينفذ الحكم على الهرطوق الذى يقتل النفوس ويقودها إلى الجحيم . ولكى يؤيد حجته هذه رجع إلى أقوال وموقف القديس أغسطينوس من جماعة الدوناتيست (Donatistes) ، إذا أن القديس أغسطينوس ، فى صراعه مع هذه الجماعة ، طالب بتدخل القوات الحاكمة لمنع هذه الهرطقة .

43- F. Wendel. p.67

ويواصل بحثه مبيناً أن السلطات الحاكمة فى مدينة جنيف هى التى بحثت القضية ، وهى نفسها التى أصدرت الحكم بطريقة قانونية وعادلة . كما أن الكنائس المصلحة كلها فى سويسرا عبرت قبل الحكم عن موقفها من هذا الرجل . وكلها حكمت ببطلان تعاليمه (٤٤).

كان هذا الكتيب موضوع إعجاب البعض ، ولكنه كان أيضاً سبباً فى إغضاب البعض الآخر . والسؤال الذى يطرح نفسه الآن : ما هو موقفنا من هذه القضية ؟ هل كان كلفن محقاً فى موقفه أم خاطئاً ؟ قبل أن نجاوب على هذا السؤال فيما إذا كان المصلح مخطئاً أو محقاً فى موقفه من ميشيل سرفه ، يجدر بنا أن نفهم أولاً ماهى المفاهيم التى كانت تسيطر على الشعب فى هذه الحقبة من الزمان ، وماهو واجب الكنيسة والحاكم من الهرطوقى ؟

عندما نتكلم عن مفاهيم هذه الحقبة بنوع عام ، وعندما نتعرض لهذه القضية وقضايا أخرى بنوع خاص ، لايغيب عن بالنا أبداً الحقيقة الآتية وهى : كانت المقاطعات والدويلات والدول كلها تقريباً ، تعتبر التجديف والمجدفين كمرض الطاعون ، ينتشر بسرعة وهو مميت (٤٥). كما أنه يجلب الخراب والدمار على الدول بسبب غضب الله فإذا تساهلت أو تسامحت الدول مع الهراطقة فإن غضب الله يحل عليها ، ونتيجته الخراب والدمار للمدينة أو الدولة . لهذا السبب عينه ، فقد حكمت الكنيسة الكاثوليكية على كثيرين من البروتستانت فى المناطق الكاثوليكية التى كانت تؤمن بأن الحكم على هؤلاء الهراطقة ، خلاص لدولتهم من غضب الله ومن الوباء والأمراض والفقر . لأجل هذا السبب يجب ألا نتسرع فى حكمنا على كلفن وعلى بعض المصلحين الذين تصرفوا بهذه الطريقة وبهذه العقلية . كان كلفن وكذلك بعض المصلحين يؤمنون بأن واجب الحاكم هو أن يساعد الكنيسة للتخلص من الهرطقات والهراطقة . فإن كان الحاكم من حقه قتل القاتل ، أليس من حقه

44- J. Rilliet, 200-210
45- A.M. Schmidt, 67

أيضاً قتل من يعمل على قتل ، ليس شخصاً واحداً فقط ، بل عدداً كبيراً من الناس بتعاليمه المضلة ؟ كان هذا المفهوم سائداً فى معظم الدول المسيحية ومسيطراً على عقولهم وأفكارهم .

عندما حكمت هذه المدينة على سرفه بالإعدام حرقاً ، أرادت أن تعلن للعالم كله أنها مدينة محافظة متدينة . فإن كانت الكنيسة الكاثوليكية تعاقب الهراطقة بالحرق ، فإن مجلس مدينة جنيف أراد هو أيضاً أن يظهر أنه ليس أقل قسوة وشدة فى معاملة الهراطقة من الكنيسة الكاثوليكية .

والمهم جداً فى هذه القضية أن الذى حكم على هذا الرجل العالم والمثقف هو مجلس مدينة جنيف وقضاتها . ومن الغريب العجيب فى هذه القضية ، أن الأحزاب المتعارضة والتى كان يناقض أحدهم الآخر ، كما هو الحال فى معظم البلاد التى بها عدة أحزاب ، فقد اتفقت هذه الأحزاب كلها تقريباً ، وخاصة الحزب الذى كان يحكم فى ذلك الوقت وهو ضد كلفن وحزبه ، وحزب هذا الأخير ، على رأى واحد وهو إعدام سرفه . لأنهم رأوا فيه جميعاً خطراً عظيماً يهدد المدينة وسلامتها ، وسمعة جنيف فى البلاد الأخرى . ولذلك قد اتفقوا كلهم تقريباً على قتل هذا الرجل العالم . مع أنهم لم يتفقوا قط قبل ذلك على شيء بينهم ، اتفق الحزبان على قتله . وهنا أحب أن الفت نظر الدارس للتاريخ إلى نقطة فى غاية الأهمية فيما يخص موقف كلفن : وهى إن كان من الصعب جداً أن ينقذ المصلح هذا الرجل من الموت ، لأن الذى قام بالحكم عليه ، هو مجلس المدينة الذى أراد أولاً وقبل كل شيء أن يعطى صورة مشرفة حسب مفهومه عن أرثوذكسية المدينة ومحافظتها على الإيمان .

كما أن الذى حكم عليه بالموت هو مجلس المدينة . وكان رئيس المجلس أمى برين ، والأغلبية الساحقة من الأعضاء من الحزب المعارض لكلفن . فعندما تدخل كلفن وكل خدام المجمع لكى يغيروا قرار المجلس فى تنفيذ الحكم بالسيف بدل الحرق رُفض هذا التدخل . ومن هنا نرى صعوبة الموقف بالنسبة لكلفن ، وأن أمر إنقاذ هذا الرجل لم يكن بأى حال من الأحوال متوقفاً على تدخله وحده . وأشك كثيراً أن كلفن كان يمكنه أن ينقذ هذا الرجل من الموت ، حتى لو تدخل بكل ثقله وسلطته .

لم أرد من هذه السطور السابقة أن أدافع عن كلفن ، ولكننى وددت أن أطرح الحقائق التاريخية ، وأن أصف الجو الذى حدثت فيه هذه القضية المؤلمة . كما أننى لا أريد بأى حال من الأحوال أن أجرد المصلح من المسئولية الكبيرة والثقيلة ، لابل الخطأ الفظيع الذى ارتكبه ازاء ميشيل سرفه ، وأكون غير أمين للتاريخ وغير مخلص للبحث العلمى إذا قلت أن كلفن كان لايريد موت ، لأقول الإنسان ميشيل سرفه ، بل الهرطوقى ميشيل سرفه .

إن المصلح كان ـــ للأسف الشديد متأثراً كبقية أهل عصره بفكرة أن الهرطوقى يستحق الموت . وهذا واضح كل الوضوح فى كتيبه الذى كتبه بعد تنفيذ هذا الحكم الشنيع المريع .

إن مصلح جنيف كان يتمسك بفكرة أن الهرطوقى الذى يعرض النفوس للهلاك الأبدى يستحق الموت . ويقول العالم بنوا Benoit إن فكرة حكم الموت على سرفه لم تكن وليدة لحظة غضب ، أو رغبة فى الانتقام الشخصى ، بل هى مفهوم عقيدى كان يؤمن به المصلح فى معاقبة الهراطقة(٤٦).

ربما تطرف بنوا نوعاً فى هذا الحكم على مفهوم كلفن ، ولكننا نعتقد بأنه محق رغم تطرفه .

وهذا واضح من خطاب كلفن الذى كتبه فى سنة ١٥٤٦ إلى صديقه فارل ويقول فيه« إذا حضر سرفه إلى جنيف لن أسمح بأن يخرج حياً » . كان هذا مفهوم كلفن . ونحن نعلن عن الملأ دون خوف ، ولكن بخجل عظيم بأن المصلح قد أخطأ فى هذا الأمر . نقول بدون خوف وبخجل ، لأننا لانخاف البتة أن نعلن بأن المصلح قد أخطأ فى بعض تعاليمه أو فى بعض أحكامه ، لأن الأمانة العلمية والبحث النزيه والدقة تتطلب ذلك . فمع أننا نعترف بعظمة كلفن وجهاده وتعاليمه ، ولكننا لانقبل بأى حال من الأحوال هذه الغلطة التى ستظل كصفحة سوداء من صفحات حياته اللامعة الشهادة . كان كلفن إنساناً وكأى إنسان كان معرضاً للخطأ .

46- Benoit. 130-133

سبق أن أشرنا بأن الذى حكم على سرفه هو مجلس المدينة . ولكن كلفن لم يحاول إنقاذ حياته من الموت ، بل يمكننا أن نقول بأنه شارك الكنيسة الكاثوليكية فى مفهومها للحكم على الهراطقة بالموت . إن الحكم على ميشيل سرفه درس عملى نافع لنا فى هذا العصر المسكونى . لقد هرب ميشيل من الموت الذى أصدرته عليه الكنيسة الكاثوليكية فى مدينة فين ، ونجاء إلى قلعةِ البروتستانتية فوجد فيها الموت أيضاً . والكنيسة الكاثوليكية لاتملك الآن هذا السلطان بحرق الهراطقة . والكنيسة الإنجيلية لايمكن لها ممارسة هذه البشاعة . وهذا يعنى أن الكنيسة الكاثوليكية اليوم والكنيسة الإنجيلية لاتوافقان على استعمال ما كانت تستعمله الكنيسة الكاثوليكية قبلاً بطريقة عادية ، وما وافق عليه كلفن . وهذا يعنى أيضاً أن كنيستى اليوم الكاثوليكية والإنجيلية ترفضان أشياء كانت تمارس وتستعمل قبل ذلك ، لأن هذه الأشياء كانت توافق العصر الذى كانوا يعيشون فيه . أما الآن بعد أن درسنا هذا الموضوع يمكننا أن نبدأ على أساس جديد ، حواراً مسكونياً نزيهاً ، يتميز بالجدية والأمانة العلمية للكتاب المقدس ، وبعض تعاليم الآباء التى تتفق مع أقوال الكتاب المقدس .

يجب أن نعترف بأغلاطنا وأغلاط كنائسنا فى الماضى والحاضر لكى نبنى مستقبلا جديداً مجيداً مبنى على أسس ثابتة وقوية . والكنائس المصلحة تعترف بهذه الغلطة التى ارتكبها كلفن وبعض المصلحين . ولأجل هذا السبب فإن الكنائس المصلحة فى فرنسا وفى جنيف قررت أن تعترف بهذا الخطأ بطريقة واضحة . ولقد تكونت لجنة لدراسة هذا المشروع . وبعد دراسة طويلة قررت هذه اللجنة إقامة حجر ضخم عظيم فى نفس المكان الذى حرق فيه ميشيل سرفه فى مدينة جنيف . وفى يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٣ اجتمعت الكنائس المصلحة فى جنيف ، بالاشتراك مع بعض الكنائس الأخرى السويسرية والفرنسية ، وفى حفل تذكارى مهوب أزيح الستار عن الحجر الضخم التذكارى العظيم . وقرأ الحاضرون هذه الكلمات « نحن أبناء كلفن العظيم الذين يحترمونه ويعترفون بفضله ، ولكننا ندين غلطة كانت معهودة فى عصره . وإذ نتمسك تمسكاً ثابتاً بحرية الضمير حسب المبادىء الصحيحه

للإصلاح وللإنجيل نقيم هذا الحجر الكفارى فى يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٠٣ » .

إن دل هذا الحجر الذى يحمل هذه الكلمات على شيء ، يدل على الاعتراف أولاً بعمل المصلح العظيم . فإن الكنائس المصلحة تعلن تمسكها الشديد به والانتساب إليه ، ولكنها فى نفس الوقت لا تقبل هذه الغلطة التى كانت شائعة ومنتشرة فى عصره .

إن هذا الحجر يدل أيضاً على شجاعة وأمانة أبناء هذا المصلح كلفن ، الذين يعترفون جهراً بغلطة أبيهم . لم يكن هذا الحجر الذى نصبته مدينة جنيف وحيداً لكى يعبر عن هذه الغلطة الشنيعة . بل إن كلاً من مدينة فين (Vienne) وباريس وانماس (Annemasse) أقامت لميشيل سرفه تماثيلاً . كما أن مدينة ديجون أعطت اسم ميشيل سرفه لنفس الشارع الذى توجد به الكنيسة الإنجيلية .

الفصل التاسع

الأكاديمية وأيام كلفن الأخيرة

لقد حاول بعض منافسى كلفن استخدام ميشيل سرفه ضد المصلح ، مما أحيا الآمال فى نفسية الطبيب الأسبانى ، واعتقد أن الحزب المعارض كله ـــ وكان فى ذلك الوقت الأغلبية الساحقة سوف تقف بجانبه وتدافع عنه ، لكى يخرج من سجنه ويطرح بكلفن وتعاليمه خارج مدينة جنيف . وكان العدد الذى يقف بجانب ميشيل سرفه من الحزب المعارض عدداً قليلاً جداً .

وعندما وصلت إجابات الكنائس بالحكم على ميشيل سرفه ، اعتبر الشعب فى جنيف أن الكنائس الأخرى فى سويسرا تقف خلف كلفن وتؤيد تعاليمه ، فهو معلم الكنيسة الرسمى .

لقد تركت إجابات الكنائس تأثيراً إيجابياً عظيماً على موقف كلفن ، ولعبت دوراً هاماً جداً على مكانة الحزب المنافس له ، إذ أن البعض منهم لأسباب شخصية وسياسية تعاون مع سرفه . وهنا أدرك الشعب المنتخب مكانة كلفن المقاوم للهرطقات والمفسر للكتاب . فعندما جاءت انتخابات سنة ١٥٥٤ فاز فيها ثلاثة من الرؤساء من الحزب المؤيد للإصلاح ، وحتى الرابع كان من الذين يتعاطفون مع كلفن .

وعندما وصلت هذه الأغلبية الساحقة إلى السلطة فتحت الباب طبعاً بطريقة قانونية ، أمام الفرنسين اللاجئين هناك للحصول على الجنسية الجنيفية . ففى الفترة من ١٦ أبريل إلى ١٩ مايو من نفس السنة حصل على الجنسية حوالى ستون فرنسياً ، مما أثار غضب جماعة الأحرار ودفع بهم إلى الهجوم على بعض

الفرنسيين . لابل إن بعضهم ادعى بأن الفرنسيين يعدون أنفسهم للقيام بثورة مسلحة داخلية للاستيلاء على المدينة . وعند القيام بالتفتيش فى بيوت الفرنسيين لم يجدوا أى نوع من السلاح . على أى حال انتهت هذه الثورة بهزيمة جماعة الأحرار أيضاً .

كان نجم كلفن يلمع فى سماء جنيف ، لابل أصبح الشخصية المهمة والرئيسية التى يرجع إليها الكثيرون فى كثير من القرارات الداخلية والخارجية ، والدينية والسياسية . وهنا أيضاً بدأت سلطة المجمع تنتشر ، وتطبق دون مقاومة تذكر . وبدأ المجمع يطبق اللوائح أو الدستور الكنسى فى كثير من المجالات .

كان يحاول كلفن أن يخلق من هذه المدينة ، مدينة مثالية ، يمجد فيها الله ويُعلَّم فيها الكتاب المقدس ، وتمارس الفرائض بطريقة صحيحة . كان شعاره الأعظم هو مجد الله : يجب أن يمجد الله مهما كلف الأمر .

فقد كان يبحث فى كل حياته وتصرفاته وكتاباته عن الطرق التى تمجد الله .

كان كلفن يحاول نشر وتمجيد الله عن طريق الوعظ والإرشاد والكتابة . وأخيراً وجد وسيلة أخرى يستطيع عن طريقها تمجيد الله ، وهى إنشاء أكاديمية علمية . لم تكن هذه الفكرة جديدة . الم يؤلف فى سنة ١٥٣٨ لائحة النظام الداخلى لمدرسة جنيف مع الاستاذ ماتيرن وآخرين ؟

ولقد كانت الفرصة التى قضاها فى ستراسبورج فرصة ذهبية لكى يرى عن كثب مدرسة الدراسات العليا التى أسسها هناك العالم يوحنا ستورم ويعقوب استورم فى سنة ١٥٣٨ ، والتى درس هو نفسه فيها العلوم الدينية المسيحية . وبينما كان المصلح يدرس مشروع الأكاديمية ويخطط لها ، اندلع نزاع عقيدى سياسى بين حكومتى برن ولوزان ، مما اضطر عدداً كبيراً من الأساتذة الهروب من لوزان إلى جنيف وخاصة من الفرنسيين أصدقاء كلفن ، مثل ماترين كورديه (M. Cordier) ثم صديقه العزيز ومؤرخ حياته ثيودور دى بز ، وهذا الأخير كان قد وصل إلى جنيف سننة ١٥٤٥ ، وعدد كبير آخر من الأساتذة الذين طارت شهرتهم إلى الخارج .

بدأ كلفن حينئذ تأليف نخبة من الأساتذة الأكفاء . فلقد أسند عمادة الأكاديمية إلى صديق صباه ثيودور دى بز ، فأصبح أول عميد لها . وكان يدّرس مع كلفن الكتب المقدسة . أما برو (Beraud) فقد اهتم بتدريس اللغة اليونانية . وكان هناك أستاذ العبرية وآخر للفلسفة وآخر للغة اللاتينية .... ولقد دشنت هذه الأكاديمية العظيمة فى يوم ٥ يونيو ١٥٥٩ . وألقى خطاب الافتتاح عميدها الأول المصلح ثيودور دى بز * .

وكان على الطالب أن يدرس ٢٧ ساعة فى الأسبوع توزع كالآتى :ـــ

٣ ساعات فى علوم الدين العقائدية (لاهوت)

٨ ساعات لدراسة اللغة العبرية وتفسيره ٣ ساعات لدراسة الفلسفة اليونانية . ٥ ساعات فى دراسة الآداب اليونانية وتفسير . ٣ ساعات فى دراسة الطبيعة والرياضيات . ٥ ساعات لدراسة المنطق والخطابة .

لقد بدأت الأكاديمية ب ٣٠٠ طالب والمدرسة ب ١٢٠٠ طالب .

ولقد اشتهرت هذه الأكاديمية فى كل أوربا . فجاء إليها طالبو العلم من كل حدب وصوب . ومن بين هؤلاء الطلبة نرى مصلح المستقبل الأسكتلندى جون نوكس (John Knox) ، الذى كان يعتقد بأنه لايوجد أى مكان تحت السماء فيه تمارس العبادة لله بالروح والحق ، مثل مدينة جنيف .

كانت رسالة الأكاديمية ليس فقط إعداد الخدام التى كانت الكنيسة فى أشد الحاجة إليهم ، بل إعداد مستقبل بلاد كثيرة وكنائس عديدة . ففى سنة ١٥٦١ وصل عدد الكنائس الإنجيلية فى فرنسا وحدها إلى ١١٥٠ كنيسة ، وكان على الأكاديمية أن تمد هذه الكنائس بخدام . وعندما طالبت هذه الكنائس الأكاديمية بأن تعد وترسل لهم خداماً لأنهم فى حاجة ماسة إلى جنود مسلحين للعمل وللدفاع فى حقل الخدمة ، قال لهم كلفن إرسلوا لنا خشباً

* يوجد حالياً فى جامعة جنيف أربعة تماثيل : واحد لكلفن مؤسس الأكاديمية وواحد لفارل وواحد لثيودور وآخر لجون نوكس . ولقد تشرف الكاتب بالدراسة فى هذه الجامعة فى ١٩٦٤ ـــ ١٩٦٥

فنرده لكم سهاماً ، وقصد بذلك القول : أرسلوا لنا شباباً فندرسهم ونعلمهم وعندئذ يصبحوا سهاماً حادة فى أيديكم . ولقد جاء فعلاً عدد كبير من الطلبة من كل بلاد أوربا ، ورجعوا إلى بلادهم يحملون رسالة الإنجيل الذى هو قوة الله للخلاص . لقد كانت هذه الأكاديمية ، من أنجح وأفضل الوسائل التى استخدمها الله لنشر الكلمة [1]. فمن هذه الأكاديمية خرجت الأفواج لنشر الأفكار الكلفينية فى فرنسا وفى هولندا وانجلترا والمانيا وبولونيا والمجر . وبعد موت كلفن وصلت الكلفينية إلى أمريكا وأفريقيا الجنوبية . لا بل إن كلفن قد أرسل بعض المرسلين للتبشير فى البرازيل . ويمكننا أن نقول إن الأكاديمية التى قام كلفن بتأسيسها تعتبر القمة التى وصل إليها .

إنه يرى الآن مدينة منظمة بها أكاديمية عظيمة . وهذه الأكاديمية كانت تحتوى على قسمين : القسم الأول بدأ بحوالى ١٢٠٠ طالب للدراسات الإبتدائية والثانوية . والقسم الثانى يشمل الدراسات العليا أو الجامعية .

كما أنه يرى الآن مجلس المدينة منظم ، والأغلبية الساحقة فيه من مؤيدى الاصلاح . وبناء عليه فإن الدستور الكنسى الذى كان موضوع النزاع المستمر ، يطبق بطريقة عملية .

ولانقول بأن حزب المعارضة قد اختفى ، وأن المقاومين تلاشوا تماماً ، بل يمكننا أن نقول بأن حزب المعارضة للاصلاح ضعيف جداً ، لأن البعض هاجر من المدينة والبعض الآخر ، الذى بقى فيها كان ، بدون مقاومة تذكر .

كانت هذه الفترة فترة نمو مستمر لسلطة كلفن وسلطة المجمع . ففى هذه الفترة أيضاً حصل كلفن على حق الجنسية الجينيفية . فحتى الآن كان مصلح جنيف يعتبر أجنبياً غريباً . ففى يوم عيد الميلاد سنة ١٥٥٩ أى بعد عدة شهور من تأسيس الأكاديمية ، قدم حاكم المدينة للمصلح الفرنسى يوحنا كلفن الجنسية

---

(١)بعض المراجع لدراسة هذا الموضوع

Cadier Mythes 125-132.
Borgeaud. Hist. de LÁcademie de Genéve.
G.D. Benoit 150-162. Cadier P. Homme 165-177.
F. Wendel 70-75

الجنيفية مع كل امتيازاتها . ومنذ ذلك الحين أصبح كلفن المصلح فى وطنه ، يشعر أنه واحد منهم ومعهم وغير مهدد فيما بعد بأنه أجنبى . ومع ذلك كان قلبه مرتبطاً بوطنه الأصلى فرنسا ، يحلم بها ويرسل إليها السهام التى طلبها خدام الكلمة . كان يتألم لآلام الذين يكتوون بنار الاضطهادات ، التى أُلقى فيها الإنجيليون الأبرياء . لأجل هذا كان يعمل جاهداً ليل نهار فى الكتابة وفى إعداد الخدام لإرسالهم للاشتراك فى نشر كلمة الله فى وطنه العزيز وفى بلاد أخرى . فلقد أرسل فى الفترة من ١٥٥٥ — ١٥٦٤ ما ينوف علىّ مائة وعشرين خادماً للعمل فى فرنسا ، فى مدن مختلفة مثل باريس وبواتيه وكان وليون وخاصة أورليان ، التى درس فيها وبوردو وتولوز . لقد أرسل أبطالاً فى الإيمان قدموا شهادة المسيح فاستشهد بعضهم ببسالة منقطعة النظير .

ومن الغريب العجيب أنه فى نفس هذا اليوم الذى حصل فيه كلفن على الجنسية الجينيفية حدثت له حادثة كانت منذرة بخطر عظيم . فعندما كان يتناول طعام الغداء مع بعض أصحابه فى ٢٥ ديسمبر ١٥٥٩ — وهو يوم عيد الميلاد — بصق دماً ، وبكميات ضخمة (٢).

لم تكن هذه الحادثة المؤشر الأول الذى أنذر المصلح بضعف صحته ، بل كان يعلم جيداً حالته الصحية ، وضعف بدنه . فإن مؤرخ حياته وزميله فى الدراسة ثيودوردى بز كتب عنه ما ملخصه أن السهر المستمر : (يقصد فى الدرس) أهَّله ، للحصول على معلومات كثيرة وعميقة ، ولكنه سبب له مرض عسر الهضم ، الذى نتجت عنه أمراض مختلفة متنوعة ، أدت فى النهاية إلى موته المبكر (٣).

ولقد كتب كلفن فى سنة ١٥٤٦ وهو فى السابعة والثلاثين من عمره خطاباً إلى صديقه الأمير فاليه ((Falais)) يعبر فيه عن شكره العميق لهذا الأمير لاهتمامه بصحته . وفى الحديث عن صحته ، يذكر الآلامات التى كان يعانى منها فى ذلك الوقت : صداع مؤلم يضطره إلى التوقف عن الكتابة فى بعض الأحيان ،

2- Rilliet 245-250

3- Cadier Mythes p. 133

حتى كتابة الحكايات . وآلامات أخرى مختلفة متنوعة . ومن ذلك الوقت ظهر جيش ضخم عظيم من الأمراض المختلفة المتنوعة لمحاربة هذا الجسد النحيف الضعيف ، كما لو كانت الحروب الخارجية التى كان يعانى منها غير كافية . كان يعانى من صداع مستمر ومن أزمات ربو حادة مع رشح . وظهرت بعد ذلك مشكلة صحية أخرى ، وهى مرض البواسير والحمى الراجعة التى كانت أمينة فى زياراتها المتكررة له ، فأنهكت قواه وأضعفت جسده ، فأصبح حقلاً مهيئاً لدعوة مرض الدرن الذى كان يُعد فى ذلك الوقت مرضاً خبيثاً ، بدون أمل كبير فى شفائه . كما أنه كان يقاسى من مرض الكلى ولقد عان كثيراً من أزمات مغص كلوى حادة ومؤلمة جداً ، وكأنى بهذه الأمراض الكثيرة والعديدة ، والتى كانت تعد خطيرة جداً — لعدم تقدم الطب فى ذلك الوقت — تحالفت مع بعض المقاومين لكلفن ، لهدم جسد وقوة هذا الرجل العظيم . ولقد سبق أن تعرضنا لبعض المشاكل التى واجهها هذا الرجل فى حياته العائلية . ولقد حرم من حنان أمه مبكراً ، وعندما كان طالباً أخذ منه الدرس والسهر والبحث مأخذاً .

فعلى قدر ما أخذ وحصل من العلم على قدر ما أخذ العلم من صحته ، فكان الثمن باهظاً . وفى جنيف ، وكذلك فى مدينة ستراسبورج ، وبعد عودته إلى مدينة جنيف ، نراه لا يألو جهداً ، ولا يبخل براحته ولا بالتضحية بصحته من أجل الخدمة . وكما يقول فى إحدى خطاباته لفارل « إننى أقدم قلبى كذبيحة لله ... » وكان يعنى فعلاً صحته وراحته وقلبه . لقد تحمل فى هذه المدينة أعباء ثقيلة ومسئوليات ضخمة وتحديات عديدة لاحصر لها . كما انه أجتاز أيضاً فى تجارب محرقة مؤلمة فى حياته العائلية .

فإن التجربة التى عصرت قلبه عصراً هى اختطاف ابنه الوحيد الذى لم يتجاوز خمسة عشر يوماً . وترك أماً ثكلى تبكى بمرارة ثكلها ، مما أدى إلى تدهور صحتها بدرجة ملحوظة . وجاءت بعد ذلك تجربة إتهام ابنة زوجته التى كان يعتبرها كابنته ، فقد أتهمت بالزنا وحكم عليها مجلس المدينة بحسب القوانين المتبعة فى ذلك الوقت بالسجن . وزاد الطين بلة مشكلة أخوه أنطوان الذى جاء معه ومع أخته مارى ، وكانا كلاهما خير مساعد له ، فإن زوجته أتهمت هى أيضاً بالزنا ، وقضت ٩ سنوات فى السجن .

ولكن أقسى تجربة مر بها هذا المصلح العظيم هى موت زوجته . ومع أننا نجهل الكثير عنها ، إلا أن بعض الجمل المبعثرة هنا وهناك فى خطاباته وخطابات الآخرين تظهر عظمة هذه السيدة التى كانت تعمل فى الخفاء كجندى مجهول . إننا لانجد لها أية صورة تقريباً ، ولكن خدمتها الصامتة لزوجها ولكنيستها كان لها تأثيراً عميقاً على حياة كلفن . ولقد كتب كلفن خطاباً إلى صديقه فارل يصف فيه الساعات الأخيرة لزوجته المحبوبة . والذى يقرأ هذا الخطاب يشعر بالعواطف المتدفقة والمحبة العميقة التى كانت تملأ قلب وجوارح هذا الرجل ، الذى اتهم كثيراً بالخشونة والقسوة .

ففى هذا الخطاب الذى أرسله كلفن إلى فارل ، والذى تحدث فيه عن اللحظات الأخيرة لزوجته ، يصف كيف جلس بجانب سرير زوجته وصلى معها ولها . كما أنها رفعت هى أيضاً صلاة حارة تدل على اليقظة والوعى . ثم بدأت تصف له الأمجاد السماوية التى تنتظرها . ويواصل كلفن وصفه لهذه الساعات الأخيرة ، بأنه كان مندهشاً أنها لاتسأله عن ابنتها وابنها ، وعن العناية بهما . فعندما أشار إلى ذلك قالت له كيف ، أسألك أن تعتنى بمن قد وضعتهما فى عناية الرب ، وأنا أعلم أنك سوف تعتنى بهما دون أن أسألك ذلك . وفى ختام خطابه الطويل يقول : « والآن حرمت من شريكة حياتى الممتازة التى كانت على استعداد تام ... بأن تشاركنى ليس فقط المأساة بل النفى والموت أيضاً . ففى حياتها كانت خير مساعد أمين لى فى خدمتى ، ولم أجد فيها أى معطل للخدمة ». لقد ماتت أوديت كلفن يوم ٢٩ مارس ١٥٤٩ [٤] ، بعد مرض طويل استمر أكثر من أربعة أعوام . كان موتها تجربة قاسية على يوحنا كلفن . كل هذه التجارب وتجارب أخرى ، والمسئوليات الكبار التى ألقيت على كتفيه ، والأمراض العديدة الكثيرة والخطيرة أضعفت صحة ذلك المصلح العظيم .

وبالرغم من المسئوليات الضخمة العديدة ، من وعظ وتعليم وتنظيم الكنائس والاجتماعات ، وتنظيم مدينة جنيف ، والتدخل فى فض مشاكلها السياسية والدينية ، وتنظيم المجمع وحضور اجتماعاته ، واجتماعات الخدام الأسبوعية وإلقاء

4- J. Rilliet 94-100

المحاضرات وأشياء أخرى كثيرة جداً ــ بالرغم من هذا كله استطاع هذا الرجل (الكسلان) ، كما يصف نفسه فى إحدى خطاباته ، أن يترك خلفه ٥٩ كتاباً ، من تفسير وتعليم ووعظ ....

ياله من عملاق . ظل هذا الرجل يعمل حتى الأيام الأخيرة من حياته ، بالرغم من كل المعوقات ، وخاصة العقبات الصحية .

فلقد بدأت صحته فى التدهور فى السنوات الأخيرة ، على أن هذا التدهور ظهر بشكل واضح ملحوظ فى السنة الأخيرة من حياته . فقد تغيب مرات عديدة عن جلسات المجمع فى سنتى ١٥٦٣ ــ ١٥٦٤ . وبالرغم من أن حالته الصحية كانت فى هبوط ، استطاع أن يخرج تفسيره عن إرميا سنة ١٥٦٣ . وفى صباح يوم ٤ فبراير ١٥٦٥ نسمعه من سفر الملوك ، وفى نفس اليوم الساعة الثانية بعد الظهر نراه أمام تلاميذه ، يلقى محاضرة عن سفر حزقيال . وفى يوم ٦ فبراير قدم عظة عن توافق الأناجيل . بعد هذه العظة لم يصعد بعد ذلك على المنبر (٥).

لم يستول الضعف إلا على جسده فقط ، إذ أنه كان يتمتع بكل قواه العقلية . وحتى قبل هذه الفترة كان يحضر الخدمة فى بعض الأحيان محمولاً أو متوكئاً على بعض الأصدقاء . ولقد كتب فى يوم ٨ فبراير خطاباً إلى أطبائه فى مدينة مونبليه *. يصف لهم فيها أمراضه العديدة ، وارتفاع درجة الحرارة والمغص الكلوى والبواسير ...

وفى شهر مارس طلب مجلس مدينة جنيف بأن ترفع صلوات خاصة وحارة من أجل شفاء يوحنا كلفن . كان هذا القرار الأول من نوعه بأن يعلن مجلس المدينة طلب الصلاة بطريقة عامة لأجل إنسان معين . وفى يوم ٢٧ مارس ذهب محمولاً إلى مقر مجلس المدينة لكى يقدم لهيئة المجلس نيقولا كولادون (Colladon) المدير الجديد للمدرسة . وعندئذ قال لأعضاء المجلس أن يشعر

---

* إن كلية طب مونبليه أقدم كلية طب منظمة فى أوربا ، وكانت لها شهرة عالمية عظيمة . ولقد درس المؤلف فى كلية العلوم الدينية المسيحية فى هذه المدينة ، عدة سنوات بعد دراسته فى مدينة جنيف .

5- M. Brunel 140-150; Rilliet 150-160

أن هذه الزيارة هى الزيارة الأخيرة لمجلسهم الموقر فسالت دموع الكثيرين . وفى اليوم التالى حضر للمرة الأخيرة اجتماع الخدام . كانت الأمراض قد توطنت فى جسده ، واستولت عليه فأضعفت قوته الجسدية ، ولكن روحه كانت يقظة ونشيطة . ولذلك فقد طلب أن يحمل لحضور خدمة يوم ٢ أبريل ، وكان صديقه ثيودور دى بز يقوم بالخدمة فى هذا اليوم . وفى أثناء تقديم العشاء الربانى طفح الفرح والسرور على وجهه لدرجة أن الذين كانوا بجانبه شعروا بسروره وسعادته فى تلك اللحظة . وفى يوم ٢٥ أبريل استدعى إلى بيته الكاتب الشرعى ، وهو السيد شنلا (Chenelat) ، وأملى عليه وصيته الأخيرة التى ذكر فيها ما ملخصه ، بأنه يقدم أولاً الشكر لله على رحمته ومحبته وطول أناته ، وأنه يتوسل إلى السيد بأن يمنح رحمته لعبده الضعيف .

أما فيما يخص الممتلكات البسيطة والقليلة ، فقد منح جزءاً منها على هيئة منح دراسية للطلبة الفقراء ، والباقى من ممتلكاته يوزع على إخوته .

ولقد أراد أن يذهب فى يوم ٢٧ أبريل لمقابلة وتوديع مجلس المدينة ، فرفض المجلس أن يحضر كلفن ، بل ذهبوا كلهم فى نفس الميعاد المحدد إلى بيته والتفوا حول سريره ، فشكرهم على لطفهم وعلى الصبر الذى أظهروه من ناحيته ، طالباً منهم بكل تواضع وإخلاص أن يغفروا له الأغلاط التى ارتكبها أثناء خدمته لمدينتهم ، موضحاً لهم أن كل ماكان يريده هو مجد الله وخير المدينة . ثم حثهم على أن يضعوا الله دائماً نصب أعينهم ، ذاكرين إياه فى كل أعمالهم وتصرفاتهم ، ثم ختم بصلاة طلب فيها بركة الرب عليهم .

وفى الغد حضر خدام المجمع أيضاً . وهنا بدأ يكلمهم عن ثقته العميقة والقوية فى الله الذى سوف يصطحبهم ويحفظ كنيسته بالرغم من الاضطهادات التى تجتاز فيها فى أماكن كثيرة . ثم ذكَّر الخدام بماضى هذه المدينة والكنيسة : ذكر لهم قصة وصوله إلى جنيف وكيف كانت حالة الكنيسة والمدينة معاً . قال لهم « عندما وصلت إلى هذه الكنيسة لم أجد تقريباً شيئاً فيها : كانوا يقومون بالوعظ ويبحثون عن التماثيل والصور فى الكنائس لتحطيمها وحرقها . هذا كل ماكانوا يقومون بعمله ، ولكن لم يكن بعد هناك إصلاح عميق ... لقد طردت من هذه المدينة وذهبت إلى ستراسبورج ، ثم

رجعت وبدأت فى الصراع من جديد ...

ويواصل كلفن سرد قصة صراعه ضد المنافسين والأحرار ، إلى أن أصبحت المدينة ما هى عليه الآن ... كان هذا اللقاء لقاءاً حاراً سيطر فيه الحزن عليهم جميعاً . فبعد أن حثهم على مواصلة العمل باجتهاد وصبر وإيمان وثقة ، ودَّعوه والحزن يملأ قلوبهم والدموع تترقرق فى عيونهم .

وفى ٢ مايو استلم رسالة رقيقة لطيفة من صديقه المحبوب فارل * . وفى رده على هذه الرسالة قال ماملخصه .... سلام لك أيها الأخ العزيز جداً ... وبما أن الله سر أن تبقى بعدى ، فعش متذكراً وحدتنا التى تنتظر قطف ثمارها الشهية فى السماء ... لا تنشغل من ناحيتى ... إننى أتنفس حالياً بصعوبة شديدة لدرجة أننى أنتظر أن روحى ستخرج فى كل مرة يخرج من أنفى زفير ... فهكذا عشت وهكذا أموت فى المسيح ، الذى هو ربح فى الحياة وفى الموت لمختاريه ... عندما وصل هذا الخطاب إلى نيوشاتل جاء فارل مسرعاً لتوديع صديق الحياة وزميل الخدمة المخلص وتقابل الرجلان وقصا ذكريات الماضى (٦) . وبعد أن قام بالخدمة فى الغد قفل راجعاً إلى مدينة نيوشاتل .

يعرفنا المؤرخ كولادون (Colladon) ، بأن الأيام الأخيرة من حياته كانت آلاماً مستمرة ، ولكنها كانت فى نفس الوقت صلاة مستمرة أيضاً . وكان يردد المزمور ٣٩ وخاصة هذا العدد « صمت لا أفتح فمى لأنك أنت فعلت » ثم إشعياء ٣٨ ، ... وفى الأحيان الأخرى كان يصلى قائلاً ، إنك تؤدبنى وتضربنى ، ولكن يكفينى أن يدك هى التى تفعل ذلك ...

وفى يوم ١٩ مايو بدأ يشعر بتحسن نسبى فى صحته ، فطلب أن يعقد اجتماع يوم الجمعة للخدام فى بيته ، وقال لهم مرة ثانية ، لاشك أن هذه الفرصة هى المرة الأخيرة التى أراكم فيها . وقبل أن ينفض الاجتماع شعر بالتعب والضعف فترجى اثنين من الخدام ، فحملاه إلى حجرته وبينما كانا يحملانه نظر

---

* كان فارل قد تجاوز الخامسة والسبعين من عمره ومات ١٥٦٥

6- Cadier Mythes 137-13&

إلى الأخوة ضاحكاً وقال لهم « فمع أننى محمول كفريسة بين اثنين فسأظل مشتركاً معكم بالروح » ، ووضعاه الرجلان فى السرير الذى بقى فيه إلى أن انطلق إلى سيده . وفجأة شعر كلفن فى يوم ٢٧ مايو ١٥٦٤ بتحسن ملحوظ ، وكان يتكلم بطريقة واضحة واعية ، واستمرت هذه الحالة اليوم كله تقريباً . ولكن عندما مال النهار وبدأت الشمس فى المغيب وتختفى رويداً رويداً فى غروبها ، بدأت شمسه أيضاً تختفى رويداً رويداً وراء الأفق البعيد ، وهو يردد هذه الآية « فإننى أحسب أن آلام الزمان الحاضر لاتقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا » (رو ٨ : ١٨) . وهكذا سجل كاتب مدينة جنيف فى سجلات المدينة يقول فى هذا اليوم ٢٧ / مايو ١٥٦٤ حوالى الساعة الثامنة مساء انطلق يوحنا كلفن بكامل قواه العقلية ، فشكراً الله .

وعندما جاء صديقه وخليفته فى قيادة الكنيسة والأكاديمية ثيودور دى بز قال « لقد اختفت الشمس فى هذا اليوم . إن النور العظيم الذى كان فى العالم لقيادة كنيسة الله انطلق إلى السماء * .

عاش كلفن خمساً وخمسين سنة وشهراً وثلاثة عشرة يوماً .

وفى الغد خرجت المدينة كلها على بكرة أبيها ، شعباً وأكاديمية ، أساتذة وطلبة ، لتودع الرجل الذى عاش ومات وكان شعاره مجد الله . ولقد دفن فى مقبرة بلانباله (Plainpalais) بطريقة بسيطة جداً كما طلب ذلك هو نفسه فى وصيته. كما أنه طلب أيضاً ألا يوضع أى حجر باسمه . ولذلك ظل قبره مجهولاً حتى الآن .

ولكن وإن كان قبره ظل حتى الآن مجهولاً ، فإن تعاليمه إنتشرت وملأت بقاعاً واسعة وكثيرة فى العالم . وإن كان يوحنا كلفن قد مات بجسده فإنه يتكلم بعد .

---

* إن هذه الصلاة التى رفعها ثيودور تشبه إلى حد كبير الخطاب الذى القاه ملانكتون المصلح الالمانى فى جنازة المصلح مارتن لوثر (أنظر د.حنا جرجس : مارتن لوثر ص ١٥٩)

الجزء الثانى

الفصل الأول

تعاليم كلفن

عندما يلقى المرء نظرة ولو سريعة على الأعمال والمؤلفات التى صنفها ذلك الرجل العملاق يدهش دهشة عظيمة . فبالرغم من المسئوليات العديدة التى ألقيت على عاتقه فى تنظيم وسن القوانين الدينية فى بعض الأحيان المدنية أيضاً ، إذا أن مجلس المدينة طلب منه الاشتراك فى مشروع عمل بعض القوانين الخاصة بالمدينة ثم قيامه بتنظيم الكنيسة والمجمع ، والقيام بالوعظ فى أيام الآحاد وفى وسط الأسبوع ، كذلك أيضاً قيامه بالتدريس وإعداد خدام المستقبل ، والزيارات الرعوية ، وصراعه المستمر مع الحزب المعارض وكذلك صراعه مع الحزب المؤيد لوجود بعض الاختلافات بينه وبين بعض الخدام وبعض أعضاء هذا الحزب ــ بالرغم من هذا وأشياء أخرى يطول سردها ، نرى هذا الرجل النحيف المعتل الصحة والضعيف البنية ترك خلفه ميراثاً عظيماً للكنيسة العامة وتعاليم افتخرت ــ وتفخر ــ بها الكنيسة حتى الآن . لقد ورثت الكنيسة الإنجيلية كنزاً عظيماً : تسعة وخمسون مجلداً من المجلدات الضخمة . وفى سنة ١٥٤٦ (١٥٤٧) يظهر تفسير كورنثوس ، وغلاطية وأفسس فى سنة ١٥٤٨ ، ثم الرسالة إلى أهل فيلبى وكولوسى فى سنة ١٥٥٧ و١٥٥٨ ، والعبرانيين فى سنة ١٥٤٩ . كما أنه كتب تفسيراً للعهد القديم : ظهر تفسيره للأسفار الخمسة فى سنة ١٥٦٣ ثم سفر المزامير ١٥٥٧ ، اشعياء١٥٥١ . أما تفسير سفر حزقيال لم يظهر الا بعد موته ، ودانيال فى سنة ١٥٥٩ وظهر فى نفس السنة تقريباً تفسيره للأنبياء الصغار . ولقد قام كلفن بأعمال أخرى عقيدية وتعليمية : واهمها ما يدعى 1- Institution de la Religion Chretienne .

«أسس الديانة المسيحية أو دستور الديانة المسيحية» . وبما أننا سوف نتعرض

لهذا الكتاب فى حديثنا عن تعاليم المصلح الفرنسى ، يحسن بنا أن نلقى نظرة ولو سريعة جداً على تاريخه ومحتوياته :

كان الغرض من كتابته هو الدفاع عن الانجيليين المضطهدين فى فرنسا . ولأجل هذا السبب فقد كتب يوحنا كلفن مقدمة طويلة باسم فرانسوا الاول ملك فرنسا الذى شن حرباً شعواء ضد الانجيليين . كما أنه أراد بهذا الكتاب أن يقدم تفسيراً واضحاً وصحيحاً ليس للملك فقط بل لكل الشعب الفرنسى وغير الفرنسى للعقيدة الإنجيلية حتى ، لايفترى على هذه التعاليم .

ولقد ظهرت الطبعة الأولى فى مدينة بازل فى شهر مارس ١٥٣٦ فى مطبعة توماس بلاترو بالتازار لازيوس Thomas Platter et Balthasar Lasius[1] باللغة اللاتينية . كان يحتوى هذا المجلد على ٥١٦ صفحة من الحجم الصغير الذى يمكن وضعه فى الجيب بسهولة . وقد قسم إلى ستة فصول ، ولقد قام المؤلف فى الفصول الأربعة الأولى بمعالجة المواضيع الآتية : الناموس والهدف منه ، قانون الإيمان ومحتوياته ، الصلاة الربانية ومعناها ، فريضتى العشاء الربانى والعماد . أما فى الفصلين الأخيرين فقد حاول معالجة الفرائض المزيفة غير الحقيقية ، ثم مشكلة الحرية الدينية . وفى هذا الفصل يقدم كلفن مفهومه للحرية المسيحية وعلاقة الكنيسة بالدولة ، وهنا نلاحظ تأثير لوثر على كلفن . ولقد استطاع فى هذا الفصل أن يشير ولو بطريقة غير مباشرة إلى قضية المنشورات التى ظهرت فى سنة ١٥٣٤ ، وموقف الدولة منها والاضطهادات العنيفة التى اجتاز فيها الانجيليون بسببها . كان نجاح هذا الكتاب عظيماً ، ولقد نفذ من المطبعة بعد سنة من ظهوره .

الطبعة الثانية :

عندما نفى المصلح من جنيف وذهب إلى مدينة استراسبورج ، بدأ فى توضيح وتوسيع وتطوير الطبعة التى ظهرت فى سنة ١٥٣٦ وقدمها إلى مطبعة

1- Wendel 79; Donmergume T.I, PP. 592, Autin L.institution Chrètienne de Calvin. Paris. 7455.

فندلن ريهل Wendelin Rihl ، وهو الذى كان يطبع معظم كتابات المصلح بوسر . وحتى يسهل توزيعها وقرأتها فى فرنسا نشرت على أجزاء كثيرة ، وتحت اسم الكيوم Alcuim . ولقد احتوت هذه الطبعة على سبعة عشر فصلاً ، إذ أن المؤلف أضاف أحد عشر فصلاً على الطبعة الأولى . ولقد بدأت هذه الطبعة بفصلين جديدين ، تحدث فيهما الكاتب عن معرفة الله ومعرفة الإنسان ، كما أنه توسع فى شرح عقيدة الثالوث . وربما يرجع هذا إلى الحوار الذى دار بينه وبين كارولى Caroli ، ثم اطلاعه على كتاب ميشيل سرفه . والدارس لهذه الطبعة يلاحظ أيضاً أن كلفن قد أضاف فصلاً كاملاً عن علاقة العهد القديم بالعهد الجديد ، وتكلم عن العماد ، ثم عن فائدة الكتب المقدسة لكى يرد على اعتراضات المعمدانيين الذين أهملوا — فى عصره الكتاب المقدس ، مدعين بأن الروح القدس يرشد المؤمن بطريقة مباشرة . كما أنهم رفضوا أيضاً فريضة عماد الأطفال . كما أنه أضاف أيضاً فصلين تحدث فيهما عن التوبة والتبرير بالإيمان . ولقد تكلم فى هذه الطبعة للمرة الأولى عن اختيار الله السابق والعناية الإلهية . وهو لايتفق وملانكتون فى موضوع الاختيار . فإن المصلح الألمانى يعتقد بأن البحث فى هذا الموضوع غير مفيد وبدون جدوى [٢] . كما أنه تحدث فى الفصل الأخير عن الحياة المسيحية . لقد قدم كلفن فى هذه الطبعة الخطوط العريضة لبقية الطبعات الأخرى إلتى ستظهر فيما بعد . والدارس المدقق لها يلاحظ تقدمه وتعمقه فى العلوم الدينية وكتابات الآباء اللاتينيين واليونانيين . لقد ظهرت هذه الطبعة فى اللغة اللاتينية ، وقام كلفن نفسه بترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية ونشره فى جنيف فى سنة ١٥٤١ . وتعتبر هذه الترجمة تحفة ، فلأول مرة يظهر كتاب عقيدى إنجيلى يعالج المشاكل التعليمية بنظام وبدقة باللغة الفرنسية . وكان الغرض من الترجمة الفرنسية هو مساعدة الفرنسيين الذين لايعرفون اللاتينية من الاطلاع عليها فى لغتهم . ولقد لعب هذا الكتاب دوراً هاماً جداً لدرجة أن قال بعضهم عنه : كانت الطبعات الفرنسية لكتاب أسس الديانة المسيحية أساساً وعاملاً هاماً لدفع الأشخاص والكنائس لقبول الإصلاح وتقدمه بطريقة

2- F. Wendel 82.

مدهشة (٣) . لقد كان تأثير هذا الكتاب الفرنسى على الشعوب الناطقة بهذه اللغة يشبه إلى حد كبير تأثير كتابات لوثر على الشعب الألمانى .

الطبعة الثالثة :

وفى سنة ١٥٤٣ ظهرت الطبعة الثالثة باللغة اللاتينية ، وأضاف كلفن أربعة فصول ، فأصبح الكتاب واحداً وعشرين فصلاً . ولقد تناول فى هذه الفصول شرح النذور والطقوس البشرية وقانون إيمان الرسل والكنيسة ، وترجم إلى الفرنسية فى سنة ١٥٤٥ .

الطبعة الرابعة :

تعتبر هذه الطبعة قمة ماكتبه المصلح الفرنسى فى مجال العقيدة . ففى كل طبعة من الطبعات السابقة حاول كلفن أن يغير شيئاً ويضيف شيئاً آخر . وعندما وصل إلى الطبعة الرابعة شعر بأن حياته تقترب من النهاية ولذلك كان يعمل جاهداً ، وخاصة بمساعدة أخيه انطوان وآخرين ، لكى يقدم للكنيسة تعليماً كاملاً عن العقيدة المسيحية . فبالرغم من الآلام القاسية المبرحة التى كانت تلتهم جسده وقوته التهاماً ، استطاع ان يعدل ويصحح كل الطبعات السابقة ، التى ظهرت فى سنة ١٥٥٩ باللغة اللاتينية وفى ١٥٦٠ باللغة الفرنسية . ولقد قفز الكتاب من ٢١ فصلاً إلى ٨٠ فصلاً .

ويتعرض الكاتب فى الفصول الأخيرة من هذا الكتاب لمعالجة موضوع الكنيسة : ما هى الكنيسة ؟ نظامها وعلاقتها بالحكومة ، فتحدث عن الكنيسة المنظورة والكنيسة غير المنظورة . وسوف تكون لنا الفرصة فيما بعد لشرح مفهومه للكنيسة .

إن هذه الطبعات المختلفة أصبحت الآن أربعة كتب : الكتاب الأول والثانى والثالث والرابع . وهى تحتوى على معظم تعاليم كلفن العقيدية . ولنتقدم الان لدراسة بعضاً من هذه التعاليم .

3- Wendel 84-85.

تعاليمه عن الله

معرفة الله

تعرض كلفن فى أول كتاب عقيدى له لمعالجة مشكلة كانت وما زالت من المشاكل التعليمية المهمة ، وهى مشكلة معرفة الله . فهو يتساءل فيما إذا كان فى إمكان الإنسان أن يصل بنفسه إلى معرفة الله ؟ هل يستطيع عن طريق العقل والبحث الشخصى والتأمل فى الطبيعة وفيما يدور حوله أن يصل إلى معرفة صحيحة أو شبه صحيحة عن وجود الله ؟ وهذا ما يدعى بالوحى الطبيعى * . أو بمعنى آخر هل يمكن للإنسان من نفسه وبنفسه مستقلاً عن كل وسائط النعمة ، من قيادة الروح القدس وقراءة الكتاب المقدس أن يصل إلى معرفة الله والاعتراف بوجوده . هذا هو الموضوع الذى بدأ به كتابه الأول الذى يدعى دستور أو أسس الديانة المسيحية . ويقدم المصلح الفرنسى وسيلتين لمعرفة الله . أما الوسيلة الأولى فهو ما يدعى . بالوحى الطبيعى العام لكل البشر . إن الدارس لكتابات كلفن يلاحظ تقريباً تيارين فى مفهومه لإمكانية معرفة الله عن طريق الوحى الطبيعى أو عن طريق الطبيعة . فالتيار الأول موجود فى عظاته . ولقد قام ريتشارد ستوفر (Richard Stauffer) بدراسة عميقة وطويلة لعظات كلفن ؛ ويعرفنا بأنه يمكن من بعض العظات ــ ومن بعضها فقط ــ أن نفهم بأن كلفن قد أشار ولو بطريقة خفية إلى إمكانية معرفة الله عن طريق الطبيعة [٤] . أما التيار الثانى الذى نادى به كلفن فهو أنه ليس فى مقدور الإنسان بأن يصل بنفسة إلى معرفة حقيقة الله عن طريق الوحى الطبيعى . ومع ذلك فإنه يعترف بأن الله أعلن نفسه عن طريق الوحى الطبيعى بثلاث طرق ، أو بالمعنى الأصح الله يظهر فى الطبيعة

---

* كان ومازال موضوع الوحى الطبيعى يحتل مكانة مهمة فى مفهوم علماء العقائد : كاثوليك وبروتستانت . ولقد دار جدل حار بين العالم كارل بارت وإميل برونر فى هذا الموضوع أنظر Henri Bouillard Karl Barth Genèse et èvolution dela thèologie dialectique Paris 206-220.

4- R. Stauffer; Dieu, la Providence dans la Prèdication de Calvin, 24-26; 40
يقدم ستوفر عدداً كبيراً من العظات التى تؤيد هذا الرأى

بثلاث طرق :

١ ــ ظاهر فى الإنسان وفى طبيعته . إن الانسان الكائن الغريب العجيب والمدهش لدليل قاطع على وجود الله . وعندما يعرف الإنسان الله يستطيع أن يعرف نفسه ايضاً . إن الله ساكن فى الإنسان وليس بعيداً عنه . ويرجع المصلح إلى خطاب الرسول بولس فى أريوس باغوس ، عندما قال لجماعة الأثينيين « ...لكى يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً (أع ١٧:٢٥ــ٢٨) . وفى عظة رقم ٣٤ عن سفر أيوب يلفت الواعظ نظر السامعين إلى حقيقة وجود الله الظاهرة فى الإنسان ، وعلى كل إنسان أن ينظر إلى نفسه وتكوينه العجيب ، فيدرك بأن الله هو الذى يعطى الجميع حياة ونفساً ، لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد . إنه برهان على وجود الله وعظمته ومحبته وعنايته .

٢ ــ فكما أن الله يعلن نفسه فى الإنسان فى هذا الكون الصغير ، فإنه يعلن نفسه أيضاً عن طريق الكون كله الذى نعيش فيه . فالسموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه (مز ١:١٩ ، تك:١:١-٦ ، إش ٢٢:٤٠ ، رو ١٩:١ ، ٢٠) .

والوسيلة الثالثة هى التاريخ . فإن الله استخدم ويستخدم التاريخ وهو ظاهر فى قيادته وتوجيهه . ويعترف كلفن بأن الله قد عزز فى طبيعة الإنسان مايسميه «ببذور الديانة» . فحتى الشعوب المتأخرة والمتوحشة والتى لا تعرف شيئاً عن الحضارة ، فهى مقتنعة وتؤمن بوجود إله ، وإن شيشرون يشهد بذلك [٥] .

فإن كان الله قد أعلن نفسه فى طبيعة الإنسان وفى الكون وفى التاريخ ، وإن كان الله أيضاً قد غرز فى داخل الإنسان الشعور بوجوده ، وأن هذا الشعور موجود فى أعماق كل إنسان ، فهل يمكن القول إذن بأن الإنسان يمكنه عندما يفتح عينيه بطريقة واعية مدركة ، وعندما يبحث عن الله باجتهاد أن يصل

5- Institution 1,1,1, Wendel 117-121

إلى معرفة الله عن طريق الطبيعة أو الوحى الطبيعى *[٦] ؟ يرفض كلفن هذا الأمر [٧] . فمع أنه يعترف بأن الله قد زرع فى قلب كل إنسان أينما كان بذور الديانة ، ومع أنه يعترف أيضاً بأن السماء والارض ونظام الطبيعة الغريب العجيب المنظم يشهد بوجود الله ، إلا أنه يكاد يكون مستحيلاً على الإنسان أن يدرك أو يفهم جوهر الله عن طريق هذه الأشياء الطبيعية أو بالوحى الطبيعى [٨] . والسؤال الذى يطرح نفسه هو لماذا إذن لايستطيع الانسان من نفسه أن يصل إلى معرفة الله إذا حاول ذلك ؟

يعتقد كلفن بأن سقوط آدم شوه طبيعته وأفسد إدراكه الروحى . فإن بذور الديانة التى وضعها الله فى طبيعته لا تنتج إلا ثماراً رديئة بسبب سقوط وفساد طبيعته . ولأجل هذا السبب ترى الإنسان وقد صنع لنفسه آلهة عديدة وكثيرة [٩] ، وبدل أن يعبد للاله الحى الخالق والعظيم ، عبد المخلوقات وصنع يده (روميه ١:١٨ـ٢٥ ، ٢:١٢ـ١٦) . إن كلفن يعتقد بأن ذهن الانسان الروحى صار فاسداً بعد السقوط . لقد أصبح أعمى وأصم ، فلا يستطيع أن يرى مجد الله فى صنعه العجيب ، ولايستطيع أن يسمع صوته فى الطبيعة والخليقة . كان فى إمكان الإنسان أن يعرف الله قبل السقوط ، أما بعد السقوط فيكاد أن يكون الأمر مستحيلاً [١٠] . فلقد ضلّ بعيداً . ليس فقط البلهاء والأغبياء ، بل حتى العلماء والفلاسفة لم يستطيعوا الوصول إلى معرفة الإله الحقيقى عن طريق علمهم وفلسفتهم . ثم يرجع إلى (١كو ١:١٩ ـ٣١ ، ٢:٤ـ١٦) لكى يؤيد فكرة عجز الإنسان التام لإدراك أو فهم جوهر الله .

6- Institution de la Religion Chretienne 1. 3:1

* الاقتباسات من كتبه الأربعة التى تدعى (أسس الديانة المسيحية) وهى أربع كتب:كل كتاب يقسم إلى فصول وكل فصل يقسم إلى فقرات. مثلاً (الكتاب الأول الفصل الثالث الفقرة الأولى)

7- R. Stauffer. 26-27

8- Wilhelm Niesel L. translated by H. Knight, the Theology of Calvin 9-53

9- Inst. 1:3; 1; 1: 4: 4, Wendel 118-123

10- Doumerque T. 4. PP. 41..., W. Niesel 40-48; Stauffer 24-33

ويرى كلفن حقيقة أخرى فى عدم إمكانية الإنسان للوصول إلى فهم جوهر الله أو معرفته معرفة حقيقية ، وهى بأن الله عظيم مرتفع وسامٍ ، والإنسان فى ضعفه لا يمكن له أن يفهم الله غير المدرك . فإن عظمة الله أكبر من أن تحد ، وأن سموه أعلى من أن يدركه تفكير البشر [١١] . ويكرر المصلح مراراً وتكراراً بأن الإنسان لا يمكن أن يفهم جوهر الله أو أن يراه ويعيش (تك ٣٢:٣٠،خر ٣٣:٢٠،تث ٥:٢٦،٦:٢٢،عب ١١:٣٢) . لأن الله فى عظمته وفى سموه وفى مجده يسكن فى نور لا يدنى منه (١ تيمو ٦:١٦) . ففى عظة له عن سفر دانيال ، وفى عظة أخرى عن (١ تيمو٦:١٦) يبين بأن الله ساكن فى نور لايستطيع الإنسان أن يقترب منه . فمهما سعى ومهما بذل من جهد لكى يتسلق هذا الجبل الضخم الشامخ ، لايمكن أن ينجح فى تسلقه . ولكى يصور لنا بأنه من الصعب جداً بأن نصل بذواتنا إلى مفهوم حقيقى لله يقدم لنا مثال الشمس : إن الإنسان لايستطيع بالعين المجردة أن ينظر إلى الشمس لكى يفحص محتوياتها ، كما أنه لايستطيع أن يصل إليها ، لأنها قوية فى ضوئها وبعيدة المنال . فإن كان من الصعب على الإنسان أن يدرك ويفهم جوهر الكوكب الذى خلقه الله ، أهل من الممكن ان يفهم وأن يدرك جوهر خالق الكوكب ؟ [١٢]

إن الإنسان عاجز كل العجز بأن يفهم جوهر الله ، أو أن نراه . ولأجل هذا السبب فإن الله كان يظهر نفسه فى بعض الأحيان للإنسان بطرق غير مباشرة : فى السحاب أو يظهر ظهره فقط...(خر ١٤:١٩ـــ٢٠،١٩:١٣)

مما سبق يتضح بأن كلفن يرفض فكرة أن الإنسان يستطيع بنفسه وبمجهوده الشخصى أن يصل إلى معرفة صحيحة عن الله ، وعن جوهره . إن الوحى الطبيعى لا يقود الإنسان إلا إلى خرافات وضلالات مختلفة متعددة ، لأنه فى

11- Co. 26; 202-203; Co 41 p. 451

١١ ـــ عظات رقم ١٢ من دانيال ـــ عظة ٢٧ من التثنية

12- Stauffer 20; 35

بحثه الشخصى عن الله فى الطبيعة يركز بحثه وأفكاره فى الطبيعة ولا يتعداها ، فيصل فى نهاية الأمر إلى عبادة الطبيعة بدل عبادة خالق الطبيعة [١٣] . ومن هنا ظهرت الديانات العديدة . ما هى إذن فائدة الوحى الطبيعى إذا كان لايمكن أن يقدم لنا تعليماً صحيحاً عن الله ؟

حاول كلفن الإجابة على هذا السؤال : فهو يعتقد بأن الغرض من الوحى الطبيعى هو بأن يقدم شهادة عن وجود الله لأنه لايسمح بأن يترك نفسه بدون شاهد ، وبذلك يصبح الإنسان بلا عذر أمامه ، وهذا ما يعلنه الرسول بولس (رو ٢:١٢). ولقد شرح المصلح مفهومه — فى عدة عظات — لمسئولية الإنسان إزاء شهادة الوحى الطبيعى [١٤]. فإن كان الغرض من الوحى الطبيعى هو تقديم شهادة يقرأها الجاهل والعالم فى الطبيعة عن وجود الله ، وعن الله الخالق ، لكنه لا يقدم لنا معرفة عن الله الفادى أو المخلص [١٥] . إن الطبيعة كلها تتحدث عن وجود خالق ومنظم لها ، يعمل على أن تسير بنظام ودقة . ولكن الذى يحدثنا عن محبة الله ، وعن عنايته وعن يسوع المسيح المخلص والفادى ، هو الكتاب المقدس وهذا يقودنا إلى الوسيلة الثانية وهى :

وحى الكتاب المقدس :

رأينا فيما سبق أن الله يعلن نفسه فى الطبيعة والتاريخ ، وهذا ما يسميه كلفن بالوحى العام . ولكن الله استخدم وسيلة أخرى لإعلان ذاته وسماها بالوحى الخاص المعلن لليهود وللمسيحيين فى الكتاب المقدس [١٦] .

يعتقد كلفن بأن الفرق شاسع واسع بين المعرفة التى يحصل عليها الانسان نتيجة لبحثه ولسعيه مستقلاً ومنعزلاً عن نعمة الله ، والمعرفة التى يعلنها الله

13- W. Niesel 39-49

14- Co. 35, p.4; Co. 28; p.64: co. 28: p. 285

انظر عظاته الموجودة فى المجموعة التى تدعى عظته رقم ١٣٣ عن أيوب

15- W. Niesel 40-45

16- Stauffer 53-71

نفسه فى الكتاب المقدس . الفرق كبير بين المعرفة التى تأتى عن طريق الوحى الطبيعى وبين المعرفة التى تأتى عن طريق الوحى الكتابى . فعندما يستخدم الروح القدس الكتاب المقدس بتأثيره ، يستطيع الإنسان أن يدرك بأن هذا الكتاب يعلن له أن الله ليس هو الخالق فقط لهذا العالم ، بل إنه الاله المحب والذى عمل أيضاً فى ابنه يسوع المسيح بخلاصه . إن هذه الحقيقة لا يمكن أن نجدها خارج الكتاب المقدس . فالكتاب المقدس وحده بعهديه هو الكتاب الوحيد الفريد الذى يقدم لنا المسيح الفادى المخلص والوسيط . ويشدد كلفن منبراً على حقيقة أنه بغير يسوع المسيح ، وعمل الروح ، واستخدام الكتاب المقدس لايوجد أى طريق يقود إلى المعرفة الحقيقية لله (١٧). ويواصل كلفن شرحه لضرورة الكتاب المقدس لتقديم الحق الإلهى للإنسان ، لأن هذا الأخير ميال بطبيعته إلى الانحراف وقبول الخرافات والديانات الكثيرة التى قد تشبع فى بعض الاحيان هذه الميول الموجودة فيه . ولأجل ذلك فإن الله أعطى للانسان كلمته أو الوحى الالهى ، لكى يبعده عن الخرافات والخزعبلات التى تشده إليها شداً . ولأجل هذا السبب فقد أراد الله بان تسجل هذه الكتب التى نطق بها الآباء والانبياء فالرسل (١٨) .

ولقد سبق أن أشرنا بأن الإنسان عاجز تماماً عن معرفة الله بذاته ، وهذا يرجع إلى عجزه بسبب السقوط من ناحية ومن ناحية أخرى يرجع إلى سمو وعظمة ورفعة الله غير المدرك غير المنظور وغير المعروف . فإن هذا الاله الذى لايمكن للعقل البشرى المحدود أن يدركه أو يفهمه تنازل فى شخص يسوع المسيح فأصبح مدركاً ملموساً ومحسوساً : «عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد» ... إن هذا الاله العظيم الذى ظهر فى الجسد فى شخص يسوع المسيح ، لا يمكننا أن نراه أو أن نتعرف عليه فى الطبيعة ، بل يقدمه لنا الكتاب المقدس . إن الوحى الطبيعى والديانات الاخرى تقدم لنا الله كخالق ، أما الكتاب المقدس فانه يعرفنا بأن الله أصبح فى المسيح يسوع فادياً ومخلصاً ولكى

17- W. Niesel. 48-53; Inst. 1, 6; Cr. 23. 9
18- Inst. 1, 6. 1-4

يخلص الإنسان صار إنساناً : «والكلمة صار جسداً» . مما لاشك فيه بأن الاعتراف بوجود الله أمر فى غاية الأهمية ، ولكن الأهم لا بل الجوهرى والأساسى هو أن نعرف وأن نعترف بأن الله صار فى المسيح يسوع فادياً ومخلصاً للإنسان [١٩] ، وهو الذى أنقذنا من هاوية الموت والهلاك .

ولقد استعمل المصلح عدة أمثلة لكى يشرح الدور الذى يقوم به الكتاب المقدس فى قيادتنا لله . فهو عبارة عن السلم الذى نصعد به إلى الله (عظته رقم ١٨ عن دانيال) . فبدون هذا السلم لايمكن للإنسان الصعود إلى فوق والحصول على المعرفة الحقيقية . كما أنه شبه الكتاب بنظارات تمنح بصراً للإنسان الضعيف البصر ، لكى يقرأ ويفهم ويعرف ويعترف بالاله العظيم صانع الخيرات . ونلاحظ أن المصلح استعمل مثل النظارات فى عظاته ، وكذلك فى كتابه دستور أو أسس الديانة المسيحية [٢٠] .

ويعتقد كلفن بأنه بغير هذه النظارات لاتوجد رؤية صحيحة صافية نقية لمعرفة الله . ولقد استخدم تشبيهاً آخر وهو مثل المرآة التى تعكس صورة من الشيء المنظور المرئى . فان الكتاب المقدس يعكس لنا صورة لمعرفة الله . ونرجو ملاحظة أن كلفن لايقول بأن الكتب المقدسة تعكس لنا نفسه بل إنها تعكس لنا صورة عن معرفة الله ، كما لو كنا ننظر فى مرآة . وسنرجع إلى هذه النقطة فيما بعد . فبالكتب المقدسة وعن طريقها وتحت تأثير الروح القدس يعلن الله ذاته . فمع أن الله غير منظور فى ذاته وبجوهره فإنه يستخدم الكتب المقدسة كمرآة تعكس لنا صورة عن الله [٢١] . فعن طريق هذه المرآة التى هى الكتب المقدسة نرى الله ونعرفه معرفة حقيقية .

ان الدارس لكتابات كلفن سواء كتب أسس الديانة المسيحية أو الكتب التفسيرية أو الوعظ يلاحظ بلا عناء تشديده على أهمية الكتب المقدسة فى قيادة

19- Stauffer 55: 73-75

20- Inst. 1, 6, 1; Co. 28. P. 441 عظته رقم ١٦٠ عن التثنية

21- Inst. 3. 2. 6

الإنسان إلى معرفة الله . والسؤال الذى يطرح نفسه علينا هو الآتى :ـــ

ما هو مفهوم المصلح الفرنسى لمشكلة الوحى ؟ أهل يؤمن بأن الكتب المقدسة موحى بها من الله ؟

وهل الوحى هو وحى حرفى وإملائى ؟ ما هو سلطان الكتاب المقدس وإلى أى مدى يمتد هذا السلطان ؟ لقد تمسك كلفن تمسكاً شديداً بفكرة أن الكتاب المقدس موحى به من الله ، ويجب ان نعتبر نصوصه كما لوكانت قد خرجت من فم الله نفسه (٢٢) .

فهو يعتقد بأن الروح القدس نفسه كان يرشد لا بل كان يتكلم على فم كتّاب الكتاب المقدس ؛ فهو نفسه الروح الذى أرشد كاتب أيوب وإنجيل لوقا ورسائل بولس الرسول . فإن الروح هو الذى يتكلم على فم كتّاب العهدين ، وهو المصدر الأصلى لهذا الكتاب . وهنا يظهر الاختلاف بين مفهوم المصلح الألمانى لوثر الذى ميز بين الفصول التى تتكلم عن يسوع المسيح كفصول أساسية وموحى بها وبين بعض الفصول التى يعتبرها بناءة فقط .لا بل إنه يصف رسالة يعقوب بالقش . أما المصلح الفرنسى فهو يعتبر أن كل الكتاب هو.موحى به ولا فرق بين كتاب وكتاب ، ففى عظته رقم ١٤ عن توافق الأناجيل ، يقول عن ترنيمة زكريا ما معناه ، أن الروح القدس ليس مصدر هذه الترنيمة فقط ، بل هو مصدر الكتاب المقدس كله ويجب قبول ذلك . ولقد قبل بطريقة تكاد أن تكون حرفية النصوص الآتية (٢ تيمو ٣ : ١٦ ، ٢ بط : ١ : ٢٠ــ٢١) (٢٣) . ألم يكن موضوع وحى الكتاب المقدس هو السبب فى الصراع الذى نشب بينه وبين كاستيليو ؟ فان هذا الأخير شك فى أن سفر نشيد الإنشاد كتاب موحى به ، فلم يقبل كلفن هذا الخادم (المودرن) والمتطرف فى عقيدته الخاصة بوحى الكتاب . ورفض فعلاً كاستيليو من الخدمة (٢٤) .

22- Inst. 1, 7.1; Doumerque T.4, pp. 566...; Wendel 114-116
23- Stauffer 61-64;
24- Wendel 115-116

وفى تقديمنا لمفهوم كلفن للوحى يجب أن نطرح هذا السؤال : هل كان يؤمن كلفن بالوحى الحرفى أو بالوحى المعنوى ؟ هل كان الكاتب عبارة عن آلة بدون أى حرية ، ويكتب ما يمليه عليه الروح القدس ، أم إن الروح القدس ألهم الكاتب وتركه حراً فى استعمال طريقته وأسلوبه ؟

لقد انقسم العلماء إلى فريقين فى محاولتهم الإجابة على هذا السؤال . فهناك فريق تبنى التعاليم الكلفينية ونادى بها بطريقة حرفية فصار كلفنياً اكثر من كلفن نفسه . وهذا الفريق يعتقد أن المصلح الفرنسى كان يؤمن ويعلّم بالوحى الحرفى للكتاب المقدس ، وعلى رأسهم رينهولد سيبرج (Reinhold Seeberg) ثم م . هنتر (M. Hunter) وأتو ريتشل (Otto Ritschl) ، ثم جاكس فورستمان (J. Forstman) . على أن الفريق الآخر يعتقد بأن مصلح جنيف لم يعلم بوحى الإملاء أو الوحى الميكانيكى الآلى . ومنهم إميل دومرج (Emile Doumergue) وهـ . كلافيه (H. Clavier) ، ثم و . نيسل (W. Niesel) وفرانسوا فندل ، وآخرون كثيرون [٢٥] .

إن العالم فندل (F. Wendel) يعتقد أن كلفن نفسه لم يستعمل عبارة الوحى الحرفى لا بل على العكس، فإنهاستخدم بعض العبارات والاصطلاحات التى تشير بطريقة واضحة إلى أن الكتب المقدسة تحتوى فعلاً على كلمة الله ، ولكنها تشير فى الوقت نفسه إلى حقيقة أنها مرآة تعكس شيئاً مهماً ، وهذه المرآة لا تعطى لنا هذا الشيء المهم [٢٦] . فإن الكتب المقدسة هى أداة وآلة استخدمها السيد لإنارة أذهان المؤمنين[٢٧] .

أما العالم(Stauffer) الذى قام بدراسة وتحليل كل عظات كلفن تقريباً يتساءل

25- R. Stauffer 62-73-104

26- Inst. 3, 2.6, 27; Inst. 1, 9, 3

27- Wendel 116-118

قائلاً : من من الفريقين على حق ؟ هل الفريق الذى يؤيد أن كلفن كان ينادى بالوحى الحرفى أم الفريق الذى يعتقد بأن كلفن كان يعلم بالوحى المعنوى وغير الحرفى ؟ ويقول أستوفر ما معناه : مما لاشك فيه أن الفريق الذى يعتقد بأن كلفن كان يعلم بالوحى الحرفى للكتاب المقدس قد اقتبس بعض الاصطلاحات التى استخدمها المصلح فى معالجته لهذا الموضوع لكى يؤيد نظريته ؛ كقوله ان كُتَّاب الكتاب المقدس كانوا عبارة عن قناة أو أداة استعملها الروح القدس فى توصيل الكلمة ، وأن التعاليم الموجودة فى العهدين ليست من عندياتهم ولا من اختراع ذهنهم ، بل سلموا بأمانة ما قد أمرهم به السيد نفسه ، وهو الذى تكلم بروحه على أفواههم . فإن الله استخدمهم كمسجلين أو ككتبة لما أراد أن يعلنه للبشر ... ويؤكد الكاتب أن بالرغم من أن كلفن قد استعمل فعلاً هذه الاصطلاحات مثل كاتب ، مسجِّل ، أداة ، قناة .. لكنه لا يوجد فى أى عظة من عظاته ، كلمة إملاء : وحتى فى تعاليمه العقيدية لايستخدم هذا الإصطلاح . لقد كان همّ كلفن وشغله الشاغل هو أن يشرح حقيقة أن هذا الكتاب الذى يتميز بالسلطان العظيم الإلهى وهو كلمة الله ، ومصدره الروح القدس الذى كان يسيطر على كتّابه ويرشدهم ويحفظهم من الأخطاء الجوهرية العقيدية (٢٨) .

وعندما وصف كلفن كتّاب العهدين بأنهم كانوا كآلات أو قنوات أو مسجلين الخ ... فإنه أراد بذلك أن يبين بطريقة واضحة وصريحة طاعة هؤلاء الكتّاب وخضوعهم المطلق وتسليمهم الكامل الشامل للروح القدس الذى يرشدهم وينير أذهانهم ويقود أفكارهم . كان هدف كلفن الأساسى هو أن يبين أن الكتاب المقدس هو كلمة الله ، يعنى أن الله تكلم وكلمته وصلت إلينا ، ولكنه لا يصف لنا بالتدقيق الطريقة التى وصلت إلينا بها : هل أملاها الله كلمة كلمة وحرفاً حرفاً الخ ... أم أن الله استخدم هذه الآلات بطرق مختلفة ؟ ...

28- Stauffer 60-64; 73-104

وهنا يعترضنا سؤال آخر فى غاية الأهمية بالنسبة للذين يؤمنون بالوحى الحرفى . هل يعتقد كلفن بعصمة الكتاب المقدس ؟ أو بمعنى آخر هل الكتاب المقدس لا يحتوى على أخطاء علمية ، تتعارض مع العلم الحديث ؟

لقد تعرض كلفن لمعالجة هذه المشكلة فى تفسيره (تك ١ : ١٦) ، وتعاليمه العقيدية والوعظية . ويعتقد بأنه توجد بعض الأخطاء فى الكتاب المقدس ولكنه لايسميها أخطاء صدرت عن جهل الكاتب الذى أرشده الروح لكتابة هذه الأشياء ، بل أن هذه الاخطاء ترجع إلى جهل السامع نفسه فى ذلك الوقت بالحقائق العلمية . فإن الله استخدم أسلوباً بسيطاً ليس لجهله ، بل لجهل الإنسان ولعدم معرفته . ولكى يوضح هذا الأمر استعمل كلفن عدة أمثلة . فهو يمثل الكتاب المقدس بالمرضعة التى تحاول أن تمثل الطفل الرضيع الذى بدأ بلفظ بعض الكلمات بتلعثم . فالمرضعة تحاول فى كثير من الأوقات أن تتكلم بنفس الطريقة وتتلعثم مثل الطفل الرضيع ؛ ليس لأن المرضعة لا تستطيع أن تتكلم بطريقة صحيحة ، بل إنها تريد أن تنزل إلى مستوى الرضيع حتى يفهم وكذلك الأب الذى يستعمل نفس الطريقة لتعليم أولاده ، أو المعلم الذى يحاول ان يشرح معلوماته الكثيرة بطريقة مبسطة على مستوى التلاميذ الذين يسمعون [٢٩] . إن كلفن يعتقد أن الله استخدم بعض الأساليب والعبارات والمفاهيم السائدة المعروفة لكى يستطيع الإنسان أن يفهم قصده ورسالة الخلاص . فإن الكتاب يتكلم عن يمين الله ، عن حدقة عين الله ، عن أحشائه ، قدميه وظهره واصبعه الخ ... فهل لله حدقة عين أو وجه أو احشاء الخ ... ؟ إن الغرض من كل هذه العبارات هو توصيل الرسالة بأسلوب بشرى مفهوم لضعف الإنسان . وبناء على ذلك يستنتج كلفن بأن الاخطاء الموجودة فى الكتاب ترجع إلى ضعف الإنسان وليس لجهل الكُتّاب الذين كتبوا الكتاب ، لأن كتّاب الكتاب المقدس أرادوا أن يوصلوا رسالة السماء فى أسلوب وبأسلوب بشرى مفهوم .

29- Inst. 1, 13, 1; Stauffer 54-65: Wendel 116-120

إن كلفن تمسك تمسكاً شديداً بوحى الكتاب المقدس وسلطته المطلقة ، ومع ذلك فإنه يعترف بوجود بعض الأخطاء فى الكتاب . وهذا لايعنى بأى حالٍ من الأحوال أن الكتاب غير موحى به من الله بل إن الله استعمل فى الوحى الأساليب والمفاهيم السائدة فى ذلك العصر ، حتى ولو كانت هذه الأساليب والمفاهيم تحتوى على بعض أخطاء علمية ، حتى يفهم العالِم والجاهل رسالة محبة الله . وهنا أود أن أقف قليلاً عند هذه النقطة الخاصة بوحى الكتاب المقدس . توجد حالياً بصفة عامة — دون الدخول فى التفصيلات الدقيقة — ثلاثة تيارات تعليمية ، فيما يخص موضوع وحى الكتاب المقدس .

الجماعة الأولى : تتمسك بأن الكتاب المقدس موحى به من الله والروح القدس مصدره ومؤلفه من أوله إلى آخره ، وهو الذى أملاه كلمة كلمة على كاتبه . وبناء عليه ، لا توجد به أية غلطة أو خطأ ، فهو الكتاب المعصوم من الأخطاء ، وهم جماعة المحافظين جداً .

الجماعة الثانية : تنادى بأن الكتاب المقدس هو عبارة عن كتاب روحى ممتاز ، كتبه أناس قد شعروا بحاجة معاصريهم الروحية والاجتماعية والسياسية . ولذلك فقد حاولوا فى كتاباتهم ، وبعد تفكير طويل ، أن يقدموا حلولاً لمشاكل العصور التى عاشوا فيها . إن معظم هذه الحلول التى قدمها كتَّاب الكتاب المقدس لحل بعض مشاكل العصور التى كانوا يعيشون فيها ، صادر من تفكيرهم الخاص ، ومفهومهم للمشاكل الروحية والسياسية والاجتماعية التى كانوا يواجهونها . ولذلك فإن كثيرا من هذه الحلول التى قدمها هؤلاء الكتّاب كانت نافعة ومفيدة جداً لشعوب عصورهم . وهذه الجماعة تدعى بجماعة المتحررين أو العصريين .

الجماعة الثالثة : وهى جماعة المعتدلين : فهى تنادى بأن الكتاب المقدس هو كتاب إلهى — بشرى . ولكن ما معنى كتاب إلهى — بشرى ؟ المقصود بذلك هو أن الكتاب المقدس ليس كتاباً منزلاً من السماء ، قد أملاه الله كلمة كلمة وحرفاً حرفاً إلى كاتبيه ، مستعملا إياهم كآلات ، سجلوا ما قد أُملى عليهم بكل حذافيره ، بل إن الله فى محبته العظيمة وفى رحمته الأبدية وغير

المتناهية تحدث إلى الانسان بطرق مختلفة ومتنوعة (عب ١:١) ، ومنح لهذا الإنسان الذى سمع لصوته وأطاع لروحه القدوس هذا الكتاب لكى يوصل هو بدوره هذه الرسالة التى سمعها من الله واقتنع بها . وعندما أمر الله هؤلاء الكتَّاب أن يسجلوا كتابة أو وعظاً ما قد استلموه من الرب نفسه ، أحاطهم بعناية كافية ، واضعاً فيهم روحه القدس لكى يرشدهم ويحفظهم من السقوط فى الخطأ . فقام كتَّاب الكتاب ، بتسجيل هذه الكلمة المقدسة ، كلمة الله الحية ذات المفعول القوى العميق ، فسجلوها بأسلوبهم وتعبيراتهم الخاصة . وكان روح الله عاملاً فيهم وحافظاً إياهم من الخطأ ، ولكنه ترك لهم الحرية فى الكتابة والتعبير بأسلوبهم البشرى . وهذا ما يقوله القديس لوقا فى مقدمتى كتابيه : « رأيت أنا أيضاً اذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذى عُلمت به (لو ١:١ ـــ ٤ ، أع ١:١ ـــ ٣) . إن القديس لوقا يقدم لنا فى هذه السطور كتاباً إلهياً إنسانياً . يعنى ان الله هو الذى أخذ المبادرة ، هو الذى تكلم مع الإنسان وقاده بروحه وأرشده إلى الحق الإلهى ومنحه روحه لكى يكتب ما قد فهمه من الله . إن الكاتب لم يكتب من عندياته ولم يخترع ما قد كتبه : «عالمين هذا أولا أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص . لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس» (٢بط ٢٠:١ـــ٢١) . وكذلك القديس بولس يقول «كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذى فى البر ... ٢ تيمو ١٦:٣ .

إننا نؤمن بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله ، وأن مصدره هو الله نفسه الذى تكلم بطرق مختلفة ومتنوعة إلى البشر فى كل عصر وفى كل مكان . وعندما تكلم إليهم وأقنعهم بروحه حملهم مسئولية توصيل هذه الرسالة للآخرين . وعندما قام هؤلاء الكتَّاب بكتابة الرسالة كان روح الله يرشدهم ويحفظهم من الخطأ ، ولكنه ترك لهم حرية التعبير ، لكى يعبروا بأسلوب بشرى لأنهم بشر وكانوا يكتبون لبشر مثلهم . ولهذا السبب فإن كل كاتب استعمل أسلوبه الخاص وتعبيراته المحببة له ... بولس يختلف عن بطرس ولوقا

يختلف عن مرقس وهكذا ... كانوا كلهم مسوقين من الروح القدس الذى استخدم مواهب وأسلوب كل واحد ، معطياً له الحرية فى استعمال أسلوبه وموهبته ، بعد أن آمن وفهم جوهر الرسالة .

وهنا نرى العمل المزدوج ، فإن روح الله يقنع ويرشد ويحفظ من الخطأ ، الإنسان يقوم بعد ذلك بالكتابة عما آمن به وما أرشده به الروح .

لقد قام بكتابة الكتاب المقدس أناس مسوقين من الروح القدس . إن هؤلاء استعملوا أسلوبهم البشرى ، لأنهم تحدثوا إلى بشر وكان عليهم أيضاً أن يستخدموا ليس فقط أسلوباً بشرياً واضحاً بل كان عليهم أيضاً أن يستخدموا المفاهيم السائدة والمعروفة والمتفق عليها بأنها صحيحة فى ذلك الوقت ، علمياً وجغرافياً حتى ولو كانت غير صحيحة . ومن هنا تظهر مشكلة عدم اتفاق العلم والكتاب المقدس فى بعض النواحى ، فالكتاب المقدس يعلم مثلا بأن الأرض منبسطة مسطحة وليست كروية (أيوب ٩:٨ و٢٦:٩ ، إش ٤٢: ٥ ، ١٣:٥١ ، مز ٦:١٣٦ ، زكر ١:١٢)* .

والعلم ينادى بأن الأرض كروية . وهناك أمثال كثيرة أخرى تظهر بعض الاختلافات بين الكتاب المقدس والعلم .

وهنا يعترض البعض قائلا لو كان الله هو الذى أوحى بالكتاب لتجنب هذا الخطأ .

ورداً على هذا الاعتراض وعلى الاعتراضات الأخرى نقول : إن الكتاب المقدس ليس هو بكتاب علمى ولكنه رسالة الله المحب . وعندما أقول إنه ليس بكتاب علمى ، أقصد أن الكتاب المقدس لم يحاول ان يقدم لنا شرحاً واضحاً مفصلاً عن النظريات العلمية والجغرافية والتاريخية . فإن عالم التاريخ يحاول أن يقدم لنا بحثاً وافياً مدعماً بالوثائق والشواهد التاريخية والعلمية ، وكل همه أن لا

* ربما يعترض البعض بالقول بأن الكتاب المقدس يتكلم عن كروية الأرض عندما يقول «الجالس على كرة الأرض» (اش ٢٢:٤٠) . وهنا نريد أن نلفت نظر القارىء بأن ترجمة هذه الآية فى اللغة العربية غير دقيقة . فى معظم الترجمات الأخرى يقول الجالس على دائرة الأرض . أما الترجمات المسكونية فتقول «الساكن فى القبة التى تغطى الأرض .Tob.40) 22) . ومن المعروف أن معظم الترجمات العربية الموجودة لدينا ترجمت من حوالى مائة سنة . يعنى بعد اكتشاف كروية الأرض .

يخطىء فى أى رقم أو تاريخ أو حادثة من الحوادث . أما الكتاب المقدس فإنه رسالة الله المحب للانسان الخاطىء ، وكان همّ كتّاب الكتاب المقدس أن يقدموا لنا هذه الرسالة بأسلوب بسيط واضح . ولكى يكون هذا الأسلوب واضحاً وسهلاً ومفهوماً من عامة الشعب : من الجاهل ومن العالم ، فقد استعملوا المفاهيم السائدة المتفق على صحتها فى عصورهم المختلفة . إن جميع الشعوبْ التى وصلت إليها رسالة العهد القديم والجديد كانت تعتقد بأن الأرض . مسطحة منبسطة . ولو تكلم الأنبياء والرسل عن كروية الأرض لما فهم الناس كلامهم ولهذا فإن الكتاب استعمل أسلوباً بشرياً يتمشى وعقلية ومفهوم الناس الذين كان من المستحيل عليهم أن يفهموا غير ذلك .

إن النقطة الجوهرية فى موضوع الكتاب المقدس هى بأن الكتاب هو رسالة محبة الله للإنسان الخاطىء : فعندما أستلم رسالة من شخص محب أحاول ان أعرف ماذا يقول لى فى رسالته . ما هى الاخبار التى تحملها لى هذه الرسالة ؟

لايهمنى إذا كان الكاتب المحبوب يرفع المنصوب وينصب المرفوع . إن أهم ما فى الرسالة هو الشخص الذى أحبه والذى يحبنى ، وفى هذه الرسالة يعبر لى بأسلوبه الخاص عن حبه لى : هذا هو الهدف الأساسى للكتاب المقدس إنه «كتاب الله» ، إنه رسالة الله . إن الله نفسه يتكلم فى هذا الكتاب إلىّ . على أى حال إن هذا الموضوع يحتاج إلى كتاب مستقل . ولنرجع الآن إلى كلفن .

الكتاب المقدس والروح القدس

يعتقد كلفن أن الله قد غرس فى قلب كل إنسان بذور الديانة أو الاعتقاد بوجود الله . ولكن هذا الوحى الطبيعى غير كافٍ لقيادة الإنسان لمعرفة الحق ومعرفة الله الفادى . إن الكتاب المقدس هو الذى يعلمنا عن وجود الله المحب المعتنى الذى فدانا فى يسوع المسيح . فبدون الكتاب المقدس لا يمكن للإنسان أن يصل إلى هذه الحقيقة العظيمة .

ولكن بدون تأثير الروح القدس لايمكن للإنسان أن يدرك أن الكتاب المقدس هو كلمة الله : ويشدد المصلح الفرنسى على ضرورة عمل الروح القدس فى قلوب الناس لكى يؤمنوا برسالة الكتاب المقدس . فبدون تأثير الروح القدس وعمله فى قلب الإنسان يصبح الكتاب المقدس بدون فائدة . ولذلك يقول كلفن ما ملخصه : ولأجل هذا السبب فمن الضرورى بأن نفس الروح الذى تكلم بفم الانبياء ، يدخل فى قلوبنا ويلمسها بشدة لكى يقنعها بحقيقة أن الأنبياء نطقوا فعلاً بما قد أمروا به من قول [٣٠] فكما أن الإنسان الذى لم يصل اليه الوحى الطبيعى لايمكنه أن يدرك أو أن يعرف الله الآب والمخلص والفادى يسوع إلا عن طريق الكتاب المقدس ، فهكذا أيضاً الحال بالنسبة للإنسان الذى يدرس الكتاب المقدس ويغترف كل فصوله ، دون أن يلمسه الروح القدس . فإن الروح القدس وحده هو الذى يفتح عين الإنسان وعندئذ يرى بنوره نوراً . ففى عظته رقم ١٩ عن دانيال يقدم الإنسان كأصم وأعمى وغبى ، كجزع شجرة لايحس ، فهو منغمس فى الظلام الحالك . والروح القدس وحده هو الذى يمسح آذانه فيسمع ويزيل الغشاوة عن عينيه فيبصر والغباء من عقله فيفهم ، وهذا ما يسميه كلفن بعمل الروح السرى . وفى عظته رقم ٣٠ من نفس السفر يشرح بأن الروح القدس هو الذى يوقظ قلوبنا من نومها . إن الروح القدس يعمل فى المختارين لكى يؤكد لهم بنويتهم واتصالهم بالمسيح .

فعن طريق شهادة الروح القدس فى داخلنا نستطيع أن ندرك بأن الله يتكلم إلينا كل يوم فى الكتاب المقدس ، وتصبح شهادة الكتاب شهادة حقيقية وصحيحة وفعالة ، عندما يصطحبها الروح القدس بعمله وتأثيره [٣١] .

إن كلفن يعطى أهمية كبرى للروح القدس وعمله فى الإنسان . وبدون عمل الروح القدس يصبح الكتاب المقدس كأى كتاب آخر . صحيح أن الكتاب المقدس يكلمنا عن الله الآب والله الابن والله الروح القدس ، وبدون الكتاب لايمكننا أن ندرك هذه الحقائق . وبالرغم كم ذلك فإنه بدون عمل

---

٣٠ ــ عظته رقم ١٩ عن دانيال

٣١ ــ عظته رقم ٣٠

الروح القدس فى المؤمن لا يمكن للإنسان أن يعرف هذه الحقائق . فمع أن الكتاب المقدس يكلمنا عن الروح القدس إلا أن هذا الأخير هو مصدر الكتاب المقدس . فقبل أن يكون الكتاب فان الروح القدس منذ الأزل كائن وموجود .

فإن روح الله كان يعمل فى الناس بطرق مختلفة متنوعة ، قبل أن يُعرف أو يُكتب الكتاب المقدس . ومازال أيضاً يعمل الآن فى قلوب الناس ، مستخدماً الكتاب المقدس .

وفى علاجه لموضوع الكتب المقدسة وعمل الروح القدس يتعرض لجماعة المعمدانيين الذين ظهروا فى عصره وانتشروا فى ألمانيا وقاوموا الكثير من تعاليم لوثر والإصلاح .

فلقد رفضت هذه الجماعة عماد الأطفال . كما أنها علّمت أيضاً بأن الروح القدس يعمل فى المؤمنين فى كل يوم وفى كل ظرف من ظروف الحياة ، فلا داعى إذن للرجوع إلى الكتاب المقدس لأنه كتاب قديم ، ولايتحدث عن ظروفنا الحديثة واليومية التى نعيش فيها . وبناء على ذلك فإن مكانته ما هى إلا مكانة ثانوية .

أما الروح القدس فهو يعرف أحوالنا وظروفنا ويأتى لمساعدتنا . ولذلك يجب الاعتماد الكلى والجزئى على الروح القدس وليس على الكتاب المقدس . وهنا يتساءل كلفن قائلاً : ممن تعلموا هذه التعاليم الخاصة بالاعتماد على الروح القدس دون الرجوع إلى الكتب المقدسة ؟ هل من الرسل أم من الكنيسة الأولى ؟ ويواصل شرحه مبينا أن الرسل وكذلك الكنيسة الأولى كانوا يرجعون دائماً إلى الكتب المقدسة (إش ٥٩:٢١) . ألم يحث الرسول بولس تلميذه تيموثاوس على درس الكتب المقدسة لأنها نافعة للتعليم والتهذيب .... (١ تيمو ٤:١٣ ، ٢ تيمو ٣:١٦ ، يو ١٦:١٣ ، ٢ كو ٣:٦ ، ٨) . إن عمل الروح القدس هو أن يفتح قلب وذهن الإنسان لكى يفهم المكتوب : فهو الذى فتح ذهن تلميذى عمواس وبقية التلاميذ ، ففهموا المكتوب (أع ٥:١٩ — ٢٠ ، لو ٢٤:٢٧) .

وهنا ينبر كلفن على ضرورة الكتب المقدسة التى يستخدمها الروح القدس لقيادة المؤمن . ويتعرض المصلح لنقطة أخرى فيما يختص بسلطان الكتاب المقدس وهى : هل يستمد الكتاب المقدس سلطانه من الكنيسة أم أن الكنيسة تستمد سلطانها من الكتاب المقدس . ويقول بأن الكنيسة نفسها مؤسسة على شهادة الأنبياء والرسل (أف ٢ : ٢٠) فإن وجود الأنبياء والرسل سبق وجود الكنيسة . وإن وجود الروح القدس سبق وجود الأنبياء والرسل . وبناء عليه فإن الكنيسة تستمد سلطانها من الكتاب المقدس وليس العكس .

الفصل الثانى

تعاليمه عن الثالوث

ما هو مفهوم كلفن لعقيدة الثالوث ؟ عندما ندرس كتابه الأول «أسس الديانة المسيحية» الذى ظهر فى سنة ١٥٣٦ ، نلاحظ بأن المصلح الفرنسى قد علم بعقيدة الثالوث وإن كان لم يقف طويلا عند هذه المشكلة ، ولكن عندما ظهر «ميشيل سرفه» وانتشر تعليمه ضدها بدأ كلفن فى الكتابة بتوسع فى هذا الموضوع .

كما أن صراعه فى جنيف مع بطرس كارولى (Pierre Caroli) فى ١٥٣٧ دفعه إلى دراسة هذه العقيدة والتعمق فيها . لأن كارولى قد اتهم المصلحين فارل وكلفن بأنهما ينكران التعليم بالثالوث . وهذا اتهام غير حقيقى لأن كلفن كان قد نادى بهذه العقيدة قبل احتجاج كارولى .

لقد رفض «سرفه» عقيدة الثالوث لأنه كان يعتقد بأن هذا التعليم غير منطقى وعثرة لبعض المسيحيين ولكل الديانات غير المسيحية . كما أنه رأى فيها أيضاً انقساما لجوهر الله : الله غير المنقسم . ويجاوب كلفن على هذا الاعتراض الخاص بتقسيم جوهر الله بأنه لا يعلّم بعدة جواهر فى الله المثلث الأقانيم ، بل إنه نادى بجوهر واحد ، على أن هذا الجوهر الواحد غير المنقسم موجود فى ثلاثة أقانيم لأنه اله واحد وجوهر واحد [1] .

فإن الله الاب لا يختلف عن الله الابن أو عن الله الروح القدس فى الجوهر ، لأنهم جوهر واحد فى ثلاثة أقانيم متميزة . وهذا ما يميز الله الحقيقى المثلث الأقانيم عن آلهة الديانات الأخرى .

1- Inst. 1,13. 1-3; Wendel p. 122-125

ولكى يثبت كلفن بأن المسيح هو من نفس جوهر الآب ، يرجع إلى قول الرسول : «الذى وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته» ... عب ١ :٣ . ثم يشرح عبارة رسم جوهره : بأن المسيح عبارة عن الشمع الذى ختم بخاتم الآب ؛ إن صورة الله الآب انطبعت على هذا الشمع [٢] . فالمسيح هو الصورة الحقيقية والأصلية لله الآب لأنه من ذات جوهر الآب . فلا يوجد إذاً فرق فى الجوهر الواحد ، بل تميز بين الأقانيم الثلاثة . ولكى يميز بين الأقانيم الثلاثة استعمل المصلح اصطلاح كيان substance وهو تقريباً نفس الكلمة اليونانية (Hypostasis) هيبوستاسس والتى تعنى كيان ، والتى استخدمها الرسول فى (عب ١ :٣) . فإن هذا الاصطلاح «كيان» يبعدنا عن الانزلاق فى عقيدة التثليث . فعندما نقول بأنه يوجد ثلاثة أقانيم فى الاله الواحد ، لا نقصد بذلك التثليث ، أى وجود ثلاثة أشخاص أو ثلاثة آلهة ، بل نعترف بإله واحد فى ثلاثة أقانيم ، متميزين الواحد عن الآخر . ومع أن هؤلاء الأقانيم الثلاثة هم من جوهر واحد لكنهم يتميزون الواحد عن الآخر . فلا نقول بأن الآب هو الابن أو الابن هو الروح القدس أو أن الروح القدس هو الآب [٣] . ولكن عندما نستخدم الاصطلاح «الله» مجردا من التمييز يمكن تطبيقه على الأقانيم الثلاثة . وعند التحديد والتمييز نقول الله الاب ، الله الابن ، الله الروح القدس [٤] . فإن هذا التمييز لا يعنى بأى حال من الأحوال تقسيم أو فصل جوهر الله إلى ثلاثة أجزاء كما اعترض بذلك ميشيل سرفه . والكتاب المقدس يتكلم بوضوح وصراحة عن التمييز بين الآب والابن وكلمته وبين الآب والروح القدس [٥] . فلقد تميز الابن بصفات خاصة تميزه عن الآب وعن الروح القدس ، وكذلك الروح القدس له أيضاً مميزات تختلف عن مميزات الابن والله الآب . فإن الآب هو الذى خلق كل

2- Inst. 1.13.2

3- Inst. 1.13. 5

4- Inst. 1.13.18-20

5- W. Niesel. 54-60

شيء عن طريق الابن الكلمة الذى خرج منه ، وإن الذى نزل على الأرض والذى مات وقام من بين الأموات هو الابن ، وليس الآب ، وإن الذى انبثق من الآب والابن هو الروح القدس [٦] . ويواصل كلفن شرحه لعلاقة الأقانيم الثلاثة ، مبيناً أن الآب هو مصدر كل شيء والخالق لهذا الكون ، وأما الابن فهو الكلمة الذى نطق به الله خالقاً لهذا الكون كما أنه الحكمة والمشورة ، وأن الروح القدس هو صاحب القوة والفاعلية والتأثير .

فمع أن أزلية الآب هى نفس أزلية الابن والروح القدس ، ومع ذلك فإنه يوجد نوع من الترتيب : فإن الآب يذكر أولاً والابن ثانياً وأخيراً الروح القدس المنبثق من الاثنين . ولأجل هذا السبب يقال بأن الابن خرج من الآب ، وأن الروح هو روح الواحد أو الآخر . والأصحاح الثامن من رومية يدعوه مرة روح المسيح ومرة أخرى روح ذاك الذى أقام يسوع المسيح من الأموات ، والذى تكلم به الأنبياء . كما أن الكتاب المقدس يعلم بأنه روح الله (٢ بط ١ : ٢١) [٧].

ولكى يبرهن كلفن على وجود الثالوث يشير فى عظته رقم ١ من سفر التكوين إلى ان كلمة الوهيم (الله) مستعملة فى صيغة الجمع ... وقال الله نعمل الانسان[٨] بل إن هذا الاصحاح يتكلم بطريقة واضحة عن الثالوث ، فهو يقدم الله الآب خالقاً ، وروح الله يرف على وجه المياه . كما أن سفر العبرانيين يقدم لنا أيضاً الابن مشتركاً فى الخليقة (عب ١ : ٢) .

وتوجد شواهد كثيرة أخرى تشير إلى الثالوث : « ونعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب وشركة الروح القدس .. » .

كما أن حادثة عماد الرب يسوع المسيح دليل واضح أيضاً على الثالوث ، حيث نسمع صوت الآب ونرى الابن أثناء العماد والروح نازلاً

6- Inst. 1.13. 16-19
7- Inst. 1.13. 17-18
8- Stauffer 16-180

على الابن على هيئة حمامة (مت ٣ : ١٣ — ١٧) . ثم ألم يوصى السيد نفسه تلاميذه بأن يعمدوا باسم الآب والابن والروح القدس (مت ٢٨:١٩) [٩].

ان جوهر الله بسيط ولكنه يحتوى على ثلاثة أقانيم ، وكل أقنوم لاهوت ولكن ليسوا بثلاثة آلهة . وحاول كلفن بأن يثبت بأن الابن والروح القدس يتمتعان بدرجة اللاهوت التى يتمتع بها الآب . فعندما حاول أن يثبت لاهوت الروح القدس رجع إلى فصول كتابية كثيرة ومنها توبيخ بطرس لحنانيا « لتكذب على الروح القدس .. أنت لم تكذب على الناس بل على الله » (أع ٥: ٢ — ٤ ، إش ٦ : ٩ — ١٠ ، أع ٢٨ : ٢٥ — ٢٦) . إن كلفن يعطى دوراً هاماً جداً فى تعاليمه لعمل الروح القدس . فهو الروح الذى يعمل فى قلوب الذين سبق فاختارهم للحياة الأبدية فيقودهم ويرشدهم ويفتح عيونهم لقبول المسيح كمخلص . فإن لم يعمل الروح القدس فى قلوب الناس يصبح الوعظ والكتاب بلا تأثير وبدون نتيجة . وهنا ينبر المصلح على حقيقة أن الروح القدس ليس صفة من صفات الله ، ولا حتى عطية من عطايا الخالق ، بل إن الروح القدس هو الله نفسه والموزع لعطايا الله . فهو الذى يهب الحكمة والذكاء والقوة والنور ، كما أنه هو الروح المعزى (يو ١٤ : ١٦ ، ١٥ : ٢٦) . فالروح القدس هو الله . وكما ان كلفن يعترف بلاهوت الروح القدس فإنه يحاول ايضاً أن يثبت لاهوت الابن .

فما هو مفهوم كلفن لشخص الرب يسوع المسيح ؟

ان هذا الموضوع وحده يحتاج إلى كتاب خاص لمعالجته ولكننا سنحاول أن نتعرض للخطوط العريضة فقط : إن المصلح الفرنسى يؤمن إيماناً ثابتاً بأن الابن ولد من الآب قبل كل الدهور ، ووجوده يسبق كل وجود . فيه وبه خلق الله كل الأشياء (يو ١ : ١ — ٥ ، عب ١ : ٢ — ٣) .

9- Inst. 1.13. 17-19

فعندما ثبت الله السماوات ، وعندما رسم دائرة على وجه الغمر ، كان الابن أو الكلمة هناك عاملاً وخالقاً أيضاً مع الله الآب (أم ٨ : ٢٢ — ٣٠) . ويرفض كلفن بشدة النظرية القائلة بأن الكلمة بدأ وجوده عندما فتح الله فمه خالقاً : لأنه فى هذه اللحظة فقط وليس قبل ذلك نطق الله كلمته من فيه فصار الكلمة .

ويرفض المصلح هذه النظرية قائلا ما ملخصه : إن ظهور شيء ما فى حيز الوجود فى وقت معين محدد لايعنى بأن هذا الشيء لم يكن موجوداً قبل هذا الوقت . إن مجد الابن كان عند الآب قبل تأسيس العالم (يو ١٧ : ٥) ، لا بل إنه من البدء : أى قبل بداية كل بداية والابن موجود عند الله ، « وكان الكلمة الله » [١٠] . وبهذا يرفض أيضاً تعاليم أريوس الذى نادى قائلا بأنه يوجد وقت ما لم يكن الابن موجوداً فيه [١١] . وهذا ما علم به أيضاً ميشيل سرفه ، إذ أنه لم يقبل أبدية الابن . أما مصلح سويسرا ، فقد علم بوجود الابن منذ الأبد مع الآب والروح القدس .

إن كلفن يشير إلى نقطة أخرى فى حديثه عن الكلمة ؛ فهو يعتقد بأن الابن أو الكلمة قد ظهر بطرق مختلفة متنوعة لآباء العهد القديم : فهو الذى ظهر على شكل ملاك لمنوح ، فقال له الرب « لماذا تسألنى عن اسمى وهو عجيب » (قضاة ١٣ : ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ....) ، « نموت موتاً لأننا قد رأينا الله » (قضاة ١٣ : ٢٢) . فإن الذى ظهر لمنوح فى هيئة ملاك هو الكلمة ، كما إنه يعتقد أيضاً بأن الذى ظهر ليعقوب وصارع معه الليل كله هو الكلمة ، ويعقوب يقول « .. لأنى نظرت الله وجها لوجه .. » (تك ٣٢ : ٢٩ — ٣٠ ، هو ١٢ : ٤) . ونفس الكلمة هو الذى كان يقود الكنيسة فى الصحراء « ... والصخرة كانت المسيح ... » (١ كو ١٠ : ٤) . وهو نفس الكلمة الذى يدعوه إشعياء « الله القدير » (اش ٩ : ٥) ، وكذلك ايضاً

10- Inst. 1.13. 8-9

(١١) — الدكتور القس / حنا جرجس «تاريخ الفكر المسيحى » المجلد الاول من صفحة ٦١٧ — ٦٤٠

(مز ٤٥ : ٧ ، إر ٢٣ : ٦ ، ٤٢ : ٨ ، ١٧ : ١٥ ، إر ٣٣ : ١٦ ، إش ٧ : ١٤ ، ٩ : ٦ ــ ٧ ، ١١ : ١ ــ ٥).

وعندما جاء ملء الزمان صار هذا الكلمة عينه انساناً وحل بيننا ورأينا مجده . إن يسوع الناصرى الذى وُلِدَ من مريم العذراء بطريقة معجزية هو الابن الأزلى ؛ هو الله الذى ظهر فى الجسد ، « عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد » . وعندما تَقابَلَ هذا الكلمة الابن الوحيد ، مع جماعة من الناس غيَّر حياتهم وملأهم بروحه القدوس ، فعلَّموا بعد قيامته بلاهوته . وشدد كلفن على حقيقة أن الرسل قد نسبوا إلى يسوع المسيح ما يمكن نسبته لله لأنهم آمنوا بلاهوته [١٢] (إش ٨ ، ١٤ ، رو ٩ : ٣٢ ، رو ١٤ : ٢٣ ، رو ٩ : ٥ ، ١ تيمو ١ : ١٧ ، ١ يو ٥ : ٢٠) . وأنه لم يختلس معادلته لله بل كان فعلاً معادلاً له (فى ٢ : ٦) .

ولذلك فهو يقول بأن الرسل علموا بلاهوته لأن الروح فتح عيونهم وقلوبهم فعرفوه بأنه هو رب المجد ، ولقد أدركوا أعماله الإلهية فى حياته وتصرفاته ومعجزاته . وكانت المعجزات دليلاً صارخاً لإظهار لاهوته . فمع أن الرسل والأنبياء قاموا هم أنفسهم بعمل معجزات خارقة للطبيعة ، تشبه المعجزات التى قام بها المسيح ، إلا أن الطريقة التى أجرى بها السيد هذه القوات كانت تختلف تماماً عن الطرق التى استعملها الأنبياء والرسل . فمع أن السيد كان يصلى فى بعض الأحيان قبل إجراء المعجزة ، إلا أنه قام بكثير من المعجزات دون أن يصلى . إن الأنبياء والرسل كانوا يقومون بعمل المعجزات بعد أن يطلبوا من رب المعجزات أن يتدخل فتحدث المعجزة . أما المسيح فلم يفعل المعجزات فحسب بل منح أتباعه سلطاناً لعمل المعجزات لأنه كان هو نفسه رب المعجزات (مر ١٥:٣ ، ٧:٦ ، مت ٨:١٠ ، لو ٤٩:٨ ــ ٥٥)[١٣].

12- Inst. 1.13. 11
13- Inst. 1.13. 11-12

ويتساءل كلفن قائلا من يستطيع أن يجسر بعد ذلك ويقول بأن المسيح مجرد إنسان مخلوق ؟ (١٤) . كان المصلح الفرنسي يؤمن إيماناً ثابتاً بلاهوت المسيح . ففيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً (كو ٢ : ٩ ، يو ١ : ١ — ٣ ، رو ١ : ٣ ، غلا ٤ : ٤ ، فى ٢ : ٦ — ٧ ، ١ تيمو ٣: ١٦) . إن هذا الكلمة الذى كان فى حضن الآب والذى له أيضاً مجده الذاتى عند الله (يو ١٧ : ٥) والذى كان يسكن فى جوهر الله الآب هو الأقنوم الثانى فى الثالوث . وفى حديثه عن الثالوث يسرد كلفن آراء آباء الكنيسة فى هذا الموضوع . فلقد عرض مفهوم القديس الشهيد يوسينيتوس وايريناوس وترتليانوس وهيليروس وأغسطينوس وآخرين كثيرين ، وكيف أن هؤلاء الآباء تمسكوا تمسكاً شديداً بعقيدة الثالوث (١٥) .

ولقد أظهر كلفن فى شرحه لأفكار الآباء سواء مما يلمس مشكلة الثالوث أو أى مشكلة أخرى عقيدية ، براعة عظيمة ومعرفة شاملة وتعمقاً نادراً لدراسة وفهم كتابات الآباء واصطحبه هذا التحمس كل حياته للغوص فى كتاباتهم لاستخراج اللآلىء الثمينة المدفونة فيها ، وإلقاء الغث منها جانباً . ونحن فى حاجة ماسة ، وخاصة فى كنائسنا الإنجيلية الشرقية وفى العصر المسكونى ، إلى دراسة واعية علمية لكتابات الآباء الشرقيين والغربيين . وما دمنا بصدد الحديث عن الاقنوم الثانى فى الثالوث فى مفهوم كلفن ، يجدر بنا أن نلقى نظرة على عمل ووظائف شخص ربنا يسوع المسيح كما فهمها المصلح الفرنسي .

يعتقد كلفن بأن الله خلق الإنسان طاهراً نقياً خالياً من كل خطية وعيب ، وأن طبيعته نبيلة سامية ، وكان يتمتع بالذكاء والفهم السليم والحرية الكاملة . ولقد جمله الله بمواهب عظيمة سامية (١٦) . ولكن بالرغم من كل الامتيازات التى منحت لآدم ، وبالرغم من كل الظروف المناسبة التى كانت تعمل فى صالحه ومساعدته على النمو فى النعمة ومعرفة الله الخالق المحب ، فقد

14- Inst. 1, 13, 13-14

15- Inst. 1, 13, 22-29

16- Inst. 1.15.3; Mac Dominice; l'humanité de Jésus d'aprés Calvin Paris. 1933

ابتعد عن خالقه بأن عصى أمره وتعدى على وصيته . وبناء على ذلك فقد سقط إلى مهاوى الحضيض والخطية . وبهذا السقوط شوه آدم لا بل أفسد المواهب التى منحها له الخالق ، من ذكاء وتفكير سليم وقوة على الإنتاج ونمو فى المعرفة والتقدم . كل هذه المواهب لم تتلاشى تماماً بسبب السقوط ، إلا أنها تلطخت وتنجست فى كثير من المجالات والأعمال ، لأنه بسقوطه شوه صورة الله التى خلق عليها [١٧] ، وصار عاجزاً عن الوصول إلى حالة البر والقداسة ، وعلاقة الشركة مع الله التى كان يتمتع بها قبل ذلك . ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق عمل الروح القدس ، والرجوع الكامل إلى الله بالتوبة والتجديد .

ولقد استعمل الله طرقاً عديدة وكثيرة لكى يرجع إليه هذا الإنسان الساقط المتمرد ، ومنها الناموس والأنبياء . ومن ضمن الوسائل التى استخدمها الله أيضاً لإرجاع الإنسان هى إرسال يسوع المسيح . فقد سبق أن رأينا أن عملية السقوط شوهت الإنسان وطبيعته فأصبح الإنسان خاطئاً بشعاً ومبتعداً عن الله . كما أن الله أصبح هو أيضاً بدوره مرعباً مخيفاً ومكروهاً من الإنسان ، لأن قداسته وبره وأحكامه أخافت الإنسان [١٨] . كان الله غاضباً على فجور الناس وإثمهم ، وكان الإنسان هارباً وتائهاً على وجه الأرض ولا يوجد من يصالحهما : « ليس بيننا مصالح يضع يده على كلينا .. » (أيوب ٩ : ٣٣) . فمن إذاً يستطيع أن يقترب من هذا الإله الغاضب على فجور الإنسان ، وإثمه . ومن يستطيع أن يرد هذا الإنسان المتمرد العاصى ؟ لقد استعمل الرب فى محبته وسائل كثيرة عديدة ؛ أرسل أنبياء ووعاظاً ومبشرين . وعندما فشل هؤلاء جميعهم ، لم يفشل الله الآب ولم تفتر محبته من ناحية الانسان العاصى المتمرد . فقد أرسل فى آخر الأيام ابنه الوحيد ، لكى يكون وسيطاً بين الله الغاضب على إثم وخطية الإنسان وبين هذا الإنسان الهارب من وجه الله والرافض يده الممدودة كل يوم لمصالحته . قام يسوع إذن بعملية الوساطة بين الاثنين . وفى عرضه لعمل الوسيط ، حاول

17- W. Niesel 80-82
18- Inst. 2.6.4; 2.12.1; Wendel 160-165; Niesel 112

كلفن أن يبين أن الوسيط الذى يقوم بهذه المهمة الالهية البشرية ، يجب أن يكون إلها وإنساناً معاً . وكان على الإله العالى السامى المرتفع أن يتنازل إلى مستوى البشر ، لأنه من الصعب على الإنسان الذى يعيش فى الحضيض والخطية والإثم أن يصعد من نفسه وبنفسه إلى عظمة وسمو الله (١٩) كانت الهوة التى تفصلنا عن الله شاسعة لا تعبر ، والفوارق بينه وبيننا عديدة وضخمة ، ولم يكن فى مقدور الإنسان ولا فى سلطانه أن يعبر هذه الهوة أو أن يتخطى هذه الفوارق . فعندما وقف الإنسان عاجزاً فاشلاً أمام هذه الهوة والفوارق ، جاء الله نفسه الإله العظيم السامى متنازلاً إلى أرضنا .

صار واحداً منا كعبد (أف ٢ : ٥ — ١١) ، لكى يحررنا نحن الذين كنا عبيداً للخطية والإثم . كان من الضرورى إذاً أن يصير الله إنساناً ، أى أن يكون الوسيط إلهاً وإنساناً معاً ، حتى يستطيع لكونه إنساناً أن يضمن لنا وعد الحياة الأبدية ، وأن يكون إنساناً حتى يأخذ مكان الإنسان العاصى المتمرد أمام الله ، مكفراً عن خطايا وتمرد هذا الإنسان العاصى بطاعته ؛ ومنفذاً إرادته فى حياته وفى موته . إن يسوع المسيح قدم نفسه للآب كذبيحة طاهرة لا عيب فيها ولا دنس ، تكفيراً عن خطية الإنسان وإثمه وبتقديمه نفسه ذبيحة بلا عيب ، استطاع أن يهدىء غضب الله ضد فجور الناس وإثمهم ، وأن يكفر فى الوقت نفسه عن هذا الفجور والإثم . فأصبح الإنسان الخاطىء مبرراً أمام الله . ولم يصل الإنسان المختار إلى هذه الحالة إلا بعد أن أخذ المسيح مكانه . إن الكلمة صار إنساناً ، وهذا ضمان لنا وضمان لارتباطنا به ، لأنه صار لحماً ودماً مثلنا . فمقابلته لنا فى هيئة بشرية ملموسة محسوسة أزالت الفوارق الشاسعة الواسعة ، والعداوة القائمة بيننا وبين هذا الإله — الإنسان الذى استطاع أن يتحمل قصاص خطايانا ، وأن يحررنا منها إلى التمام . لقد كسر شوكة الموت وانتصر عليه ووهب لنا نصرته هذه ، كما لو كانت نصرتنا نحن (٢٠) . يتعرض كلفن بعد ذلك لعمل أو وظيفة هذا الوسيط ، محدداً الوظائف التى يقوم بها فى ثلاث :

19- Inst. 2.6.4; W. Niesel 110-113
20- Inst. 2.12. 2-3; W. Niesel 114-118

١ ــ المسيح النبى

٢ ــ المسيح الملك

٣ ــ المسيح الكاهن

إن الذى يدرس كتب «أسس الديانة المسيحية» يلاحظ أن كلفن لم يتعرض لشرح هذا الموضوع فى الطبعة الأولى التى ظهرت فى بازل سنة ١٥٣٦ . ولكنه بدأ فى معالجته فى طبعة سنة ١٥٣٩ ، ثم خصص له فصلاً خاصاً أيضاً فى طبعة سنة ١٥٥٩ . ويبدو أن كلفن استوحى الفكرة من المصلح بوسر ، الذى تكلم عن وظائف المسيح فى تفسيره [٢١] .

١ ــ المسيح النبى : يقول كلفن ما معناه أن كلمة مسيح تشمل هذه الوظائف الثلاث . لأن كلمة المسيح تعنى الممسوح أو المفروز لعملى معين . فقد كان من المتبع أن يُمسح الملك وكذلك الكاهن والنبى ، علامة على تعينهم أو تخصيصهم للوظيفة التى سيقومون بها .

ويعتقد كلفن أن النبوة التى قرأها المسيح فى أول خدمة وعظية قام بها فى مدينة الناصرة : « روح الرب علىّ لأنه مسحنى لأبشر المساكين ... » (لو ٤:١٨ ــ ٢٠ إش ٦١ : ١ ــ ٢) . كانت إعلاناً بمسحته لهذه الخدمة المقدسة ، وأن خدمة النبوة تعنى خدمة التعليم . لقد مسح السيد لكى يكون واعظاً ومعلناً للحرية المسيحية الجديدة ، مكسراً السلاسل التى قيدت وما زالت تقيد أرجل وأيدى الأسرى أنى وجدوا ، بغض النظر عن هويتهم . إنه مسح لكى يدعو الناس إلى التوبة وإلى حياة البر والقداسة [٢٢] .

٢ ــ المسيح الملك فمع أن المسيح هو ملك الملوك ورب الأرباب ، إلا أن ملكه ملك روحى . وهذا المُلك ينتشر فى قلوب المؤمنين الذين يرشدهم ويقودهم الروح القدس إلى الحياة الأبدية . وفى قيادتهم للحياة الأبدية ، وفى أثناء رحلتهم المتعبة المرهقة يقوم بمرافقتهم ومساندتهم لكى يتحملوا بشجاعة وصبر

21- Wendel 169

22- Inst. 2.15. 1-2; Wendei 169-172

متاعب الحياة وأعباءها المتنوعة المختلفة من برد وحر ، وجوع وعطش . وهكذا يسير معهم إلى أن تنتهى تماماً حروبهم وينتصروا انتصاراً نهائياً على الشيطان وعلى العالم (٢٣) .

٣ ــ المسيح الكاهن

لم يكن فى استطاعة كاهن العهد القديم أن يتقدم إلى المذبح بدون دم أو تقدمة ، لكى يحصل على الغفران لنفسه وللشعب أيضاً . والمسيح رئيس كهنتنا الجديد يمثل الكاهن والذبيحة فى نفس الوقت . فلقد قدم نفسه كحمل بدون عيب لله الآب الذى قبل ذبيحته العظمى . فبذبيحة نفسه استطاع أن يطهرنا من آثامنا وخطايانا (١ بط ١٧ : ٢٣) وأن يهدىء غضب الله ضدنا ويزيل العداوة القائمة بينه وبيننا . ولأننا صولحنا مع الله بموت ابنه فبشفاعته أيضاً نستطيع أن نقترب إليه وأن نرفع له الصلاة بثقة وإيمان وضمير مستريح متمتع بالسلام . ويعتقد كلفن أن المسيح استطاع أن يحصل لنا على رضى الله والمصالحة معه بحياته المثالية وطاعته الكاملة لله الآب (٢٤) .

تعاليمه عن الطبيعتين : ــ

وقبل أن نترك موضوع الأقنوم الثانى ، يحسن بنا أن نقدم مفهوم كلفن لمشكلة الطبيعتين فى شخص المسيح . فهل للمسيح طبيعة واحدة أم طبيعتان ؟ وكيف فهم كلفن مسألة اتحادهما ؟

فى الفصل الرابع عشر من الكتاب الثانى ، يقتبس كلفن قول يوحنا الرسول « والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب ... » (يو ١ : ١٤) وهى نفس الآية التى رجع إليها كثيراً كل من القديس كيرلس الإسكندرى ونسطوريوس فى صراعهما الكرستولوجى * . وكلفن يعتقد بأن صيرورة الكلمة جسداً لا يعنى بأى حال من الأحوال أن الكلمة تحول أو أو تغير فى جوهره إلى جسد عندما أخذ هذا الجسد البشرى من بطن العذراء

23- Inst. 2.15. 3-5; Wendel 169-172; Ronald S.Wallace, Calvin's Doctrine of the Christian Life 1959-3-23

24- Inst. 2.15.6; Com.... michee v,4: Wendel 169-172

* الكرستولوجى : التعاليم الخاصة بشخص ربنا يسوع المسيح .

كهيكل للسكن فيه . كلا فإن ابن الله صار ابناً للإنسان عن طريق اتحاد الأقنوم وليس عن طريق تغيير الجوهر أى اتحاد لاهوته بالناسوت الذى أخذه . ولقد ظلت كل طبيعة من الطبيعتين محتفظة بخواصها الذاتية . وبناء على ذلك لا يوجد فى المسيح أقنومان متميزان بل أقنوم واحد (٢٥) . ولكى يوضح هذه الوحدة العظيمة السرية بين اللاهوت والناسوت ، بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية بالرغم من اختلافهما فى الجوهر ، رجع إلى بعض الأمثلة التى استعملها الآباء فى معالجتهم لهذه المشكلة العقيدية . فهو يرى أن اتحاد هذين الجوهرين المختلفين يشبه اتحاد الروح بالجسد . فإن كلاً منهما مختلف عن الآخر فى الجوهر ، ومع ذلك فإنهما متحدان ويكونان وحدة واحدة تدعى الانسان (٢٦) . وكذلك اللاهوت والناسوت المختلفان تماماً فى الجوهر يكونان وحدة واحدة ، وأقنوماً واحداً يدعى المسيح . لقد كان مصلح سويسرا حريصاً الحرص كله على شرح وحدة الأقنوم ، والتمييز الواضح الصريح بين الطبيعتين الإلهية والبشرية . فإن الذى يقول « ... قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن » (يو ٨ : ٥٨) هو اللاهوت الذى قال عنه الرسول بأنه بكر كل الخليقة (لو ١ : ١٥) . وهو نفسه الذى يقول فى صلاته « الآن مجدنى أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذى كان لى عندك قبل كون العالم » (يو ١٧ : ٢٥) . وهو نفسه أيضاً الذى وصفه الرسول بولس بالقول « ... لم يحسب أن يكون معادلاً لله » (فى ٢ : ٥ ، ...) عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد ..(١ تيمو ٣ : ١٦) فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً (كو ٢ : ٩ ..) . يذكر كلفن هذه الآيات وآيات أخرى كثيرة تتكلم عن الكلمة .. عن الابن الموجود قبل تأسيس العالم وعن أن أزليته ، مساوية تماماً لأزلية الآب . ثم يذكر أيضاً قائمة أخرى من الشواهد الكتابية التى تبين بأن هذا الابن الأزلى الذى كان فى حضن الآب جاء إلى أرضنا وتجسد فى جسد

25- Inst. 2.14.16 W. Niesel 115-119, Calvin. Cr 46,109

26- Inst. 2,14.1, St Augustin sermon 136 Enchirdion, ChII, 36., Cyrille d. Alex...Les Scholies sur l'incarnaation du verbe.

بشرى مثل أجسادنا . أخذ لحماً ودماً وصار فعلاً انسانا و « والكلمة صار جسداً » .. ويعتقد كلفن بأن إشعياء (٤٢ : ١) فى كلامه عن « عبدى » يشير إلى يسوع الإنسان . وكذلك عندما يقول القديس لوقا « وأما يسوع فكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس (لو ٢ : ٥٢) يشير أيضاً إلى الإنسان يسوع . إن هذا الإنسان يسوع يقول هو أيضاً نفسه « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن إلا الاب » (مر ١٣ : ٣٢ ، يو ١٤ : ١٠ ، ٦ : ٣٨ ، لو ٢٤ : ٣٩ ، ١ يو ١ : ١) . كل هذه النصوص ونصوص أخرى تشير إلى التميز بين الطبيعتين .

إن الذى يدرس الفصل الرابع عشر من الكتاب الثانى « أسس الديانة المسيحية » يستطيع أن يدرك بلا عناء كيف أن المصلح الفرنسى يحاول أن يوضح بدقة فكرة التمييز بين الطبيعتين ، محذراً ومنذراً بعدم خلط أو مزج اللاهوت بالناسوت . وهنا يشير إلى تعاليم الراهب انتيخوس فيقول عنه « يجب علينا أن نحترس من شطحات انتيخوس المسعورة ، الذى عندما أراد أن يشرح وحدة الاقنوم فى المسيح يسوع هدم طبيعته [٢٧] .

ومع أن كلفن ينبر بشدة على تمييز الطبيعتين الواحدة عن الأخرى ، فهو يعلم أيضاً بالوحدة القوية العميقة بين هاتين الطبيعتين . إن اللاهوت الكلمة ابن الله الأزلى قد حل فى بطن القديسة مريم العذراء وولد بطريقة معجزية وصار الإنسان يسوع المسيح . فهو ابن الله وفى الوقت نفسه ابن الانسان . فإن الله الكلمة قد حل فى الإنسان يسوع ومع ذلك لا يوجد أقنومان أو مسيحان أو ابنان ، بل يوجد مسيح واحد وابن واحد وسيد واحد . ان الطبيعتين اتحدتا معا ونتج عن هذا الاتحاد شخص المسيح يسوع . على أن كل طبيعة من الطبيعتين قد احتفظت بخواصها ومميزاتها [٢٨] .

وهنا يتعرض كلفن لمشكلة أخرى قد تحدث عنها كثيراً آباء الكنيسة ، وهى

27- Inst. 2, 14.4
28- Inst. 2,14,1; Com. Mt. 24, 26; Wendel 166

المشكلة التى تدعى توصيل المميزات الخاصة أو الاشتراك فى المميزات الخاصة * (Communication de Sidiomes) . ولقد حاول فى شرحه لهذه العقيدة أن يبين بأنه يمكن فى بعض الأحيان ان نطبق بعض الصفات التى تليق باللاهوت على الناسوت وبالعكس ، مثل قول الرسول بولس « ... لأنه لو عرفوا لما صلبوا رب المجد » (١ كو ٢ : ٨) فإن المقصود هنا برب المجد هو الله الكلمة . وإن الله الكلمة لا يمكن أن يصلب أو أن يموت ، ولكن بسبب اتحاده بالانسان يسوع الذى صلب ومات فيمكن القول بأن رب المجد هو الذى صلب . والرسول بولس يقول أيضاً لرعاة أفسس « ... ارعوا كنيسة الله التى افتداها بدمه (أع ٢٠ : ٢٨ ، يو ٣ : ١٣ ، يو ١ : ٢٩ ، ٥ : ٢١ — ٢٣ ، ١٠ : ٧ — ١١ ، ١٥ : ١) أو قول أليصابات لمريم فمن أين لى هذا أن تأتى أم ربى إلىَّ (لو ١ : ٤٣) . إن اللاهوت ليس له دم أو لحم ، ولكن لأن اللاهوت اتحد باللحم والعظم فيمكن اذاً تطبيق هذا القول على الطبيعتين .

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا والذى كان أيضاً جزءاً مهما فى الصراع الكيرلسى النسطورى هو الآتى:—

هل تألم الله الكلمة فعلاً ، وهل كان يجهل اليوم والساعة ؟ وما هو المقصود من هذا الجهل ؟

ان المصلح الألمانى لوثر طبق نظرية توصيل صفات الناسوت للاهوت وصفات اللاهوت للناسوت فى حالات كثيرة جداً . فعندما تعرض لمعالجة مشكلة العشاء الربانى قال ما ملخصه : وبما ان اللاهوت والناسوت يكونان أقنوماً واحداً ، فإن الكتاب المقدس – بسبب هذه الوحدة ينسب إلى اللاهوت كل ما يخص الناسوت وبالعكس .

فإن لوثر يعتقد بأن الناسوت يشترك مع اللاهوت فى أمور كثيرة ، وحتى فى مصاحبة اللاهوت فى أماكن عديدة مختلفة وفى وقت واحد . فإن المسيح يستطيع ان يأتى من السماء ويحل جسدياً فى الخبز وفى الخمر اثناء العشاء

* المقصود بهذا التعبير هو ان اللاهوت كان يعطى او يوّصل بعض صفات للناسوت وبالعكس .

الربانى . كما أنه يظل فى نفس الوقت فى السماء عن يمين الله الآب . وهذا ما قد رفضه المصلح السويسرى زونكيلى ورفض أيضاً فكرة توصيل الصفات والمميزات بين الطبيعتين .

اما كلفن فهو يعتقد بتوصيل المميزات أو الصفات بين الطبيعتين ولكن بتحفظ ... فعندما ندرس الطبعة الأولى لكتاب « أسس الديانة المسيحية » التى ظهرت سنة ١٥٣٦ ، تلاحظ أنه لا يرفض هذه العقيدة و لم يتخل عنها فى الطبعة الثانية . أما فى الطبعة الثالثة فقد نبر بشدة وبوضوح على تمسكه بهذه العقيدة . على أنه لم يحاول تطبيقها بنفس الطريقة التى اتبعها لوثر . ويظهر هذا التحفظ فى بعض كتاباته ، ولذلك فهو يقول فى شرحه للوقا (لو ٢ : ٤٠) ما ملخصه : ان الكلمة لم يوصل كل ما هو كان خاصاً باللاهوت للناسوت ولكن لسبب خلاصنا احتفظ ابن الله بقوة لاهوته مخفية .

وفى شرحه لبعض الفصول الخاصة بنمو يسوع الجسدى يبين لنا أنه كان لايعرف اليوم ولا الساعة وكذلك آلامه وموته . فإنه يتفق والقديس ايريناوس الذى يعتقد بأنه حتى ولو كانت هذه الأمور خافية على الإنسان يسوع ، فإنها معروفة لدى ابن الله (٢٩) .

يعتقد كلفن بأن اللاهوت احتفظ بكل خواصه وقوته ، وأن عملية التجسد لا تعنى بأى حال من الأحوال تلاشى أو زوال اللاهوت أو فقدانه أو ذوبانه فى الناسوت . وأن اللاهوت لم يكن مقيداً بالناسوت ومحدوداً وسجيناً فيه ؛ فمع أنه تنازل وصار واحداً منا وعاش بيننا ، لكنه لم يتخل ولا لحظة واحدة عن لاهوته و لم يترك شيئاً من عظمته ومجده الأبدى . كان يعيش مع الناس ولكن مجده كان مخفياً عن اعينهم (٣٠) . وقال أيضاً ما معناه « ولقد اتحد جوهره غير المحدود بطبيعتنا دون أن يكون لاهوته محدوداً أو سجيناً .

إنه نزل من السماء بطريقة معجزية ، ومع ذلك فإنه ظل باقياً فى السماء .

29- J. Calvin com. Mt. 24.36

30- Wendel 166-170 ١٩ — ١٥ : عظة من عظاته عن أف ١

لقد حبل به أيضاً بطريقة معجزية فى بطن العذراء ، كان يتحدث مع الناس وقد صلب ، ولكن بحسب اللاهوت كان يملاء الكون كما كان دائماً [٣١] . إن كلفن يريد من هذا النص أن يبين بطريقة واضحة نوعاً من التحفظ الذى يظهره فيما يختص بعقيدة وجود اللاهوت فى كل مكان ، الأمر الذى لا ينطبق دائماً على الناسوت . إنه قبل مبدأ توصيل المميزات بين الطبيعتين مع كثير من التحفظ . فإن لوثر مثلا نادى بإمكانية وجود ناسوت المسيح فى عدة أماكن وفى وقت واحد الأمر الذى رفضه كلفن ، لأنه يعتقد بأن هذه العملية لا تنطبق الا على اللاهوث وحده .

إن اهم نقطة ركز عليها المصلح الفرنسى هى الوحدة القوية العميقة التى تمت بين اللاهوت والناسوت فى عملية التجسد . فقد حاول أن يشرح هذه الوحدة القوية الموجودة فى أقنوم المسيح وفى الوقت نفسه شدد على التمييز بين الطبيعتين : اللاهوت والناسوت . وكما أنه حذرنا من الانزلاق فى تعاليم انتيخوس الذى فى حماسته وجهله نادى بوجود طبيعة واحدة فقط فى المسيح ، فإنه يحذرنا أيضاً من الانزلاق فى تعاليم نسطوريوس الذى فى معارضته لتعاليم أبولوناريوس وتعاليم الإسكندرية انزلق إلى التعاليم الانقسامية اى تقسيم المسيح إلى اثنين . ثم يقول « إننا نعلن على الملأ كما يعلمنا بذلك الكتاب بأن الذى ولد من العذراء مريم هو الله (لو ١ : ٣٢ ، ٤٣) وأن العذراء هى أم سيدنا .

لم يقف كلفن طويلاً عند تعليم نسطوريوس التى سماها تعاليم قسم المسيح إلى اثنين . وفى حقيقة الأمر لم يقسم نسطوريوس المسيح إلى اثنين بل بالغ جداً فى عملية التمييز بين الطبيعتين لدرجة أن الدارس لكتاباته يشعر كما لو كان يتحدث فعلاً عن اثنين أو مسيحين [٣٢] .

ولكن فى حقيقة الأمر فإن نسطوريوس كان ينادى أيضاً بوحدة المسيح . فى ختام هذا الفصل يناقش كلفن تعاليم ميشيل سرفه الذى انكر

31- Inst. 4,17,30; Wendel. 167-169

٣٢ ــ انظر د.حنا جرجس الخضرى تاريخ الفكر المسيحى المجلد الثانى ص ١٦٩ ــ ٢٠٢ .

لاهوت الابن وأزليته . وفى رفضه لهذه التعاليم يقدّم لنا المصلح الفرنسى عقيدته فى الثالوث كما علّمت بها الكنيسة الجامعة ، وتمسكت بها المجامع المعترف بها ؛ بأن الله الآب والابن والروح القدس هو اله واحد ورب واحد له المجد والعظمة والعبادة والسجود .

الفصل الثالث

الخليقة

لقد سبق أن رأينا كيف أن المصلح قد عالج موضوع الوحى الطبيعى ، وأن الطبيعة بل الكون كله كتاب مفتوح يعلن عظمة الله الخالق . ولكن الإنسان ـــ مع شديد الأسف ـــ لم يستطع من نفسه أن يقرأ هذا الكتاب المفتوح لأنه أعمى وأصم ، إذ أن الخطية أفسدت المواهب التى وضعها الله فيه ، كما أنه عاجز من ذاته للصعود إلى فوق لفهم الأمور الروحية .

ولذلك فإن الله فى رحمته منح له الكتاب المقدس ، الرسالة المكتوبة . على أن هذه الرسالة المكتوبة التى تتكلم عن الله الحقيقى الحى وعن يسوع المسيح ظلت وستظل رسالة مجهولة لأن الانسان جاهل وأعمى . وهنا يأتى دور الروح القدس وعمله وتأثيره على هذا الجاهل الأعمى ، فإن الروح القدس هو الذي يعطى فهماً لهذا الإنسان «وبصرا» لضعيف البصر . وعندئذ ، وعندئذ فقط يستطيع هذا الجاهل الأعمى أن يدرس الكتاب ويعرف بنعمة الروح القدس الله الآب الخالق والابن الفادى والروح القدس المرشد . ولقد شرح كلفن كما سبقت الاشارة إلى ذلك مفهومه للثالوث ، وأنه نادى بنفس التعاليم التى علمت بها الكنيسة القديمة فيما يتعلق بالثالوث المقدس . فبعد أن عرض المصلح الفرنسى تعاليمه الخاصة بالوحى الطبيعى والوحى الكتابى ثم تعاليمه عن الثالوث ، يعالج موضوعاً آخر وهو الخليقة .

عالج كلفن هذا الموضوع ، ليس فقط فى كتابه « أسس الديانة المسيحية » الفصل الرابع عشر والخامس عشر ، بل لقد تعرض له فى عدة عظات ألقاها

عن سفر التكوين وبعض الأسفار الأخرى * .

إن كلفن يرفض بشدة تعاليم بعض الفلاسفة وخاصة تعاليم أرسطو الذى نادى بأن العالم موجود منذ الأبد . أما كلفن فهو يعتقد بأن الله قد أعطى لموسى تاريخ الخليقة [1] . لكى يقفل الباب أمام هؤلاء الفلاسفة الذين يبحثون متسائلين أيهما الأصل البيضة أم الدجاجة ؟ كما أنه يعتقد أيضاً بأن العالم خلق فى ستة أيام . والتساؤلات التى أثارها بعض المعارضين فيما يخص الستة أيام ليست تساؤلات علمية : إذ أننا كنا ننتظر مثلاً أن يعترض البعض – كما يعترض الكثيرون الآن أنه من المستحيل علمياً أن عملية الخلق تتم فى ستة أيام فقط ** . فقد كانت الإحتجاجات التى وجهها البعض ضد الكتاب فى عصره مركزة على هذا السؤال : كيف يمكن أن يقضى الله القدير العظيم ستة أيام كاملة فى خلق العالم ؟ ألم يكن فى مقدوره أن يخلق هذا العالم فى لحظة واحدة ؟ ولماذا ظل بدون عمل هذه الفترة الطويلة قبل الخلق ؟

وفى الإجابة على هذه الأسئلة وضح كلفن بأن الله نشيط وعامل ، ولذلك فهو قام بخلق هذا العالم لأنه نشيط ، و مازال يحفظه بعنايته ورعايته [2] . أما لماذا لم يخلقه فى لحظة واحدة ، إذا كان فعلاً الهاً عظيماً وقادراً ؟ فيقول إن هذا الأمر يخص الله ، وينبغى على الإنسان ألا يرتئى فوق ما ينبغى أن يرتئى .

إن الذى يدرس كتابات كلفن الخاصة بالخليقة سواء فى كتاب أسس الديانة المسيحية أو فى العظات التى ألقاها عن سفر التكوين وعن الأسفار الأخرى ، يستطيع أن يرى الصورة الرائعة الجذابة والبديعة لعمل يد الله وعظمته وقدرته وحكمته ومحبته ، لا بل الفن الرائع والذوق البديع الظاهر فى الخليقة . إن كل الخليقة وكل قطعة من هذه الخليقة عبارة عن لحن موسيقى

---

* للتوسع فى دراسة مفهوم كلفن عن الخليقة انظرStauffer 177-249 فهو يقدم بحثاً عميقاً عن كل عظات وكتابات كلفن الخاصة بالخليقة ، مع قائمة كتب كثيرة بالإنجيليزية والفرنسية والألمانية .

1- Inst. 1, 14. 1 . ١ – ثم انظر عظته رقم ١/٤ عن التكوين .

** نحن نعتقد ان الستة ايام تمثل فترة من الزمن غير محدودة ، قد تكون آلافاً أو ملايين من السنين : « إن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة (مز ٩٠ : ٤ ، ٢ بط ٣ : ٨) .

2- Stauffer 179,215

يشد العواطف ويستولى عليها ، بل هى لوحة خطتها يد رسام بارع ماهر ، فيها انسجام الألوان وتنوعها وتوزيع الأضواء وجاذبيتها . فنرى فى هذه الصورة الطبيعية العظيمة بجمالها قد احتوت على مخلوقات متنوعة مختلفة من حيوانات ضخمة جبارة ، ومن حشرات صغيرة ضئيلة ، وعلى عصافير حلوة جميلة مغردة ... وعلى رأس هذه الخليقة كلها تاج عظيم لامع ، وهو الإنسان رجلاً وأمرأة ، خلقهما الله . ومع أن الله فى حكمته وعظمته خلق الإنسان واحداً متشابهاً فى التكوين الداخلى لكنه متنوع فى هيئته الخارجية على أشكال وأنواع وألوان وأحجام . لأنه لو خلقنا متساويين (يقصد الحجم وليس فى المكانة) متشابهين لصعب علينا أن نعرف بعضنا بعضاً [٣] .

ويعتقد كلفن بأن الله خلق العالم من العدم ، من لا شيء . كان روح الله يرف على وجه المياه : الله (الوهيم) فى صيغة الجمع أباً وكلمة وروح قدس ، إله واحد خلق هذا الكون . فعندما نرجع إلى بعض العظات التى ألقاها عن سفر التكوين ثم إلى عظته عن يوحنا ١ : ٣ ، نرى كلفن يشرح أن روح الله الأزلى روح الآب كان موجوداً منذ الأزل ، وكذلك الكلمة أيضاً . وبهذا الكلمة الأزلى الذى كان فى حضن الآب خلق الله العالم « ... الذى به أيضاً عمل العالمين .. » (عب ١ : ٢ ــ ٣) . فإنه فيه خلق الكل .... (٢ كو ١ : ١٦ ــ ١٧ ، يو ١ : ٣ ، أم ٨ : ٢٧ ــ ٣١) . لقد كان الكلمة الذى نطق به الله هو اللوغوس ، الذى به وعن طريقه خلق كل شيء . وكان هذا الكلمة فى حضن الله الآب وعمل معه فى الخليقة ، وظهر أيضاً للآباء فى العهد القديم بطرق متنوعة مختلفة . وفى آخر الأيام تجسد فصار الكلمة جسداً . وروح الله الذى كان يرف على وجه المياه اشترك هو أيضاً فى الخلق بعنايته وحفظه لهذه الخليقة التى خلقها الله الآب بكلمته [٤] فإن الابن اشترك إذاً فى عملية خلق الكون وكل ما يوجد فيه .

3- Stauffer. 178-214-215

4- Stauffer 181, 216; Emile Doumergue T.4; Wendel 110-120 W. Niesel 61-70

الملائكة

بعد أن قدم لنا كلفن شرحاً سريعاً عن خلق الكون بطريقة عامة ، يتعرض لشرح بعض المخلوقات مثل الملائكة . وفى حديثه عنهم يحذرنا كلفن من خطر ترك اللجام للانطلاق فى مجال التخمينات والخيال ، ويجب علينا ان لا نرتئى فوق ما ينبغى أن نرتئى . وبما أن الكتاب المقدس لم يعط لنا كل التفصيلات عن أصلهم وخلقهم ، ومتى خلقوا وكيفية خلقهم ، فعلينا أن نتمسك بما قد أعلنه لنا الرب فى الكتاب عنهم وعن خدمتهم . ويعتقد كلفن أن الملائكة أرواح سماوية قد خلقها الله ومنحها هبة عدم الموت والبقاء الأبدى . كما أنهم أرواح مجردة من الأجساد . وهذا لا يعنى أنهم موجودون فى كل مكان . وبما أن الملائكة هم أرواح سماوية ، فليس لهم إذاً أجساد . ولقد ظهروا بأشكال وهيئآت مختلفة متنوعة ، حتى يستطيعوا أن يوصلوا الرسالة التى من أجلها أرسلوا ، بطريقة واضحة للإنسان .

ولقد وهبهم الله طبيعة سامية نبيلة . فمنذ خروجهم من يد الخالق وهم يتمتعون بهذه الطبيعة السامية التى احتفظوا بها ؛ فالبعض منهم لم يتعرضوا للسقوط لأن همهم الأعظم وغايتهم القصوى هى الخضوع المطلق التام ، والطاعة الكاملة لله . إنهم يعملون مرضاته .

ويتعرض كلفن فى بحثه لرتبة الملائكة ومكانتهم . فى عظة رقم ٦ عن التكوين (Fo 29) يعلم بأن الملائكة فى درجة أقل من الله بما لا يقاس ، بل لا يجوز المقارنة بينهم وبينه . ولكنهم فى مكانه أسمى وأرفع من مكانة الإنسان (٥) . أما فيما يخص ترتيب درجاتهم ، فهو يعترف بأن الكتاب المقدس يمنح لقب الرئيس العظيم للملاك ميخائيل (دا ١٢ : ١ ، ١٠ : ١٣ ، ٢١ ، يهوذا ٩ ، ١ تسا ٤ : ١٦ ، ثم طوبيا ١٢) . كما أن الرسول بولس يتكلم عن وجود رياسات وسلاطين ... « (أف ١ : ٢١) . ولكن هل منح

3- Stauffer. 178-214-215

4- Stauffer 181, 216; Emile Doumergue T.4; Wendel 110-120 W. Niesel 61-70

5- Stauffer 193 et 230

الله هذه الألقاب إلى الملائكة لكي يميز البعض عن الآخر ، معيناً بعضهم فى مكان الرئاسة والقيادة والبعض الآخر يقاد ويأمر [٦] . أم أنه أعطى لهم هذه الألقاب بسبب ضعفنا البشرى ؟ وكلفن يعتقد أن هذه الدرجات والألقاب ، وحتى الأسماء مثل ميخائيل وغبريال والملاك روفائيل المذكور فى سفر طوبيا (طوبيا ١٢) ، فربما قد أعطيت ليست لوجود درجات تصاعدية بين الملائكة بل بسبب ضعفنا . تقدم لنا الكتب المقدسة النظام السماوى بأسلوب بشرى أرضى . ثم يضيف قائلاً إنه لا يستطيع أن يجزم فى هذا الأمر . وربما كان الهدف من هذه الألقاب الممنوحة للملائكة هو لتمييز خدمتهم ومكانتها وأهميتها ، وليست هى درجات لتمييز الملائكة أنفسهم ، بعضهم عن بعض . ما هو عدد الملائكة ؟ إن المسيح يذكر جزءاً من هذا الجيش « ... اثنى عشر جيشاً من الملائكة » (مت ٢٦ : ٥٣) .

ويستنتج كلفن من قول المسيح وأقوال االأنبياء (٢ مك ٦ : ١٧ ، دا ٨ : ١٠) بأن عدد الملائكة يفوق الملايين [٧] . ما هو عمل الملائكة وهل يوجد ملاك حارس ؟

يعتقد المصلح أن عمل الملائكة الأول عو عبادة الله وإكرامه والسجود له . إنهم يحيطون به وبعرشه لتقديم الولاء اللائق (دا ٧ : ١٠) ، كما أنهم يخدمونه بدون انقطاع . إن هذه الجيوش السماوية العظيمة (لو ٢ : ١٣) خاضعة له ، وعلى أهبة الاستعداد لتنفيذ أوامر العلى . ولقد شدد كلفن فى كتابه « دستور أو أسس الديانة المسيحية » [٨] ، وكذلك فى كثير من عظاته [٩] على الدور الهام العظيم الذى يقوم به الملائكة فى خدمة العتيدين أن يرثوا ملكوت الله . إنهم خدامه الذين ينفذون أوامره « باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوة الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه يا جميع جنوده

6- Inst. 1. 14. 7
7- Inst. 1, 14. 8
8- Inst. 1, 14. 4-12
9- Sermon. 146, Co35 P. 371; ser. 6. Genese Fo 29; Stauffer 193

خدامه العاملين مرضاته .... » (مز ١٠٣ : ١٩ — ٢٢ ، مز ١٤٨ : ٢ ، تك ١٩ : ١٦ ، ٣٢ : ١ — ٢ ، مز ٣٤ : ٧ ، ٩١ : ١١ ، دا ٣ : ٢٨ ، ١٠ : ١٠و١١ ، مت ١٨ : ١٠ ، لو ١ : ١٩ ، عب ١ : ١٤) .

إن الله يوصى الملائكة أن يعتنوا بأبنائه ويحرسوهم بكل دقة . فهو الذى يأمر الملاك بتعزية هاجر المصرية ، وإرشادها لما يجب أن تعمله فى وقت الحيرة والهروب (تك ١٦ : ٩) . كما أنهم يقفون بجانب شعبه لكى يعطوا له الغلبة على أعدائه (قضاة ٢ : ١ ، ٦ : ١١ ، ١٣ : ٩ ، ٢ مل ١٩ : ٣٥ ، ٣٧ : ٣٦ ، مت ٤ : ١١ ، لو ٢٢ : ٤٣) .

ولقد سماهم المصلح بأيدى الله : فهم الأيدى التى تحافظ على المؤمنين وتقوم بخدمتهم والعناية بهم وقيادتهم ليل نهار إلى الخلاص . إن الله قد جند الملائكة — الأرواح السماوية — للسهر على أولاده الذين عينهم للحياة الأبدية . وهنا يأتى السؤال التالى هل عين الله ملاكاً حارساً لكل شخص ؟

الملاك الحارس

أمام هذا السؤال يجد كلفن نفسه فى حيرة . فهو يعترف بأنه عندما يقرأ دانيال (دا ١٠ : ١٣ ، ٢٠ ، ١٢ : ١) يشعر كما لو كان الله قد عين ملاكاً معيناً لحراسة منطقة معينة : فنرى أن ملاك الفرس يحارب ضد ملاك اليونان . ويواصل شرحه أيضاً باقتباس قول الرب يسوع عندما يقول : « .. لأنى أقول إن ملائكتهم فى السموات كل حين ينظرون وجه أبى الذى فى السموات (مت ١٨ : ١٠) . لا يعطى كلفن جواباً قاطعاً حاسماً فيما إذا كان الله قد عين ملاكاً حارساً لكل شخص أم لا * . على أنه يؤكد مشدداً على حقيقة أن الرب فى محبته وعنايته للبشر ، لم يأمر ملاكاً واحداً لحراسة

* ان العالم Stauffer يقول ما ملخصه : فمع ان المصلح يظهر تردداً واضحاً فى كتابه «أسس الديانة المسيحية» فيما يخص وجود ملاك حارس إلا أنه يعلن فى عظة رقم ٣١ سفر دانيال ، وهى العظة الوحيدة التى تعرض فيها لمعالجة موضوع الملائكة ، بأن مفهوم الملاك الحارس هو من أصل وثنى وقبله اليهود ، ويحرم المؤمن من التأكد من أن السماء كلها تهتم به وليس ملاك واحد Stauffer 190-195

وعناية كل شخص ، بل إنه جند كل الملائكة بجيوشها العظيمة الجبارة للعناية بنا [١٠] (لو ١٥ : ٧) .

الشياطين

كما أن المصلح يؤمن ويعلم بوجود ملائكة ، وهم خلائق سامية ممتازة ، فهو يؤمن أيضاً ويعلم بوجود الشياطين . ولكنه رفض النظرية التى علم بها مانى (Mani) ، والتى يعرض فيها (مانى) قوتين عظميتين : الله مصدر كل خير وصلاح ، والشيطان مصدر كل شر وفساد . أما كلفن فهو يعتقد بأن الشياطين ما هم إلا ملائكة خلقهم الله ، ولم يثبتوا فى حالة الطهارة والنبل والقداسة ، بل انحدروا من هذا المقام العظيم السامى إلى هاوية الانحطاط ، عندما خالفوا الله . وكما أنه رجع إلى الكتاب المقدس فى حديثه عن الملائكة فإنه اقتبس أيضاً المكتوب فى معالجته لهذه المشكلة . فإن المسيح يقول « ... أب هو أبليس — ولم يثبت فى الحق » (يو ٨ : ٤٣ — ٤٥ ، متى ١٣ : ٣٨ ، ١يو ٣ : ٨) . من هذه الآيات يستنتج كلفن أن الله خلق الملائكة متساويين وأنارهم وأعلن لهم الحق . ولكن البعض منهم لم يثبت فى هذا النور وفى هذا الحق ، ولذلك فقط سقط إلى مهابط الظلام . ولم يشفق الله على هؤلاء الملائكة الساقطين الذين تمردوا عليه ولم يطيعوا لأوامره ولم يسمعوا صوته . ولذلك فإن الله طرحهم من أمامه إلى أعماق الظلام . والرسول بطرس يقول : « لأنه إن كان الله لم يشفق على ملائكة قد أخطأوا بل فى سلاسل الظلام طرحهم فى جهنم وسلمهم محروسين للقضاء (٢ بط ٢ : ٤ ، أى ٤ : ١٨) . كما أن الرسول يهوذا يقول أيضاً « والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم حفظهم الله إلى دينونة اليوم العظيم (يهوذا ١ : ٦) . والرسول بولس يعطى تحديداً أكثر وضوحاً فيقول : « ... ملاك الشيطان ...) (٢ كو ١٢ : ٧ ، أى ٢ : ٧ ، لو ١٣ : ١٦) . من هذه الآيات ومن آيات أخرى كثيرة يؤكد المصلح الفرنسى وجود الشياطين كحقيقة واقعية ، مثلهم مثل الملائكة . لا بل إن الشياطين ما

10- Inst. 1, 14. 7

هم إلا ملائكة قد سقطوا من الإمتياز العظيم الذى ميزهم به الله .

والسؤال الذى نسأله الآن : ما هو عمل الشيطان ؟

وللأجابة على هذا السؤال : يرجع كلفن كعادته للمكتوب . فهو يقول إن الكتاب المقدس يحذرنا من مكر وخبث هذا الكائن الذى يعمل جاهداً على ضلال وإبعاد الناس عن طريق الحق . ويصفه بأنه عدو لدود ، ليس فقط للناس بل لله أيضاً ، وأن هذا العدو قوى جبار ، لدرجة أن الكتاب أسماه ، « رئيس هذا العالم » (مت ١٢ : ٩ ، لو ١٠ : ١٨ ، يو ١٢ : ٣١ ، ١٤ : ٣٠ ، ١٦ : ١١ ، أعمال ٢٦ : ١٨ ، ٢ كو ٤ : ٤ ، أف ٢ : ٢).

والرسول بطرس يقدمه كخصم للمؤمن ، وكأسد يتحين الفرص لافتراسه . كما أن الرسول بولس يعلن أن معركة المؤمن المستمرة ليست مع لحم ودم ، بل مع الرؤساء ومع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر ، مع أجناد الشر الروحية فى السماويات (افسس ٦ : ١٢) . ويواصل كلفن شرحه لهذه المشكلة مبينا أن حرب المؤمن مستمرة ليس مع أو ضد شيطان واحد ، بل مع أعداد عديدة من الشياطين . فالكتاب يذكر لنا بأن مريم المجدلية كان بها سبعة شياطين (مرقس ١٦ : ٩) . بل إن القديس لوقا يعرفنا بأن لجئون (= عدداً كبيراً) من الشياطين كانت تسكن فى إنسان واحد (لو ٨ : ٣٠) [١١] .

ولقد تعرض المصلح فى عدة عظات للحديث عن الشيطان وسلطانه . فهو يعتقد بأن إبليس مقيد بسلاسل ، أو ملجم بلجام ، أو لايستطيع أن يفعل شيئاً فى العالم إلا بإذن الله . فمع أنه متمرد على الله وسلطانه ، أو مع أنه لا يريد بأى حال من الأحوال أن ينفذ أوامره ، إلا أنه مقيد ولا يستطيع أن يفعل أى شىء إلا بسماح من الله . وفى بعض الأحيان يستغل الشيطان هذا السماح لكى يفعل الشر الذى يحوله الله للخير [١٢] . إن الله يستخدمه كآلة أو آداة

11- Inst. 1: 14:13-19

12- Stauffer 194-196, 234-235

لغضبه ، وكقضيب تأديب لإنجاز عدله ، لأن الله يمسك بزمام كل الأمور بين يديه .

الإنسان

بعد أن خلق الله السموات والأرض ، وبعد أن هيأ الجو المناسب لظهور الحياة عليها ، وبعد أن أعد كل شيء لراحته وسعادته ، أخيراً خلقه إنساناً كاملاً ونبيلاً وسامياً فى طبيعته لا بل على صورته هو نفسه (صورة الله) خلقه ، فهو تاج الخليقة وزينتها .

ويقدم لنا كلفن مفهومه للإنسان بأنه يتكون من عنصرين أساسيين أو من جزئين هامين : العنصر الأول هو الجسد المادى الترابى أو من «الوحل» ، إنه جسدى أرضى وليس سماوياً .

فإن المصلح يعتقد بأن أصل الجسد أصل حقير ذليل ، وبناء على ذلك : يجب على الإنسان أن يتذكر أصله فيكون شاكراً ومعترفاً بالجميل ، ثم متواضعاً أمام خالقه .

والعنصر الثانى الذى يتكون منه الإنسان هو الروح . ولقد تكلم بإسهاب عن الروح فى كتابه الأول ، دستور الديانة المسيحية الفصل الخامس عشر ، ثم فى عدة عظات [١٣] . فهو يعتقد بأن الروح غير مائتة ولكنها مخلوقة ، وهى أنبل جزء فى الإنسان * . فإن الإنسان هو الخليقة الوحيدة بين الخلائق الذى يتمتع بهذا الامتياز الفريد من نوعه : وهو أن الله نفخ فى أنفه نسمة حياة ، فصار آدم نفساً حية (تكوين ٢ : ٧) . ولم تكن هذه النفخة مجرد نسمة حياة فقط ، بل هى عبارة عن منحة أو هبة خاصة لم تتمتع بها الحيوانات أو الطيور أو أى خليقة أخرى على الأرض . إن الله وهب للإنسان هذه الروح غير المائتة لكى يميزه عن باقى الخلائق الموجودة على الأرض والتى فى طريقها إلى الموت والتلاشى . أما الإنسان فهو باق . فإن الله لم يمنح لنا فى الخليقة الحياة هنا على الارض فقط مثل الحيونات التى تعيش فترة من الزمن ثم تتلاشى وتزول

13- Stauffer 198-204, 182-244

* ويرجع كلفن إلى الكتاب المقدس ليثبت أن الانسان مكون من روح وجسد وترجع الروح إلى الله (جامعة ١٢ : ٧) والمسيح يسلم روحه (لو ٢٣ : ٧٦) واستفانوس يصلى قائلا اقبل روحى (اع ٧ : ٥٩) .

عند الموت ، بل وهبة الحياة بعد الموت أيضاً * .

وهنا حاول كلفن أن يرد على الذين رفضوا خلود الروح (١٤) .

فإن جماعة المعمدانيين التى ظهرت فى ألمانيا وآخرين ، قد نادوا بأن روح الإنسان الشرير تتلاشى بعد موته . ولقد رجع هؤلاء إلى القديس بولس وحزقيال لكى يؤيدوا نظريتهم « لأن أجرة الخطية هى موت ... » (رو ٦ : ٢٣) ، النفس التى تخطىء هى تموت (حز ١٨ : ٤) .

فإن الدارس لتاريخ الفكر المسيحى يلاحظ ثلاثة اتجاهات على الأقل فى موضوع أصل الروح :

١ ـــ النظرية التى نادت بفكرة أن الآباء هم الذين يمنحون الروح لأطفالهم . نادى بهذه النظرية غريغوريوس النيسى Grègoire de Nysse فى الشرق ، إلى أن أصدر البابا أناستاسيوس الثانى حكماً ضدها فى سنة ٤٩٨ .

٢ ـــ النظرية التى علَّمت بأن الله يمنح النفس إلى كل مولود أثناء الحمل أو الميلاد . ولقد قبل هذه النظرية القديس جيروم وظهرت من جديد فى القرون الوسطى ، فعلم بها كل من بير لمبارد والقديس توما الأكوينى . وقبل كلفن هذه النظرية .

٣ ـــ النظرية التى نادت بأن الأرواح مخلوقة سابقاً وموجودة قبل وجود الأجساد ، والتى نادى بها أوريجانوس المصرى ** .

ولقد سبق أن رأينا أن كلفن كتب كتاباً لشرح هذه العقيدة . وهو يؤمن بأن الروح غير مائتة . ولقد شدد كثيراً على هذه الفكرة فى كتابه الذى يدعى يقظة الأرواح . وفى صراعه أيضاً ضد ميشيل سرفه . على أنه يعتقد أيضاً بأن خلود الارواح هبة من هبات الله ، وليس حقاً من حقوق الروح . فلو نزع

---

* فمع أن كلفن قد علم بخلود الروح وعدم موتها ، إلا أنه لا يؤمن بأنها موجودة منذ الأبد ، بل ان الأرواح تولد مع الاجساد .

14- Inst. 1: 15.1-4

** انظر كتاب الدكتور « حنا جرجس الخضرى » تاريخ الفكر المسيحى المجلد الأول صفحة ٥٥٠ ـــ ٥٦٢
Stauffer 208, 250-251

الله هبة الخلود للروح لأصبحت زائلة فانية ورجعت إلى التراب وتلاشت . فلئن كان الله قد منح الإنسان عطية الخلود لروحه ، فقد منحه أيضاً هبة أخرى ، وهى أنه على صورته وشكله خلقه . إن هذه الهبة تعنى أن الله قد توج الخليقة بأعظم صفة . فقد خلقه على صورته « فى الكمال والاستقامة والكرامة » . وهذه الصفات هى التى تميزه عن كل الحيوانات — فلا يوجد أى مخلوق فى الخليقة كلها يمتاز بهذه الصفات : صفات الكمال والاستقامة ونقاوة الطبيعة وطهارتها إلا الملائكة والإنسان قبل السقوط ، عند خروجه من يد الخالق . ولقد تشوهت هذه الصورة فى الإنسان بعد سقوطه . على أنها ظهرت من جديد ، ولكن بصورة أوضح فى آدم الثانى ، فهو صورة الله الكاملة الحقيقية [١٥] (كو ٣ : ١٠ ، أف ٤ : ٢٤) وعن طريق التجديد يصبح الإنسان من جديد على صورة الله (٢ كو ٣ : ١٨) .

عندما خلق الله الإنسان خلقه على صورته ، أى فى حالة الكمال والقداسة والبر . على أن الإنسان لم يحتفظ بهذا الامتياز العظيم الفريد بسبب سقوطه فى الخطية وعدم طاعته لله . وهنا يتعرض كلفن لمشكلة السقوط . سبق أن رأينا أن كلفن علّم بأن الله خلق الانسان كاملاً نقياً طاهراً فى طبيعته ، ومنحه روحاً وجسداً . كما أنه قد وهبه حرية العقل الذكى والتفكير السليم وحرية الإرادة . وكان فى إمكانه عن طريق حرية الإرادة أن يختار الخير أو الشر ، الطاعة أو العصيان والتمرد . لقد هيأ له كل الظروف التى كانت تقوده إلى النجاح وعدم السقوط لو أراد ذلك . فهو يقول (كلفن) ما معناه : كان الإنسان – قبل السقوط – يتمتع بحرية كاملة . وبهذه الحرية كان فى إمكانه أن يحصل على الحياة الأبدية .

وهكذا فإن آدم كان فى استطاعته أن يظل واقفاً أو ثابتاً لو رغب فى ذلك . فلم يسقط إلا بإرادته الشخصية . لأن إرادته كانت متأرجحة بين الخير والشر ، كما أن هبة المثابرة لم تكن قد منحت له ، ولهذا فقد سقط بسهولة

15- Inst. 1, 15: 4; Wendel 130-132

وبسرعة ، بالرغم من أنه كان يتمتع بحرية اختيار الخير أو الشر . زد على ذلك أنه كان يتمتع فى طبيعته بذكاء كامل ومستقيم – كان مكوناً تكويناً سليماً صحيحاً لعمل الخير والصلاح ، وظل فى هذه الحالة إلى أن ضل وفسد ، فأفسد كل هذه الهبات [١٦] .

إن عملية سقوط آدم تعتبر كارثة ، ليست على آدم وحده بل على الجنس البشرى كله . فإن مصلح جنيف يعتقد بأن نتيجة السقوط لحقت بآدم وبكل جنسه . فما هى نتيجة السقوط ؟ كانت نتيجة السقوط بحسب مفهوم كلفن تعنى أن صورة الله التى كانت فى الإنسان قبل السقوط واضحة لامعة شفافة ، قد تشوهت تماماً ، ولا يقول المصلح بأنها تلاشت أو زالت بل تشوهت . وما معنى تشوه صورة الله ؟ قبل السقوط كان آدم ينفذ بسرور وابتهاج ما يريده الله . أما بعد السقوط فقد تغيرت الأحوال وأصبحت أعمال وتصرفات وثمار هذه الطبيعة (التى كانت قبل السقوط طاهرة نقية) أعمالاً شريرة ، وتصرّفات نجسة وثماراً مرة . فإن شر ونجاسة وتلوث الطبيعة – كل هذا ناتج من عمل الشيطان والإنسان وليس من الطبيعة التى خلقها الله ، لم تكن فاسدة ولكنها فسدت بالسقوط [١٧] .

لقد سقط آدم فى الامتحان ، لأن شجرة معرفة الخير والشر كانت امتحانا له ، امتحاناً لطاعته لله [١٨] . ويقول كلفن بأن القديس أغسطينوس يعتقد أن سبب سقوط آدم كان الكبرياء ، وهى أصل الشرور : لأنه أراد أن يرتقى فوق ما يجب أن يرتقى . لقد أراد أن يحصل على ما لا يجب أن يحصل عليه . كان الأمر لآدم واضحاً وصريحاً : لا تأكل ، ولكنه عصى هذا الأمر ولم يطع . ان المصلح يرى أن الخطية كانت كامنة فى عدم الطاعة وعدم التصديق لكلمة الله وتصديق وعد الشيطان ، ولم يصدق بأن عدم الخضوع لأمر الله يحمل الموت والهلاك فى طياته [١٩] .

16- Inst. 1,15,8
17- Inst. 1: 15 1-5
18- Inst. 2.1.4
19- Inst. 2.1.5.

عندما فتح الإنسان الأول قلبه ورحب باقتراحات الشيطان المغرية ووعوده المزخرفة المزيفة وشك ، أو بالمعنى الأصح كذب الله وعصى أمره ، سقط من المكانة التى كان فيها : مكانة الكمال والقداسة وطهارة الطبيعة . لم يسيء آدم إلى نفسه فقط ، بل إنه أورث كل الجنس البشرى خطية العصيان والسقوط ، وبهذا العصيان أصبح الإنسان الأول شريراً نجساً فاسداً [٢٠] . وكل انسان يولد يحمل فى طبيعته ما أسماه الآباء بالخطية الأصلية [٢١] .

وهنا يتعرض المصلح إلى سؤال تردد على ألسنة الكثيرين وهو : هل خطية آدم تحسب على أولاده ، وبالتالى تحسب علينا نحن أيضاً الذين لم نشترك معه فى هذا العصيان بطريقة فعلية .

وللإجابة على هذا السؤال يتعرض كلفن لمفهوم بيلاجيوس Pèlage للخطية الأصلية . ولد بيلاجيوس بين سنة ٣٥٠ ـــ ٣٥٤ فى بريطانيا العظمى ، ومات بين سنة ٤٢٣ ـــ ٤٢٩ فى مصر . وكان المعلم البريطانى من معارضى ومنافسى القديس الأفريقى أغسطينوس فى موضوع الإختيار السابق وعمل النعمة . أما فيما يتعلق بموضوع الخطية الأصلية فقد علَّم بيلاجيوس بأن طبيعتنا طاهرة نقية منذ لحظة الولادة ، كما كانت طبيعة آدم قبل السقوط [٢٢] . فإن بيلاجيوس رفض أى تأثير عملى لخطية آدم على الجنس البشرى ، لأن سقوط آدم ما هو إلا حالة فردية ، بحسب ما يرى بيلاجيوس ، وليس سقوطاً جماعياً . فهو وحده الذى تحمل نتيجة خطأه ولا تمسنا حالته وسقوطه إلا كمثال لنا ، ويجب أن نتجنب ما يجلب علينا غضب الله بسبب خطايانا الشخصية . ولقد سبق أن رفض القديس أغسطينوس بدوره هذا التعليم ، ولقد حكم مجمع أفسس فى سنة ٤٣١ بعدم صحة تعاليم بيلاجيوس .

يتفق كلفن مع القديس أغسطينوس فى رفض تعاليم بيلاجيوس الذى نادى بأن خطية آدم لحقت بالجنس البشرى كله . وبناء على ذلك فإن الإنسان يولد

20- Niesel 80-88; T.F. Torrance Calvin's Doctrine of Man

21- Inst. 2. 1. 5

22- Gilles Castelnau. Le Traitè de la Gràce et du libre Arbitre de st. Augustin P. 7

خاطئاً لا بل إنه يصور ويشكل ويعجن ويولد فى الخطية : « هأنذا بالإثم صورت وبالخطية حبلت بى أمى » (مز ٥١ : ٥ ، مز ٥٨ : ٣ ، أى ١٤ : ٤ ، يو ٣ : ٦ ، رو ٥ : ١٢ ، أف ٢ : ٣) . ويواصل كلفن شرحه لفساد طبيعة الإنسان ، مبيناً بأن هذا الفساد لحق بها ولم يخلق فيها ، على أنه انتشر فيها وسيطر عليها . فإننا نولد فى الخطية قبل أن نخرج إلى النور ، والرسول بولس يقول « ...بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع » (تك ٣ : ٦ ، ١كو ١٥ : ٢١) . ويؤكد كلفن بأن الرب نفسه أعلن هذا بالقول : « المولود من الجسد هو ... » . وبناء على ذلك فإن الجنس البشرى كله أصبح ساقطاً ومشتركاً فى خطية آدم ، ووارثاً لها ولنتائجها الوخيمة[٢٣]. هذه الخطية التى أسماها الآباء (آباء الكنيسة) بالخطية الأصلية . ولقد حاول أن يعطى تعريفاً للخطية الأصلية فقال ما معناه : ونحن نقول بأن الخطية الأصلية فساد وشر موروثان فى طبيعتنا . وبما أنها منتشرة فى كل أجزاء الروح فقد أثمرت ما يدعوه الكتاب المقدس بأعمال الجسد وجلبت علينا غضب الله [٢٤] . هذه هى الخطية التى يتحدث عنها القديس بولس فى كثير من الأحيان ، دون أن يذكر كلمة أصلية (غلا ٥ : ١٩ — ٢١) . ويعتقد كلفن بأن الخطية الأصلية أفسدت الطبيعة البشرية كلها ، فإنها خطية موروثة غير مكتسبة . وبناء على ذلك فإن سلطانها واسع الحدود نافذ المفعول ، حتى فى الأطفال أنفسهم . فمع أنهم لا يرتكبون خطية فإن بذرة الخطية كامنة فيهم . فبعد السقوط أصبحت أفكار قلب الانسان شريرة فى كل يوم (تك ٦ : ٦ ، رو ٥ : ١٢) .

ويعترض البعض بالقول : ما ذنب الإنسان إذا كانت طبيعته التى منحها له الله طبيعة فاسدة ، ويخطىء بسبب فسادها ؟ ويرد كلفن على هذا الاعتراض بأن الطبيعة التى خرجت من بين يدى الله كانت طبيعة طاهرة نقية

23- Inst. 2.1.7
24- Inst. 2.1.8

كاملة وأن الذى يجلب على الإنسان غضب الله والدينونة ، ليست الطبيعة التى خلقها الله طاهرة نقية ، بل تلويثنا وتنجسينا لهذه الطبيعة بأعمالنا وتصرفاتنا غير النقية . ثم يضيف قائلاً (٢٥) ، بأن الانسان فاسد وضال طبيعيا ولكن هذا الفساد ليس فيه بالطبيعة (أف ٢ : ٣) .

رأينا فيما سبق أن كلفن نادى بفساد الطبيعة بعد السقوط وهنا تعترضنا عدة أسئلة : إذا كانت الخطية أو السقوط قد أفسد طبيعة الإنسان ، فهل أفسد إرادته أيضاً ؟ وهل فى إمكان الإنسان بعد السقوط أن يفعل الخير ؟ هل هو حر أم أن حريته زالت بزوال طهارة طبيعته واستقامتها ؟

عندما تعرض كلفن لمعالجة موضوع حرية الإنسان بعد السقوط ، بدأ بالاستنتاج الآتى : لا يمكن معرفة الله إلا عن طريق يسوع المسيح . ولا يمكن معرفة شخص الرب يسوع المسيح كالفادى إلا عن طريق الكتب المقدسة . والإنسان لا يستطيع أن يصل إلى معرفة حقيقية عن الله وعن حالته الشخصية إلا عندما يتأمل نفسه فى ضوء الكتاب المقدس . ولكى يكون للكتاب المقدس تأثير فعال حقيقى فى قلب الإنسان ، يجب أن يعمل الروح القدس فيه (٢٦) . وعندما يفتح الروح القدس ذهن الإنسان لدراسة الكتاب ، عندئذ يرى حالته على حقيقتها ، ويدرك أنه ليس فى استطاعته أن يفعل إلا الخطية . لأن السقوط قد شوه صورة الله النقية الطاهرة التى كانت فى الإنسان (٢٧) ، وأن هذا التشويه ترك تأثيراً عميقاً وجذرياً فى إرادة وحرية الإنسان . فبعد السقوط أصبح الإنسان جسدياً مادياً ، و لا يستطيع أن يفعل الا الشر (٢٨) . وقبل أن يبدأ كلفن فى شرح مفهومه لمشكلة حرية الإنسان بعد السقوط فيما إذا كان حراً فى عمل الخير أو الشر ، يقدم لنا عرضاً لأقوال بعض الآباء فيما يختص بهذا الموضوع . وما يأخذه على بعضهم هو أنهم أعطوا اهتماماً كبيراً لأقوال الفلاسفة . ويرجع إلى قول القديس يوحنا فم الذهب الذى

25- Inst. 2.1.10
26- F. Wendel. 136-140
27- Inst. 1.15.4
28- Inst. 2.3.1 et W. Niesel 80-87

ملخصه : لقد وضع الله فينا المقدرة على عمل الخير أو الشر ، ولقد منح لنا الحرية فى اختيار أحدهما . إنه لا يجذبنا إليه ارغاماً ، ولكن يستقبلنا بسرور بال عندما نأتى إليه [29] . ويقول فم الذهب فى عظة أخرى أن الشرير لا يستطيع أن يصير صالحاً إذا أراد ذلك ، وأن الصالح يمكنه أن يصير شريراً أيضاً ، لأن الله وهب لنا فى طبيعتنا حرية الاختيار ولا يرغمنا على شيء ... . والقديس جيروم يقول « فلنبدأ نحن أولاً والله يكمل ؛ إن عملنا هو أن نقدم ما نستطيع أن نقوم بعمله ، والله يكمل ما لا نستطيع أن نقوم بإنجازه [30] . ثم يذكر تعريفاً للحرية كتبه أوريجانوس المصرى ، وهو تعريف قبل من الجميع فى عصره : يقول « إنه فى مقدور العقل التمييز بين الخير والشر ، كما أنه فى مقدور الإرادة الاختيار بينهما » [31] . ويضيف كلفن أن القديس أغسطينوس لم يبتعد كثيراً عن هذا التعريف عندما قال إنه فى مقدور العقل والإرادة أن يختارا الخير عندما تساعدنا نعمة الله ، أو الشر عندما تتخلى عنا [32] . ويواصل عرضه لتعاليم بعض الآباء فى موضوع الحرية والارادة ، فيقول إن معظم الآباء اليونان لم يتفقوا على حل موحد لهذه المشكلة . فالبعض منهم يعتقد بأن الإنسان يستطيع أن يعمل الخير والشر ، كما يريد وبحسب اختياره ، والبعض الآخر يظن أن الإنسان لا يستطيع أن يفعل الخير من ذاته . أما هو (كلفن) فيعتقد بأن الإنسان أصبح بعد السقوط غير قادر على عمل الخير من نفسه إن لم تساعده نعمة الله ، لأنه أصبح بعد السقوط عبداً للخطية . ولقد رجع إلى القديس برنارد الذى يقول « إن الرغبة تأتى من الإنسان ، أما رغبة عمل الشر فهى تأتى من الطبيعة الفاسدة ، ولكن رغبة عمل الخير فهى ثمرة النعمة . ولكى يؤيد فكرة أن الإنسان ليس حراً فى عمل الخير *رجع إلى قول الرب نفسه « ... كل من يفعل الخطية هو عبد للخطية » (يو ٨ : ٣٤) ، ثم قول الرسول بولس : « لأنى لست أعرف ما

29- Chrysostome, Homelien de la Trahison de Juda 1:3, 19:1

30- Gèrome Dial...Cortre LES Pèlagiens. Livre 3.1 Inst. 2.2.4

31- Origène. Des Prircipes Livre 3:1:3

32- Inst. 2.2.4

* فمع أن كلفن نادى بفساد الطبيعة البشرية إلا أنه يعتقد بأنه شيء قليل من النور أو شبه النور انظر Inst. 2:2 9:27

أنا أفعله إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل .. لأن الإرادة حاضرة عندى وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد لأنى لست أفعل الصالح الذى أريده بل الشر الذى لست أريده فإياه أفعل ... » (رو ٧ : ١٥ ــ ٢٥ ، غلا ٥ : ١٧ ، ٢ كو ٣ : ٥ ، تك ٨ : ٢١) . من هذه النصوص ومن نصوص أخرى يستنتج كلفن أن الإنسان لا يستطيع أن يفعل إلا الشر لأن طبيعته فاسدة وشريرة « ...لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته (تك ٨ : ٢١) . فهو يعلم أن السقوط لم يجرد الإنسان من الإرادة ومن مقدرة الاختيار ، ولكنه جرده من مقدرة اختيار الخير أو الحسنى ؛ فإن طبيعته الفاسدة تدفعه لعمل الشر والفساد ، لأنه أصبح عبداً للخطية وينفذ أوامر هذه الطبيعة الفاسدة والمسيطرة عليه ، وهى طبيعة خاطئة شريرة ، وأن قلبه فاسد وفارغ من كل صلاح (إرميا ١٧ : ٩) . ويعتقد كلفن بأن فساد الطبيعة شمل الجنس البشرى كله لأنه « .. ليس بار ولا واحد .. الجميع زاغوا وفسدوا معاً ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد ... (رو ٣ : ٩ ــ ١٨ ، مز ١٤ : ١ ــ ٣ إش ٥٩ : ٧ ــ ٨) [٣٣] . وهنا يتعرض كلفن لمشكلة أخرى فى حديثه عن حرية الاختيار ، وهى : إذا كانت طبيعة الانسان قد فسدت ، وإذا كان من المستحيل أن يفعل الخير ، فهو مرغم إذاً على فعل الشر . وإذا كان مرغماً على فعل الشر فهل من العدل أن يحاكمه الله على شر قد ارتكبه مرغماً ؟ وللإجابة على هذا الاعتراض فإن مصلح جنيف حاول أن يشرح الفرق بين كلمتى الضرورة والإرغام .

فان كلمة ضرورة أو حتمية تشير إلى إلزام داخلى ونابع من الداخل . أما كلمة ارغام فهى تشير إلى ضغط خارجى . فإن كان الإنسان يرتكب الخطية بسبب فساد طبيعته ، فإنه لا يرتكبها بسبب ضغط خارجى عنه ، بل إنه يرتكب الإثم بدافع داخلى وضرورة داخلية . أكثر من ذلك فإن الإنسان يرتكب الخطية بإرادته ، وفى كثير من الأحيان يجد لذة فى ارتكابها . فإنه يقوم بهذا العمل ليس مرغماً على عمله ولكنه يرغب فى عمله .

33- Inst. 2,3,2

وهنا يظهر الفرق بين العمل الذى يقوم به الإنسان راغباً فى تنفيذه ، والعمل الذى يقوم به الإنسان مرغماً على تنفيذه . فالإنسان بعد السقوط يقوم بعمل الخطية بمحض إرادته [٣٤] .

إن القدرة على فعل الخير وخلق الارادة لتنفيذ هذا العمل لا يتم إلا بعد تغير الطبيعة الفاسدة * ، التى ورثناها من آدم الاول والتى تعمل بقوتها وبسلطانها فينا ، وان الذى يغير القلب المتمرد العاصى والذى ينفذ كل أوامر الطبيعة الشريرة الفاسدة هو الله نفسه « وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحا جديدة فى داخلكم ... (مز ٣٦ : ٢٦ ، إر ١١ : ١٩ ، ٣٢ : ٣٩) . فعندما يغير الرب قلب الإنسان ، تتحول إرادته الشريرة إلى إرادة صالحة ، وهو أيضاً الذى يمنح الإنسان ، الذى كان سابقا لا يفعل إلا الشر والخطية ، الرغبة والقوة على القيام بأعمال صالحة . وهذا هو عمل النعمة فى الإنسان الخاطىء . فبعد التجديد يعمل روح الله فى الإنسان ، لكى يساعده ويؤهله للقيام بالأعمال الحسنة التى كان سابقاً عاجزاً عن القيام بها . « لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة (فى ٢ : ١٣ ، ٢ كو ٣ : ٥ ، عب ١٣ : ٢١) . ويعتقد كلفن بأن حتى هذه الأعمال الحسنة التى نقوم بعملها ، فإن الله قد سبق وجهزها لكى نسلك فيها (أف ٢ : ١٠) ويواصل المصلح شرحه لفكرة تدخل الله الكلى والجزئى فى عملية التجديد وتغيير قلب الإنسان مبيناً بأن هذه العملية تتم بتدخل الله وحده فإن الله هو الذى يغير قلب الإنسان ، وهو الذى يضع فيه مخافته وإطاعته (إر ٣٢ : ٣٩ ، حز ١١ : ١٩ ، ١ ملك ٨ : ٥٨ ، مز ٥١ : ١٠ ، ١١٩ : ٣٦) ، وإنه بدون عمل الروح القدس أو بدون تدخل المسيح ، لا يمكن للإنسان أن يغير نفسه (يو ١٥ : ١ ، ٤ : ٥ ، مت ١٥ : ١٣) . هو يعتقد بأن بداية العمل الصالح الذى يتكلم عنه الرسول عندما يقول « إن الذى

34- Inst. 2,3,5; Wendel 40-42, Niesel 80-1000

* ومع أن كلفن علم بفساد الطبيعة بعد السقوط إلا أنه يعتقد أيضاً أنه على الرغم من فساد طبيعته (الانسان) وسقوطها فإن الانسان يقوم فى بعض الاحيان بأعمال يمدح عليها . على أنه يعتقد بأنه حتى هذه الأعمال القليلة والنادرة والتى لا تمنح له الخلاص ناتجة عن هبات خاصة قد وهبها الله لفاعليها Inst. 2,3,4 .

بدأ فيكم عملاً صالحاً يكمل إلى يوم يسوع المسيح (فى ١ : ٦) هو عملية التجديد . فإن الله يبدأ بتجديد الانسان ويواصل عمله فيه إلى يوم المقابلة مع الرب يسوع . إن عملية التجديد التي يقوم بها الله نفسه بروحه القدوس هى عطية مجانية من الله . و لا تتوقف بأى حال من الاحوال على إرادة الانسان فى رفضها أو قبولها . فإن الله نفسه هو الذى يمنح للإنسان التجديد كما أنه هو نفسه أيضاً الذى يعمل فى الانسان لكى يستطيع بعد التجديد أن ينفذ هذه الاعمال الحسنة [٣٥] (حز ١١:١٩، ٣٦ : ٢٧ ، يو ٦ : ٤٥) .

فإن كلفن لا يتفق مع القديس يوحنا فم الذهب الذى يقول ما ملخصه «بأن النعمة لا تستطيع أن تفعل شيئاً بدون الإرادة [٣٦] ولكى يؤيد نظريته بأن نعمة الله لا تقاوم يرجع إلى القديس أغسطينوس الذى علّم بأن الله هو الذى يمنح نعمة التغيير وان الإنسان لا يستطيع أن يقاوم أو يرفض هذه النعمة .

وعلى المستوى التبشيرى يعلم كلفن بأنه من الضرورى المناداة بأن نعمة الله مقدمة إلى كل من يبحث عنها ولكن لا يوجد ولا شخص واحد يبحث عن الله وعن لطفه ، إن لم يعلن الله نفسه للانسان ويقنعه بنفسه . وهذا الامتياز الاخير لم يمنح الا للمختارين وستكون لنا الفرصة بأن نتحدث بتوسع عن هذا الموضوع عندما نتعرض لشرح تعاليمه فى الاختيار السابق . تحتل عملية التغيير أو تجديد القلب مكانة هامة جداً فى تعاليم المصلح الفرنسى فقد حاول أن يبين عمل الله المتواصل لقيادة الشعب إلى المصالحة وإلى عملية التجديد فقد قطع الله عهداً مع شعبه وأعطاه الناموس . وكان هدف الناموس إظهار بر الله وقيادة الشعب إلى التجديد . كان الهدف من الطقوس والناموس . الإشارة إلى ما هو أفضل من الناموس والطقوس ، التى يتكلم عنها هذا الناموس كان يشير إلى شخص الرب يسوع المسيح الفادى والمخلص . ففى العهد القديم كان الإنسان يقدم ذبائح عن خطاياه ، أما فى العهد الجديد نرى المرموز إليه

35- Inst. 2.3.10
36- Inst. 2.3.7

وقد قدم نفسه على الصليب لكى يكون كفارة عن الخطايا ، ولكى يمنحنا بدمه تبريراً كاملاً شاملاً . وهذا التبرير لا نحصل عليه فيما بعد ، لا بذبائح ولا بمسمنات بل بموت المسيح يسوع البار آدم الثانى . وقبل أن نترك موضوع تدخل الله فى عملية التجديد فى مفهوم كلفن ، نود بأن نلفت نظر الدارس إلى نقطة هامة فى تعاليمه . إن الإرادة الصالحة هى عطية من الله ، ولا تتوقف على رفض أو قبول الإنسان لها .

ونحن لا نتفق مع المصلح العظيم فى هذا الأمر . فمع أننا نؤمن بأن الله فى محبته التى تفوق كل عقل وفكر يبدأ دائماً بأخذ المبادرة ، وهو الذى يقود بروحه الخطاة إلى معرفة الحق ، وهو الذى بنوره نرى نوراً ، وهو الذى لا يفتح فقط الكتاب أمام عيوننا ولكنه يفتح أيضاً قلوبنا وأفكارنا لكى نفهم المكتوب ، إلا أنه ترك الحرية للإنسان فى اختيار الشر والخير . إن الله قد وضع أمام الإنسان طريق الحياة وطريق الموت ، وعليه أن يختار الحياة فيحيا أو الموت فيموت : « انظر قد جعلت اليوم قدامك الحيوة والخير والموت والشر .. فاختر الحيوة لكى تحيا أنت ونسلك .. (تث ٣٠ : ١٥ — ٢٠ ، ١١ : ٢٦ ، حز ٣ : ٢١ ، ١٨ : ٩ ، ٣ : ١٣ — ١٥ ، إر ٢١ : ٨ ، مت ١٨ : ٨) .

مما لا شك فيه أن الله هو الذى يعلن نفسه للإنسان ، وهو الذى يأخذ دائما بالمبادرة لأن الإنسان عاجز فعلاً عن أن يصل إلى الحقيقة وحده . وفى اتخاذه المبادرة فى إعلان ذاته يستعمل طرقاً مختلفة متنوعة ، تظهر للبعض كما لو كان الله يرغم البعض على قبولها ، إذ يفتح كل الأبواب أمامهم ويسهل لهم الطريق وقد يبدو لنا أيضاً أنه لا يستعمل نفس الطرق أو استعملها بدون تشديد وتنبير وتكرير فلم تأت بنفس النتيجة . إن استعمال وسائل النعمة أمر متروك لروح الله الذى يعرف الإنسان وأعماقه ، ويستعمل الطريقة التى تناسب كل شخص على حدة . ولكن ما يهمنا فى هذا الأمر هو أن الله قد ترك الحرية للإنسان ، ولا أقول الحرية المطلقة وإلا لساد الخراب المطلق على عالمنا ، لكن منحه قسطا من هذه الحرية لأن الله خلق الانسان حراً . ومع أن الانسان لم يبرهن فى الماضى ولا يبرهن فى الوقت الحاضر على نضوج كامل

فى استعماله هذه الحرية فإن الله لم ينزع عنه هذه الهبة « لأن هبات الله ودعوته هى بلا ندامة » (رو ١١ : ٢٩) صحيح بأن هذه الآية تشير إلى سؤال آخر ولكنها تبرهن فى الوقت نفسه على أن الله لا يسحب وعده مثل الإنسان ، بل هو أمين وينفذ بسخاء مواعيده مع الانسان ، وكل ما يريده هو تقدمه ونموه . فإن الله لا يريد أن يحطم الإنسان فى كل لحظة فارضاً عليه إرادته ، بل يوجهه ويرشده ويقوده لكى يختار الأفضل . وكلفن نفسه يقول فيما بعد بأن النعمة لا تحطم الإرادة بل تغيرها من إرادة شريرة إلى إرادة صالحة .. على أنه يقول والنعمة تمنح للمختارين ليس بحسب رغبة أو عمل الإنسان بل بحسب إرادة الله وحده .

على أى حال ستكون لنا فرصة أخرى نرجع فيها إلى مفهوم المصلح الفرنسى فى موضوع الاختيار السابق وحرية الانسان .

الفصل الرابع

العناية الإلهية

خلق الله الكون وكل ما فيه بكلمة قدرته ، وفى اليوم السادس توج عمله بخلق الإنسان ووضعه على رأس الخليقة التى خلقها . وبعد أن أنهى الرب عمله خالقاً ، وبعد أن وضع له النظم والقواعد التى يسير عليها بنظام ودقة ، لم يجلس الله عاطلاً أو « متفرجا » على هذا الكون . بل إن الله نفسه الذى كان يعمل خالقاً مع الكلمة فى البداية ، يواصل عمله بنشاط وهمة للعناية بهذا الكون وحفظه من الدمار والخراب ، فهو الذى خلقه وهو أيضاً الذى يسهر على العناية به (١) .

إن الذى يدرس كتابات كلفن وخاصة كتابه « دستور الديانة المسيحية » يلاحظ ان المصلح قد شعر بأنه لم يعط لهذا الموضوع الاهتمام اللائق به فى الطبعة التى ظهرت فى سنة ١٥٣٩ . ولذلك فقد خصص له فى الطبعة الأخيرة التى ظهرت فى سنة ١٥٥٩ ــ ١٩٦٠ ثلاثة فصول تقع فى حوالى اربعين صفحة ، كما أنه خصص عدداً كبيراً من عظاته لمعالجة هذا الموضوع .

لقد حاول كلفن ، سواء فى كتاباته العقيدية أو فى عظاته أن يشرح أن الله الخالق هو أيضاً الله الآب الذى يعتنى بالخليقة كلها .

فان عناية الله تشمل الإنسان وكل حياته وحركاته وتصرفاته ، كما أنها تشمل ايضاً كل حركة من حركات الخليقة على مستوى الكون كله . إنه ربان السفينة الذى يقبض بيده العظيمة الجبارة على الدفة فيقودها حيثما يشاء (٢) (مز ١١٥ : ٣ ، أى ١٦ : ٢٦ ، دا ٤ : ٣٥) .

1- Inst. 1.16.1; W. Niesel. 60-80., Wendel 130-136

2- Inst. 1,16. 3-4.

ويعتقد كلفن بأن الله يعتنى بالبشر ، أو بعبارة أدق يظهر سلطانه فى كل المجالات الكونية :

١ ـــ عناية الله بالطبيعة

فهو الذى خلق الطبيعة بكل ما فيها ، وهو أيضاً يشرف على نظام الكون وعلى تنفيذ هذا النظام البديع العظيم . فعندما تذوب الثلوج ويختفى البرد القاسى القارس ، يفسح الطريق للربيع بزهوره الجذابة عبقة الرائحة بديعة الجمال خلابة المنظر . وعندما يأتى الصيف ويعقبه الخريف نعلم أن هذه الفصول تسير بطريقة منتظمة دقيقة ، لأن الله هو الذى يديرها ويحكمها . إن الشمس المحرقة والبرد القارس والثلوج المتجمدة ، كذلك أيضاً الجفاف القاحط والفياضانات الجارفة المدمرة والأمطار الغزيرة والعواصف المحطمة ، وكذلك أيضاً الكوارث الطبيعية وخصوبة الأرض وجدوبتها .. كل هذا لا يحدث عن طريق الصدفة بل إن الله هو الذى يحكم لا بل يأمر بأن تحدث هذه الأمور كلها [٣] .

وبما أنه كان يرى يد الله عاملة فى توجيه الطبيعة وقيادتها ، فإنه كان يعتقد أيضاً بأن الله يستخدم هذه الظواهر الطبيعية ـــ سواء أكانت حسنة ونافعة أو رديئة وضارة لأغراض معينة . فعن طريق هذه الظواهر الطبيعية ، يريد الله أن يظهر لطفه وجوده وبره وعدله ومحبته للبعض ، كما أنه أراد أيضاً أن يظهر غضبه وعقابه للبعض الآخر ، أو أراد أيضاً أن يمتحن صبر ومثابرة المؤمنين ويتولى عقابهم وتأديبهم كأب [٤] (عد ١١ : ٣١ ، يونان ١ : ٤ ، مز ١٠٤ : ٤ ، ١٠٧ : ٢٥ ، ٢٦ ، ١٢٧ : ٣ ، عاموس ٤ : ٩ ، حجى ١ : ١١ ، تك ٣٠ : ٢) .

٢ ـــ عنايته بالجنس البشرى

إن الله يسيطر على الطبيعة والكون ويسيرهما حسب قصده ومشيئته وفى قيادته لهذا الكون يظهر عناية خاصة بالجنس البشرى كله ؛ فهو الذى يخصب الأرض فتعطى لنا طعاماً وخبزاً . ولقد علم كلفن فى عدة عظات بأنه حتى

3- Inst. 1.16.5-6: Wendel 130-136; Stauffer 261-294

4- Inst. 1.16

الخبز الذى يمنحه الله لنا من خصوبة الأرض لا يمكن له أن يأتى بالنتيجة المطلوبة منه لنمو الجسد إن لم يستخدمه الله . فإن العناية الإلهية هى التى تستخدم هذا الخبز لكى يكون نافعاً لنمو الجسد وحياته (٥) . إن الله يمارس سلطانه العظيم ومحبته وعنايته لنا عندما تتجاوز عنايته الاهتمام بأجسادنا ككل إلى الاهتمام بشعور رؤوسنا التى لا نشعر بفقدان بعضها عندما تسقط من رؤوسنا . فإن كان يهتم بالأمور الصغيرة التافهة كسقوط شعور رؤوسنا كما يهتم بالعصفور الخامس الذى هو بدون ثمن « على البيعة » (لو ١٢ : ٦ ، مت ١٠ : ٢٩) . ألا يهتم أيضا بالجنس البشرى كله لأنه خليقته ؟ إن الله يتدخل بصفة مستمرة للعناية بخليقته وحفظ الجنس البشرى من التلاشى والزوال من على وجه الأرض . فإن كل ما يحدث من أحداث مفرحة ومحزنة ، إنما يحدث بأمره ، لأن الله هو السيد المتسلط الذى يقبض بيديه على السلطان المطلق فى هذه الحياة . ويرفض كلفن فى تعاليمه وعظاته ما حاول البعض نسبته إلى الصدفة أو للظروف . فهو يعتقد بأنه إذا نسبنا هذه الأحداث التى يمر بها العالم للظروف أو للصدف ، فإننا نجعل من الظروف والصدفة إلهين . فإنه لا يوجد إلا إله واحد ورب واحد وسيد واحد ، الذى خلق عن طريق الكلمة العالم ، ومازال بسلطانه يقوده ويقود تاريخه على مر العصور وفى كل مكان . وإن قلوب ملوكه وقادته ما هم إلا كجداول مياه بين يديه : « قلب الملك فى يد الرب كجداول مياه حيثما شاء يميله » (أم ٢١ : ١) .

ويعلم كلفن بأن الله يستخدم سلطانه المطلق هذا ويطبقه على الجماعات والأفراد . فإن كل ما يحدث فى حياة الفرد أو الجماعة أو الدولة فبأمر من الرب ولا يوجد أى شىء ما متروك للظروف والصدف (٦) (إر ١٠ : ٢٣) (أم ١٦ : ١ ، ٢٠ : ٢٤) (عدد ١١ : ٣١) — (يونان ١ : ٤ ، مز ١٠٤ : ١ ، عاموس ٤ : ٩ ، حجى ١ : ١١) . ويتساءل كلفن ألم يعلم

5- Stauffer 268, 290 (N.66)

6- Inst. 1.16. 6-10: Stauffer 270-290; Niesel 70-80.

أيوب بأن الله هو الذى يعطى ويأخذ (أيوب ١ : ٢١ ، ٢ صم ١٦ : ١ ــ ١١ ، مز ٣٩ : ١٠) .

فإن كان الله يتدخل فى أمورنا على المستوى العالمى والفردى فى قيادة التاريخ وتوجيه الحوادث ، فهو أيضاً الذى يتدخل فى عمل المعجزات التى تحدث فى حياة البعض . ولقد تحدث المصلح فى عدة عظات عن تدخل الله عن طريق المعجزات ، لأنه هو سيد الكون وسيد الطبيعة ، والطبيعة والكون خاضعان لأوامره[7].

٣ ــ عنايته بالمختارين المؤمنين :

إن الله يعتنى أيضاً بطريقة خاصة بكنيسته [8] أى بالذين سبق فعينهم للحياة الأبدية . فهو يقودهم ويرشدهم ويفتح عيونهم بروحه ، وعندئذ يستطيعون أن يصلوا بنعمته إلى معرفته معرفة حقيقية ، وقبوله كالفادى والمخلص لحياتهم .

ولقد نبّر المصلح الفرنسى فى كتاباته العقيدية والوعظية على سلطان الله المطلق ، لا بل إنه تطرف فى كثير من الأحيان فى مفهومه لهذا السلطان المطلق ، لدرجة أنه يعتقد إذا سقط شخص ما بين اللصوص وهجموا عليه وقطعوا رأسه ، فإن الله قد سبق فرأى وأمر بحدوث هذا الحادث [9] . فهو يقول « إننا نعلن أن كل شيء متوقف على العناية الإلهية ... فلا تحدث حادثة سرقة أو ارتكاب جريمة أو انتحار دون تدخل إرادة الله »[10] (٢ صم ١٦ : ٢٢ ، ١٢ : ١ــ١٢ ، إرميا ٥ : ٢١ــ٣٣ ، إش ١٠ : ٥ ، ٥ : ٢٦ ، ١٩ : ٢٥ ، ١ مك ١١ : ٣١ ، ١ صم ٢ : ٣٤) .

فهو يعتقد بأن الله هو الذى يقود كل الأحداث الكبيرة والصغيرة . فهو الذى يقود إلى الثورة وإلى إخمادها ، إلى النصرة والغلبة ثم إلى الحرب أو السلام . وإن الذى يدرس تعليقه على قصة ايوب ، يشعر من شرحه كما لو كان الله هو الذى دفع وجنَّد كل القوات التى قامت ضد هذا الرجل لكى تحاربه وتجربه .

7- Calvini Opera 27. P.75
8- Inst. 1,16. 1-2; 17. 1-2
9- Inst. 1,16.9
10- Inst. 1.17.5

وهنا تظهر التساؤلات ، فالاعتراضات ، فالاحتجاجات . فإن فندل يتساءل قائلا : هل يمكن ان نشتم من هذه التعاليم أن الله صانع الشر ؟ وأن الإنسان غير مسئول عن أعماله ؟ (١١) وكيف يمكن أن يكون الإنسان مسئولا عن أعمال كان مضطراً أن يرتكبها ، لأن الله أمر بها ؟ ولقد سأله بعض معاصريه قائلين : لماذا إذاً يعاقب الله لصاً (قد سرق مال) ممن أراد الله أن يعاقبه بالفقر ؟ ولماذا يعاقب الله قاتلا قتل شخصاً قد أمر الله بانهاء حياته ؟ بالاختصار : إذا كان هؤلاء كلهم قد نفذوا إرادة الله لماذا يعاقبون على ذلك ؟ (١٢)

ولقد حاول كلفن أن يجاوب على هذه الأسئلة والاحتجاجات مبيناً أن إرادة الله واضحة ومعلنة ومعروفة فى الكتاب المقدس ، الذى يعلمنا ألا نسرق أو نقتل . وبناء على ذلك يجب علينا أن نطيع كلمة الله التى تنهى عن ارتكاب هذه الأعمال . وإذا خالفنا هذه الكلمة وكسرنا وصاياه فنحن خطاة ونجلب على أنفسنا غضب الله . ثم يواصل كلفن شرحه بالقول أن الذى يقوم بهذه الأعمال لا يفكر ولا يعتقد قط بأنه ينفذ إرادة الله ، بل إنه يرتكب هذه الجرائم مدفوعاً برغبة قلبه . ويردد المصلح مراراً وتكراراً فكرة أن المجرم يقوم بتنفيذ أمر قد سبق الله وأصدره ، ولكن هذا الإنسان الذى يقوم بهذا العمل يكون مدفوعاً بالشر الذى يسكن فيه وليس عن طريق رغبته العميقة ومحبته الفياضة لتنفيذ إرادة الله . فإن الذين يرتكبون هذه الأعمال لم تصل إليهم بعد نعمة الله ، فإنهم أشرار والله يستخدم هؤلاء الأشرارلتنفيذ قضائه فى الذين سبق ورأى أن يحكم بتأديبهم وعقابهم والله يستخدم هؤلاء الأشرار كأداة تأديب وعقاب . وإن استخدامه لهم كأشرار لتنفيذ أحكامه العادلة الصالحة فى من يريد عقابهم لا يعفيهم من المسئولية عن أى عمل إجرامى قاموا بارتكابه . وبناء على ذلك ، فإنه من المستحيل أن يُعذر مثل هؤلاء الذين عُجنوا بالشر والفساد ، وهم على استعداد بأن يقوموا بأى عمل فاسد شرير ، لأن الرب قد استخدم طبيعتهم الفاسدة فى تنفيذ عدله (١٣) .

11- Wendel 35

12- Inst. 1.17.5

13- Inst. 1.17. 5-9

ويتعرض كلفن فى الفصل الثامن عشر من كتابه الأول « دستور الديانة المسيحية » لمشكلة الأمر والسماح : هل الله يسمح للشرير أن يرتكب الشر والجريمة أم أن الله يأمر فعلاً الشرير بارتكاب الجريمة والشر ؟ وفى هذه الحالة الأخيرة ألا يمكن أن نقول بأن الله فاعل للشر ؟ إن كلفن يرفض بكل صراحة كلمة سماح . إن الله صاحب السلطان المطلق والعظمة التى لا تنافسها عظمة مهما كانت . فهو لا يسمح بل يأمر لأن له وله وحده كل السلطان . فإن كلمة سماح تعنى أن الله لا يجسر ولا يقدر على أن يتخذ قراراً جازماً ، ولذلك فهو يسمح به . ويترك التقرير لمن هو جدير بأخذ القرار . ولذلك فإن مصلح جنيف رفض اصطلاح يسمح ، واستعمل بدون تردد كلمة يأمر : فإن الله هو الذى يأمر بأن تحدث الأحداث الحسنة أو الرديئة الحياة أو الموت... (١٤) ولكى يوضح عقيدته هذه فقد رجع إلى قصة أيوب وإلى بعض القصص الكتابية الأخرى فى العهدين . ويستنتج كلفن من قصة أيوب أن الله هو الذى كان مجرباً له . وفى تجربته استخدم الشيطان واللصوص والأشرار . وإن أيوب نفسه يعترف أن الله هو الذى ضربه هذه الضربة ، مجرداً إياه من أمواله وأولاده . (أيو ١ ــ ٢ ، ١ مك ٢٢ : ٢٠) والنقطة المهمة هى أن الله لم يستخدم فى تنفيذه هذه التجربة أو الأحكام الأخرى مؤمنين أتقياء بل استخدم خدام الشر وعبيد الشيطان الذين كانوا قد أسلموا حياتهم للشيطان ولخدمته . فإن الله استخدم هذه الآلات لكى ينفذ بها وعن طريقها أحكامه ومقاصده . إن الله لم يسمح للشيطان أن يجرب أيوب أو يقوم بأعمال أخرى شريرة بل أمره بأن يفعل ذلك . ثم يواصل كلفن شرحه لمشكلة السماح والأمر ؛ فيقول إنها لمهزلة أن يسمح القاضى فقط أن يعمل ما يجب عمله ، دون أن يصدر أحكامه وأوامره للحراس بأن ينفذوا هذه الأحكام والقرارات . ولكى يزيد هذه المشكلة إيضاحاً ، يرجع إلى قضية يسوع . فإن اليهود قصدوا قتل المسيح وقبل هيرودس قرارهم . وأما البشيرون (لوقا) فيعلنون أن كل ما قام به اليهود وهيرودس ما هو إلا تنفيذ لما قد سبق

14- Inst. 1.18. 1-4

الله وقرره فى قصده السابق « هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدى أثمة صلبتموه وقتلتموه » (أع ٢ : ٢٣ ، ٤ : ٢٨ ، ٢٦ : ٢٤) . فإن كلفن يعتقد بأن موت المسيح كان امراً قد أصدره الله وتنبأ به الانبياء (اع ٣ : ١٨) ، وكان لابد من تنفيذه . فمن الذى يقوم بتنفيذ هذا الأمر الشنيع ؟ إن الذى ينفذ هذا الأمر : « أيدى أثمة » . فإن الله استخدم هذه الأيدى الآثمة الفاسدة الشريرة لتنفيذ مقاصده للخلاص . فمع أن الأمر صدر من الله ، فإن كلفن لا يرى أية مسئولية على الله ، لأنه لا يشترك — بأى حال من الأحوال — فى إثم الأثمة أو فى شر الشرير ، لأنه لم يدفع باراً لارتكاب هذا الإثم بل استخدم الشيطان وأعوانه لتنفيذ مقاصده كما أن الله لم يغرس الشر والفساد فى قلب الشرير والشيطان ، بل إن قلبيهما فاسد وشرير ومنه تنبع الشرور والفساد والقتل والكذب ... ويجد كلفن تشابهاً لهذه الفكرة فى تعاليم القديس أوغسطينوس الذى علم بأن الله يحكم على الإنسان حسب النية أو الرغبة التى تدفعه لإنجاز أى عمل يقوم به . فإن الذين يقومون بهذه الأعمال من قتل وسرقة وفسق الخ ... لا يقومون بها لكى ينفذوا إرادة الله ، أو لكى يقدموا له خدمة ، بل يقومون بها بحسب شهوات ورغبات قلوبهم الشريرة . وإذا استخدم الله فساد طبيعتهم وجرمهم لغاية طيبة وهدف سام ، فهذا لا يبرر موقفهم ولا يقلل من مسئوليتهم أمام الله [١٥] . والنقطة الأساسية فى مفهوم كلفن فيما يخص مسئولية الإنسان هي أن القاتل والسارق والمجرم ... يقوم بارتكاب هذه الأعمال دون أن يشعر بأى ضغط خارجى ، بل بدافع داخلى ورغبة نابعة من قلبه للقيام بها . وبناء على هذا الأمر فهو مسئول عن هذه الأعمال .

كان كلفن رجل قانون ماهر . ولقد سبق أن رأينا أنه درس فى كلية حقوق أورليان . وقد تركت دراسات الحقوق على المصلح انطباعات عميقة ، فى كتاباته وتفسيره وفى تعاليمه العقيدية . وإن الدارس لكتاباته يلاحظ بلا عناء أسلوبه المشبع بالقانون والدستور واللوائح والقضاء . إن دراسة الحقوق ساعدته

15- Inst. 1.18.4; Wendel 35-36; Niesel 76-80

كثيراً فى فهم أمور قضائية كثيرة . على أنها من جهة أخرى دفعته إلى التمسك بالقانون والقضاء والدستور إلى درجة نسى فيها ــ فى بعض الأحيان القليله جداً ــ أن الله أب محب قبل أن يكون قاضياً .

ففى معالجته لموضوع العناية الإلهية وسلطان الله المطلق على الكون وعلى الإنسان ، قدم لنا ــ كما سبق أن رأينا ــ الله وقد قبض بيديه على زمام الأمور من صغيرها إلى كبيرها ، فلا يحدث حدث ما فى الكون كبيراً كان أم صغيراً ــ إلا والله من وراء هذا الحدث . مما لاشك فيه أن المصلح كان يحاول جاهداً أن يشرح لشعب جنيف ، الذى كان متمسكاً بعادات وتقاليد وتعاليم لا تتفق وتعاليم الكتاب المقدس ، أن حياتنا وأمورنا ليست رهينة الصدف أو الظروف أو التعاليم الخرافية ، بل إنها بين يدى سيد عظيم له سلطان مطلق . وفى سلطانه المطلق وفى علمه السابق حكم بكل ما حدث وما يحدث وما سيحدث ، وبما أنه سبق وحكم بكل ما يدور فى الكون ، فإنه يستخدم الشيطان وأتباعه لتنفيذ سلطانه ، فإنه هو الذى يدفع هؤلاء لتجربة أيوب ليمتحن إيمانه وتقواه ... وهنا لا نتفق مع المصلح العظيم الذى نكن له كل حب وتقدير . مما لا شك فيه أن الكلام عن الله أمر خطير بالنسبة للإنسان ، عندما يحاول المخاطرة فى هذا المجال . وعلينا جميعاً أن نتقدم بكل حذر وتواضع خالعين أحذيتنا من أرجلنا ، لأننا نقف على أرض مقدسة ، طالبين إرشاد روح الله الذى بنوره نرى نوراً .

سبق أن أشرنا بأن هم كلفن وشغله الشاغل ، كان إعلان عظمة الله وسلطانه المطلق على الكون كله . فهو الذى يجرب أيوب ويجرب الآخرين لكى يمتحن إيمانهم ويجعلهم مثالاً لنا . وفى تجربتهم استعمل أشخاصاً قد سلموا أنفسهم للشر والفساد . ومع أننا نتفق مع كلفن بأن سلطان الله غير محدود ، وأنه يمتد ليس فقط فى عالمنا بل فى الكون كله ، وأنه ليس بالإله الخامل الذى خلق العالم فى ستة أيام أو ست حقب من الزمن ، واضعاً له (للكون) قوانين طبيعية يسير بموجبها ، ويظل بعد ذلك خاملاً عاطلاً ، بل إنه الإله الذى خلق ويخلق وسيخلق فى كل يوم . وهو الذى يدير العالم ويتدخل

فى أموره بطريقة فعلية عملية ، وأن عالمنا غير متروك لطيش الطائشين أو حماقة الحمقى ، وإلا تلاشى العالم من الوجود من زمن طويل . وإن كنا نتفق مع كلفن فى كل هذا ، فإننا لا نتفق معه فى بعض الأمور الأخرى .

فيما يخص عظمة الله وحرية الإنسان . لا جدال بيننا على موضوع أن الله عظيم سام . ولا جدال بيننا أيضاً على ضرورة إعلان هذا الحق ، وخاصة فى مجتمع القرن العشرين ، الذى يعيش ثورة علمية تكنولوجية على جميع المستويات . وهو مجتمع مجَّرب فى كل لحظة أن يضع اختباراته واكتشافاته العلمية العظيمة فى مكان الله . فعلينا إذاً أن ننبر بشدة أكثر من كلفن على عظمة الله وقدرته وتدخله فى شئوننا ، وهذا ما عمله كلفن . وأما ما لم يعمله وما نلومه عليه ، فهو إهمال دور الإنسان فى هذا العالم . فعند دراساتنا لبعض تعاليمه ــ نشعر فى بعض الأحيان ــ كما لو كان الإنسان مجرد آلة يحركها الله كما يشاء وأينما شاء . وهذا بلا شك يجب أن يكون موقف المؤمن إزاء إرادة الله بأن يكون كآلة بين يديه ، لكنه ليس آله مجردة من الإرادة ومن النشاط والعمل والاشتراك مع الله . وما نأخذه على كلفن ليس حقيقة التنبير الشديد على عظمة وقدرة الله ، بل هو إهمال عمل الإنسان واحترام حريته . فإن الله خلق الإنسان حراً ، وفى محبته العظيمة منحه عقلاً مفكراً ، وأعطى له منذ البداية مبدأ الاختيار وضع أمامه شجرة معرفة الخير والشر وترك له الاختيار . ولقد أسند الرب عملاً للإنسان منذ ظهوره على الأرض : « وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها » (تك ٢ : ١٥) . وكان الغرض من ذلك هو أن يشترك آدم مع الله فى عمله . والرسول بولس يقول : « فإننا نحن عاملان مع الله ... » (١ كو ٣ : ٩ ، ٢كو ٦ : ١) . إن الله فى محبته العظيمة لابنائه لا يكتفى بأن يخلقهم ويمنحهم الحياة الأبدية فقط ، بل إنه يشركهم فى هذه الحياة أيضاً فى عمله ، لأن الله يعتبر الإنسان شريكاً له . فمع أنه سيد الكون وسيد الإنسان ، إلا أنه تنازل فى محبته للإنسان وأشركه معه . وهذا ما قد أهمله كلفن فى بعض الأحيان . فإنه يرى الله وعظمته وسموه : الله الذى يملأ السماء والأرض . ومع أنه يعلم أيضاً بتنازل الله الآب فى الابن ، ولكنه لم يستطع أن يدرك ــ فى بعض الأحيان ــ

أن الله قد تنازل (ولا نقول تخلى) عن عظمته وعن سموه وصار إنساناً . وبنفس الطريقة منح أيضاً الإنسان حريته ، لا بل أشركه فى بعض الأحيان فى سموه وعظمته لأنه دعاه ابناً وشريكاً له ، لا بل صار شريكاً فى الطبيعة الإلهية (٢ بط ١ : ٤ ، أف ٤ : ٢٤ ، ايو ٣ : ٢) فالشريك هو الذى يساهم بمجهوده وأفكاره مهما كانت بسيطة ومتواضعة ، وهذا ما يريده الله منا . ليس أن نكون بين يديه كآلات سلبية ، لا حركة ولا حياة فيها ، بل أن نكون كأشخاص قبلوه فى حياتهم كمخلص وسيد ، ووضعوا بين يديه إمكاناتهم الضعيفة البسيطة ، لكى يستخدم هذه الإمكانات وأصحابها . إن الله لا يحطم مواهبنا وإمكاناتنا بقضاء مسبق ، ولكنه ينمى فينا هذه المواهب ويوجهها .

وهناك نقطة أخرى أثارها كلفن فى تجربة أيوب . إن المصلح يعتقد بأن الذى أثار التجربة هو الله . كان المفهوم السائد فى اليهودية ، والذى ترك تأثيراً كبيراً فى المسيحية ، ومازال منتشراً حتى الآن بين الكثيرين ، هو أن الله يجرب المؤمن ويسمح له بامتحانات قاسية وتجارب مؤلمة محرقة لكى يختبر إيمانه ويمحصه .

ورجع الذين نادوا بهذه الفكرة إلى المكتوب ، ووجدوا آيات كثيرة ظنوا أنها تؤيد تعليمهم مثل قصة أيوب وشواهد أخرى . ولا يمكننا هنا التصدى لبحث هذا الموضوع ، ولكن يجب أن نرجع إلى دراسة هذه الآيات من جديد وبطريقة جديدة . لأنه توجد فى نفس الوقت آيات أخرى كثيرة وعديدة أيضاً تظهر لنا أن الله لا يجرب المؤمنين ، بل إن التجارب تأتى من الإنسان نفسه : « لا يقل أحد إذا جرب إنى أجرب من قبل الله لأن الله غير مجرب بالشرور وهو لا يجرب أحداً ... (يع ١ : ١٣ ـــ ١٤) فلو قبلنا فكرة أن الله هو الذى يجرب ، لقبلنا فكرة مريعة مخيفة مزعجة . فإن بعضاً من الذين نادوا بهذه الفكرة علموا بطريقة غير **مباشرة** بأن الله يرسل التجارب والتأديبات والآلام على المؤمنين ويقف متفرجاً . وهذا لا يتفق مع طبيعة الله الآب المحب . إن يد الله المحب القوية لا تدفع بأولاده فى بودقة التجارب لكى يصهروا ويتألموا ، ولكنها فى محبة فائقة الوصف تمتد بقوتها وتنتشل أولاده من هذه البودقة . إن عمل الله الآب المحب ليس هو تعذيب أولاده ، بل هو

الإسراع فى نجدتهم وإنقاذهم من العذابات والتجارب والمحن ، التى يلقون بأنفسهم فيها ، سواء عن علم أو عن جهل . إن الله فى محبته لا يفرض على أولاده صلباناً ، كما أنه لا يريد أن يرى صلباناً تعترض طريقهم فى سيرهم إلى المجد . ولكنه على استعداد تام أن يسرع إلى نجدتهم ، وأن يقف بجانبهم ، وأن يعطى لهم القوة والشجاعة على حمل هذه الصلبان التى يضعها العدو ، ولكى يثبط بها عزيمتهم ويحولهم بها عن السير إلى المجد . فعندما تعترض هذه الصلبان طريقهم فإن يده هى التى تمتد وتختطف المؤمن من التجربة ومن أتون النار ، أو تعطى له القوة لكى يتحمل هذه التجربة « ... بل سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا» (١ كو ١٠ : ١٣) . إن عمل محبة الله هو أن لا يدفع المؤمن إلى التجربة ، بل أن يحفظه بعيداً عنها وينقذه منها اذا سقط فيها : « يعلم الرب أن ينقذ الأتقياء من التجربة ..(٢ بط ٢ : ٩) .

يعتقد الكثيرون بأن الله يسمح لا بل يأمر جيوش الضيقات والآلام والتجارب أن تهب على المؤمن لتصفيته وتنقيته ، لكى يكون مؤهلاً وصالحاً للحياة الأبدية . وفى رأينا أن هذا التعليم خطأ عقيدى وليس تعليماً كتابياً أو إنجيلياً . إن صفاء حياة المؤمن ونقاوتها ، وتأهيله لميراث الحياة الأبدية لا يأتى بأى حال من الأحوال — عن طريق التجارب والضيقات والآلام التى يجتاز بها ، بل عن طريق موت الرب يسوع المسيح الذى قدم نفسه كذبيحة حية فعالة . فبموته وقيامته استطاع ان يهب لنا الحياة . فليس بأعمالنا وآلامنا نستطيع ان نرث الحياة أو ان نُطهَّر من خطايانا الكبيرة أو الصغيرة ، بل عن طريق دم المسيح الذى يطهر إلى التمام من كل خطية ، وإلا لأصبح فى استطاعتنا أن نحصل على خلاصنا بآلامنا . وبناء على ذلك يصبح موت المسيح بلا سبب . ولا أريد بهذه السطور السابقة أن ألاشى سلطان الله ولا حتى أن أقلل منه . كما إننى لا أريد أن أعطى صورة غير التى يقدمها الكتاب عن محبة الله . فإننى أؤمن بأن محبة الله عظيمة وقلب الله المحب لا يريد أن يجرب أولاده أو أن يدفعهم إلى تجارب قاسية مؤلمة لكى يطهر حياتهم ، لأن حياتهم طهرت بموت المسيح وقيامته .

وليس من شك أن الله له طرق كثيرة مختلفة يتكلم بها إلى الإنسان وإلى أولاده . ولا أنكر أنه فى بعض الأحيان قد يستعمل الشدة والقسوة ، ولكن يجب علينا أن نكون حريصين كل الحرص فى فهمنا لمشكلة عناية الله وسلطانه . إن سلطان الله تميز أولاً وقبل كل شيء بالمحبة واللطف وبطول الأناة ، لأن الله محبة . إن سلطان الله هو فى العناية بأولاده ومحبتهم وقيادتهم إلى الخلاص والحياة الابدية ، وليس الزج بهم فى تجارب مؤلمة قاسية محرقة .

وهذا يقودنا إلى موضوع آخر تعرض له كلفن وهو موضوع الإختيار السابق ، الذى سنتناوله فى الفصل القادم .

الفصل الخامس

التعيين السابق La Prèdestination

ما هو مفهوم كلفن فى قضية التعيين أو الاختيار السابق ؟ على علّم بنظرية أن الله سبق واختار أو عيّن البعض للحياة الأبدية والبعض الآخر للهلاك الأبدى ؟ سوف نعرض فى هذا البحث أفكار المصلح كما هى فى قضية الاختيار ، وما هو مفهومه عنها . من هم المختارون وكيف تم اختيارهم قبل تأسيس العالم ، وعلى أى أساس تم هذا الاختيار ؟ من هم المرفوضون ولماذا رفضهم الله ، وعلى أى أساس تم هذا الرفض ؟

ما هو موقفه من نظرية العلم السابق ؟ هل الله سبق فعلم ، وعلى هذا الأساس اختار البعض ورفض البعض ، أم أنه اختار أولا ؟ ما هى نظرية كارل بارت فى موضوع الاختيار ؟ وفى النهاية سوف نقدم تعليقنا الشخصى .

إن عقيدة الاختيار السابق من العقائد التى إحتلت مكانة هامة فى تعاليم المصلح الفرنسى . ولكنها ليست العقيدة الرئيسية والأساسية فى تعاليمه ، والعالم فندل [1] يشير إلى هذه الحقيقة . ومما لا شك فيه أن كلفن أعطى اهتماماً كبيراً وملحوظاً لعقيدة الاختيار ؛ فتحدث عن المختار والمرفوض بطريقة واضحة وصريحة . ولكن لا يمكننا القول بأنه أعطى لهذا الموضوع المكانة الأولى فى تعاليمه . إن الدارس لكتابات كلفن يلاحظ أنه لا يلمس هذا الموضوع إلا لمساً خفيفاً جداً فى كتاباته الأولى . ولكنه بدأ ينبر على موضوع الاختيار بطريقة واضحة بعد اتصاله بالمصلح بوسر ، وبعد دراساته العميقة لتعاليم القديس أغسطينوس . ومن المعروف أن القديس أغسطينوس كتب الكثير عن الاختيار السابق . وقد تركت كتاباته انطباعات عميقة جداً على

1- F. Wendel pp 200-202

مصلح جنيف ، لأنه كان من « المغرمين » والدارسين لكتاباته ، مع أنه لم يتفق معه فى بعضها . فلقد حاول المصلح أن يدافع عن هذه العقيدة ضد هجمات جيروم بولسك فى مكتوب كتبه سنة ١٥٥١ . ثم كتب كلفن مرة أخرى عن نفس العقيدة ضد بيغيوس (Pighius) وظهر سنة ١٥٥٢ . كما أنه كرس أربعة فصول [٢] فى كتابه المشهور « دستور الديانة المسيحية » الكتاب الثالث ، لمعالجة هذا الموضوع . فما هو مفهوم كلفن إذاً لهذه المشكلة ؟ من هم المختارون وكيف تم اختيارهم ؟

وقبل أن نشرح مفهوم كلفن للاختيار ، يجب أن يتذكر القارىء أن المصلح الفرنسى قد علّم بأن الطبيعة البشرية قد فسدت بعد السقوط ، ولا تستطيع أن تعمل إلا الشر والخطية . فمع أن صورة الله لم تمح تماماً من الإنسان ، إلا انه أصبح عاجزاً ــ بعد السقوط ــ عن عمل الخير . وبناء على ذلك فهو بعيد كل البعد عن ملكوت الله ، ومحكوم عليه بالهلاك وبالموت . وهنا يظهر السؤال الهام وهو : هل الله حكم على الإنسان بالموت وبالهلاك لأنه سقط فى الخطية ، أو أنه سقط فى الخطية لأنه كان محكوماً عليه بالسقوط وبالموت والهلاك ؟

لقد سبق أن تعرضنا لهذه المشكلة ورأينا أن كلفن علَّم بأنه كان فى إمكان آدم أن يظل واقفاً لو رغب فى ذلك . فلم يسقط إلا بإرادته الشخصية . ولأن إرادته كانت متأرجحة بين الخير والشر ، كما أن هبة المثابرة لم تكن قد مُنحت له ، ولهذا فقط سقط بسهولة ....

إن مفتاح كل تعاليم كلفن فيما يخص موضوع الاختيار والرفض كامن فى هذه الجملة الاخيرة : « كما أن هبة المثابرة لم تكن قد منحت له ، ولهذا سقط بسهولة » . فهل الله هو الذى حكم برفضه وبسقوطه ؟ على أى حال سوف نأتى إلى هذه النقطة فيما بعد ، ولكن لنرجع الآن إلى السؤال الذى سألناه سابقاً : من هم المختارون ، وكيف تم اختيارهم ، وعلى أى أساس ؟ ...

2- Inst. 3. 21-24

عندما بدأ كلفن فى شرح هذه العقيدة حذر بشدة الذين يبحثون عن معرفة كل شىء ، وخاصة الأشياء التى لم يعلنها لنا الله فى الوحى ، ويهملون الأشياء التى أعلنها لنا الله بطريقة واضحة فى كتابه ، وعلى الإنسان الا يرتئى فوق ما يجب أن يرتئى . فإن السيد لم يعلن كل شىء إلى التلاميذ أنفسهم (يو ١٦ : ١٢) ، لأن ذهنهم لم يكن معداً وكافياً لفهم كل الحقائق السماوية . فمن واجب الإنسان أن يقبل الوحى المعلن فى الكتاب المقدس بإيمان وتواضع [٣] . ويعتقد بأن الاختيار هو وحى كتابى ، وبناء على ذلك يجب علينا قبوله كما هو ، لأن الله أعلنه لنا فى الكتاب المقدس . لا بل أكثر من ذلك ، يجب علينا المناداة والتحدث عنه علانية . وإن رفض التحدث عن الاختيار يعد إهانة لله . كما لو كان الله تحدث بشىء كان لا يجب عليه أن يتحدث به ، أو كما لو كان موضوع الاختيار خرج من فمه عفواً [٤] .

ولذلك فان كلفن قد علّم بالاختيار السابق ، بدون تردد . فهو يقول ما ملخصه : ونحن نقول ، كما يعلن ذلك الكتاب المقدس بوضوح ، بأن الله فى قصده الأزلى وغير المتغير قد سبق فعين الذين أراد أن يعينهم للخلاص والذين أراد أن يعينهم للهلاك . وأما فيما يخص بالمختارين فنقول : بأن هذا القرار نابع من رحمته وبدون اعتبار لأى إستحقاق بشرى . وعلى العكس ؛ فإن (باب) الدخول للحياة الأبدية مغلق أمام الذين أراد ان يسلمهم للقضاء (للهلاك) ، ولقد أخذ هذا القرار حسب قصده المخفى وغير المدرك ، ومع كل هذا فهو عادل وصالح [٥] .

ومع أن عملية الاختيار تبدو مرعبة مخيفة وتسبب قلقاً واضطراباً ، ولكن كلفن ــ على عكس ذلك تماماً ــ يعلن أن عملية الاختيار مبهجة ومفرحة للقلوب ، بسبب الثمار الحلوة والشهية التى نحصل عليها منها . فإن هذه العقيدة

3- Inst. 3.21.4

4- Inst. 4

5- Inst. 3.21.7: 3.21.5; Wendel 205-208; Niesel 159-18.

تؤكد لنا أن خلاصنا المجانى هو فى يد الله وحده ، وفى رحمته [6] .

ورجع المصلح إلى الكتاب المقدس لكى يؤيد تعاليمه الخاصة بالاختيار ؛ فلقد اقتبس (روميه ٩ : ١١ ثم أف ١ : ٤ ، ٩ ، رو ٨ : ٢٨ ، ٢ تس ٢ : ١٣ ، ٢ تيمو ١ : ٩ ، تك ١٨ : ١٠ ، ١٤ ، تك ٢٥ : ٢١ ، تك ٩ و ٢٥ ، ملا ١ : ٢ — ٣ ، تث ٣٢ : ٤) . كما أنه يقدم قائمة أخرى طويلة بشواهد كتابية عديدة من العهدين ، وهى شواهد لجماعة من المختارين ولجماعة أخرى من المرفوضين : فنرى اسحق واسماعيل ، ثم يعقوب وعيسو . فيقول عن يعقوب « أحببت يعقوب وأبغضت عيسو » (رو ٩ : ١٢) . إنه أحب يعقوب وأبغض عيسو قبل أن يولدا . وقبل أن يفعلا خيراً أو شراً . لماذا إذاً أحب الواحد وأبغض الآخر ؟!! يعتقد كلفن بأن السر الوحيد لهذه المشكلة هو أنه سر غير مدرك ، وعلينا أن نقبله بالإيمان وأن نصدق المكتوب لأنه إعلان الله .

فهو نفسه يعترف بأن هذا الأمر غير مدرك ويفوق عقولنا ، لذلك لا يحاول أن يفهم هذا السر بل يقبله ويؤمن به لأنه واضح كل الوضوح بالنسبة له [7] . فإن الأساس الوحيد لقبول هذه العقيدة هو أنها معلنة بطريقة واضحة وصريحة بالنسبة لكلفن فى الكتاب المقدس ، وبناء على ذلك فإنه يجب قبولها . ولا يجب على الإنسان أن يسأل أسئلة ليس من شأنه أن يسألها . فمن هو الإنسان حتى يتجرأ ويسأل خالقه ؟

ومع أن كلفن يعترف بعجزنا الكامل عن فهم هذه المشكلة ، فإنه يحاول أن يرد على الذين رفضوها فيقدم لهم مفهومه لعملية الاختيار . فهو يؤمن بأن الله اختار شعباً من وسط الشعوب لكى يكون شعبه (تث ٣٢ : ٨ — ٩ ، خر ١٥ : ١٦ ، ١٩ : ٥ ، ١ صم ١٠ : ١ ، مز ٧٨ : ٧١ ، إش ١٤ : ١ ، ٤١ : ٩ ، زك ١ : ١٧ ، ١٢ : ١٣).ولم يكن هذا الشعب كله

6- Choisy. 122
7- Inst. 3.23.

مختاراً ، فقد اختار البعض ورفض البعض الآخر .

فلقد كان إسماعيل مثل أخيه اسحق ، ولكنه أبعد الأول واختار الثانى . وكذلك أيضاً عيسو كان مثل يعقوب ، ومع ذلك اختار الواحد وأبغض الآخر . كما إنه اختار أيضاً للبركة من أولاد يوسف إفرايم ، مقدماً إياه على منسى ، مع أن هذا الأخير كان البكر (تك ٤٨ : ١٧) . وهذا نفس ما حدث أيضاً فى رفض شاول الملك وقبول داود (١ صم ١٥ : ٢٣ ، ١٦ : ١) .

فعلى أى أساس قبل الله الواحد ورفض الآخر ؟ إن الأساس الوحيد للقبول أو الرفض هو قول الرسول « ... حسب مسرته التى قصدها فى نفسه » (أف ١ : ٩ ، ٣ : ١١) . فإن المصلح يعتقد بأن الله قد سبق وعين قبل خلق العالم مصير كل إنسان : عين البعض للحياة الأبدية ، وعين البعض الآخر للهلاك الأبدى . وهنا يظهر سؤال آخر : هل سبق الله فعرف فعين أم عين فعرف ؟ يعنى : هل سبق الله فعرف سلوك الناس وأعمالهم ، وبناء على ذلك قضى بخلاص البعض وهلاك البعض الآخر ، أم أنه عين البعض للحياة الأبدية والبعض الآخر للهلاك ، قبل أن يعرف أعمالهم وسلوكهم ؟

إن بعض البلاجيين وخاصة « نصف البلاجيين » وكثيرين من الذين يؤمنون بعملية الاختيار الأزلى السابق حاولوا أن يجدوا حلاً لهذه المشكلة العقيدية . فهم يؤمنون بأن الله عادل ومحب ورحيم ولطيف . ولكن هل يمكن أن هذا الإله العادل المحب والرحيم واللطيف ، يحكم على البعض بالحياة والبعض الآخر بالهلاك قبل أن يولدوا ؟ وبما أن هذه الجماعات تتمسك بفكرة قضاء الله السابق ، وفى الوقت نفسه تتمسك بعدل الله ومحبته .... فقد حاولت إيجاد حل لهذه المشكلة . ولقد اعتقدت بأنها وجدت الحل الصحيح فى نظرية علم الله السابق (Prèscience) ، فما هو المقصود بهذه النظرية ؟ إن هذه النظرية تعلم بأن الله يعرف كل شيء . وبناء على هذه المعرفة ، فإنه سبق وعرف مصير كل فرد . فإذا عين شخصاً للحياة الأبدية ، فذلك لأنه سبق وعرف سلوكه وحياته وموقفه إزاء الدعوة التى سيدعى إليها ، وأنه سيقبل

الفداء ويقبل المسيح كمخلص وفادٍ . فإن أساس الاختيار هو معرفة الله بمستقبل كل فرد ، وهذا ما ينطبق تماماً على المرفوض أيضاً . ورفض كلفن هذه النظرية رفضاً باتاً . والسبب فى رفضه لهذه النظرية هو اعتقاده الجازم بأن اختيار الله للمؤمنين ليس مؤسساً ــ بأى حال من الأحوال ــ على أعمالهم أو تصرفاتهم فى الماضى أو فى الحاضر أو فى المستقبل ، بل ان هذا الاختيار تم فى المسيح يسوع قبل تأسيس العالم عن طريق النعمة والرحمة . فلو كان الله قد سبق ورأى أعمالهم الصالحة واستعدادهم لقبول الفداء وبناء على ذلك اختارهم ، فإن الاختيار يكون مبنياً على ما سبق ورأى الله فى علمه الخفى ما سوف يقوم به المختار من عمل ، وبناء على هذا العمل وعلى هذا السلوك اختاره الله وليس عن طريق النعمة . والتعليم الذى نادى به المصلح غير ذلك : فان فرز أو اختيار الله غير متوقف على الأعمال التى سبق الله ورأى بأن هذا الشخصّ سوف يقوم بها ، بل إن العكس هو الصحيح . فإن المختار يسلك فى طريق البر والقداسة لأن الله سبق واختاره ليقوم بهذه الأعمال . لا بل إن كلفن يذهب أبعد من ذلك فى بحثه . فإنه يعتقد بأن الله اختار البعض للخلاص وللقيام بالاعمال الصالحة لانهم اختيروا بنعمته ، وحتى هذه الأعمال الصالحة نفسها سبق الله وأعدها لهم . ويرجع كلفن إلى قول الرسول لكى يؤيد فكرته هذه : «لأننا نحن عمله مخلوقين فى المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكى نسلك فيها (أف ٢ : ١٠) . فإن الله لم يختر فقط المؤمن لكى يعمل الأعمال الصالحة ، بل حتى هذه الأعمال الصالحة سبق الله فأعدها له لكى يسلك فيها [٨] .

إن كلفن يفصل بين علم الله السابق واختياره . فمع أنه يؤمن بأن الله يعلم كل شيء ويرى كل شيء ويسيطر على كل شيء ، ولا يوجد أمام الله ماضى وحاضر ومستقبل ، ومع ذلك فإن اختياره لم يكن مؤسساً على علمه السابق . أما القديس اغسطينوس فقد علّم فى بعض كتاباته بأنه لا يمكن تحديد

8- Inst. 3.22: 1-4

قضاء الله الأزلى بأسباب خارجية عنه ، مثل سلوك وتصرفات المختار فى المستقبل ، ولكن بما أن الله يعرف مسبقاً ما سيقوم بعمله فى المختارين ، يمكن بذلك اتحاد الاختيار السابق مع علم الله السابق .

ولقد قبل كل من بوسر ولوثر [٩] هذا الفكر الذى رفضه كلفن .

يرفض كلفن نظرية أن الاختيار السابق مبنى على علمه السابق ، لأنه رأى فيها تقليلاً لسلطان الله . فإن كان الله سبق ورأى سلوك وقرارات كل شخص فيما يخص مستقبله ، وبناء على هذه الرؤية المستقبلية قضى بمصير كل واحد ، فهذا لا يدعى قضاء بل إن سلوك وقرارات كل فرد فى مستقبله أملت القرار على الله . وبناء على ذلك يصبح الإنسان سيداً لمستقبله ومقرراً لمصيره . وهذا ما لا يقبله مصلح جنيف ، لأنه يعتقد بأن الله يتمتع بسلطان مطلق . وبهذا السلطان المطلق والعادل أجرى حكمه وقضاءه . فهو الذى خلق من الإنسان إنساناً ، ومن الحيوان حيواناً ، بنفس السلطان المطلق . فإن كان الله خلق الانسان انساناً وليس لأنه وجد فضلا فى الانسان ما يميزه عن بقية الخليقة بل السبب الوحيد هو قصد الله [١٠] فهل يلام الله لأنه ميز الإنسان عن الحيوان ؟ أو لأنه اختار من وسط الجمهور الهالك بعضاً عينهم للحياة الأبدية ؟

ثم يرجع إلى قول الرسول : « كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه فى المحبة (أف ١ : ٤) . ويستنتج من هذه الآية عدة أمور : فهو يعتقد بأن الرسول بولس يرفض بهذه الآية عقيدة الذين ينادون بأن الله بنى اختياره على معرفته : فهو يؤمن بان اختيار الله غير متوقف على سلوك الإنسان أو معرفة الله السابقة والدليل على ذلك بأن غرض اختياره للمؤمن هو « لنكون قديسين » . فان الاختيار سابق اذاً للقداسة ، والقداسة هى النتيجة وليس السبب للاختيار . «واختارنا قبل تأسيس العالم » : إن اختياره لنا قبل تأسيس العالم يعنى أن هذا الاختيار غير مبنى على ما يعمله الإنسان من صلاح أو من شر ، بل راجع إلى مسرة الله وقصده الأبدى

9- Wendel 206
10- Choisy 120-127

ورحمته . لأنه يترأف على من يترأف ويرحم من يرحم . وبهذا ينفى كل كبرياء الإنسان وادعاءاته . فإن عملية الاختيار تمت عن طريق النعمة وليس عن طريق الأعمال : « الذى خلصنا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتضى القصد والنعمة ، (٢ تيمو ١ : ٩ ، رو ٣ : ٢٠ ، ٩ : ١١ ، تيطس ٣ : ٥) بالنعمة أنتم مخلصون ... فإن السبب لاختيار البعض يرجع إلى الله وإلى الله وحده ، وليس إلى أعمال الإنسان أو تصرفاته حسب علم الله السابق [١١] . إن الله هو الذى يختار «ليس انتم اخترتمونى بل انا اخترتكم» (يو ١٥ : ١٦ ، ٦ : ٧٠ ، ١٣ : ١٨ ، ٤ : ١٠ ، ١٩) . لا يقدر أحد أن يقبل إلىَّ إن لم يجتذبه الآب ... (يو ٦ : ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٥) . ويعتقد كلفن بأن المسيح فى صلاته الشفاعية لا يصلى من أجل العالم كله ، بل من أجل الذين أعطاهم الآب للابن [١٢] أى للمختارين فقط .

فقد علم كلفن إذاً بأن عملية الاختيار تمت فى قصد الله الأزلى وحسب مسرته . فإن الذين اختارهم للحياة الأبدية لم يخترهم لأى سبب آخر غير مسرته . فمن وسط هذه الكتلة البشرية التى يسميها القديس أغسطينوس الكتلة البشرية المحكوم عليها بالهلاك ، انتشل الرب البعض حسب رحمته ، وأنقذهم من الموت والهلاك ، ووهب لهم الحياة الأبدية . والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : كيف يوصل الله بطريقة عملية دعوته للمختار ؟ يعتقد مصلح جنيف بأن الله يوصل رسالة الخلاص للإنسان المختار عن طريق الدعوة والوعظ والتعاليم . فهو يعلم بوجود نوعين من الدعوة : دعوة عامة ودعوة خاصة .

الدعوة العامة

إن السيد يدعو الجميع بدون استثناء . فعن طريق الوعظ والتعليم والحوار وطرق أخرى مختلفة يسمع الناس الدعوة ، لا بل إنه يدعوهم للتوبة . فإن

11- Inst. 3.22.2-6; Wendel 205-208

12- Inst. 3.22.7

الدعوة مقدمة للجميع حتى للذين هم رائحة موت لموت (٢ كو ٢ : ١٦) [١٣] . ولكن هذه الدعوة تظل بالنسبة لعدد كبير بدون نتيجة . والمسيح نفسه يقول « لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون » (مز ٢٢ : ١٤) . وإن الرفض الذى تقابله كلمة الوعظ راجع إلى طبيعة الإنسان وليس إلى الكلمة . لأن الإنسان ، حسب مفهوم كلفن ، فاسد فى طبيعته ، وضال ومبتعد عن الله فى كل تصرفاته تقريباً . له آذان ولكنه لا يسمع ، له عينان ولكنه لا يرى ، له قلب ولكنه متحجر وصخرى . فعندما تسقط عليه بذور الحياة لا تجد فيه حياة فتموت ويموت هو أيضاً معها . هذه هى حالة الإنسان كما يراها كلفن . ربما أن الدعوة العامة لا تأتى بالثمار المطلوبة ، فإنه يقترح ما يدعى بالدعوة الخاصة :

الدعوة الخاصة

إن الجميع زاغوا وفسدوا ، وأعلن الجميع جهاراً أنهم بمعرفته لا يسروا . إن الرسالة وصلت إلى عدد كبير ولكن بدون جدوى . وهنا يستعمل الرب ـــ حسب مفهوم كلفن ـــ الطريقة الخاصة أو الدعوة الخاصة ؛ فانه يدعو الذين سبق فاختارهم . ويرجع كلفن إلى عدة فصول كتابية لكى يؤيد تعاليمه هذه . « .... الذين هم مدعوون حسب قصده . لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ... والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم أيضاً والذين دعاهم فهؤلاء بزرهم أيضاً ... (رو ٨ : ٢٨ ـــ ٣٩ ، ٩ : ١١ ، خر ٣٣ : ١٢ ، ١٧ ، مز ١ : ٦ ، إر ١ : ٥ ، مت ٧ : ٢٣ ، أف ١ : ٥ ، ١١ ، رو ٨ : ٢٨ ـــ ٣٩ ، ٩ ـــ ١١) .

ويسمى كلفن هذه الدعوة الخاصة بالدعوة الفعالة . وهى دعوة فعالة فعلاً ، لأنها مصحوبة بعمل الروح القدس . ولقد سبق وأشرنا إلى مفهوم كلفن فيما يخص الطبيعة البشرية وفسادها ، ثم إلى عجز الإنسان الكلى تقريباً ، فى عدم مقدرته على معرفة الله . ولهذا السبب فإن الله يرسل روحه القدوس لكى يعمل فى قلوب الذين سبق وعينهم للحياة الأبدية . وبدون عمل

13- Inst. 3.24.8

روح الله لا يمكن للإنسان ــ بأى حال من الأحوال ــ أن يقبل الدعوة العامة والموجهة للجميع . ولكن بما أن الله قد سبق ــ فى قصده الازلى وحسب مسرته ــ فعين البعض للحياة الأبدية ، فإنه يعمل فيهم وينير أذهانهم ويفتح قلوبهم وعيونهم لكى يروا بنوره نوراً . وبدون إرشاد وقيادة روح الرب ، لا يمكن لأى انسان الوصول إلى الحقيقة أو قبول الرب يسوع كمخلص . إن إنجاز عملية الاختيار يتم بعمل الروح القدس ، وإن الروح القدس لا يعمل إلا فى الذين سبق الله وعينهم فى قصده السابق (أف ١ : ٤ ــ ١٤ ، يو ١ : ١٢ ، تث ١١ : ٢٦ ، لو ١٢ : ٣٢ ، ١ كو ١ : ٢١ ، يو ٦ : ٤٤ ، ٤٦ ، ١٧ : ٦) .

وفى شرحه لفكرة الدعوة الفعالة (١٤) يبين كلفن أن فاعلية هذه الدعوة كامن فى حقيقة أن الروح القدس ، الله نفسه ، هو الذى يعمل فى القلوب لكى يغيرها من قلوب حجرية إلى قلوب لحمية (حز ١١ : ١٩ ، ٣٦ : ٢٦) . إنه هو الذى يعدهم لكى يكونوا آنية رحمة ومجد (رو ٩ : ٢٣) . فإن الروح القدس نفسه يصطحب العظة الموعوظة ، لكى يعمل عن طريقها فى قيادة المختار لقبول الرسالة (يشو ٢٤ : ٢ ــ ٣ ، إش ٦٥ : ١) « ... وآمن جميع الذين كانوا معينين للحيوة الأبدية (أع ٣ : ٤٨ ، ٢ : ٤٧ ، مت ٢٢ : ١ ــ ١٤) . ويقول كلفن ما ملخصه : إن الإيمان بيسوع المسيح ليس هو ثمرة تفكيرنا الناضج ، لأننا نتمتع بذكاء خارق للطبيعة ، ولا هو عملنا الشخصى ، بل هو ثمرة عمل نعمة الله فينا (١٥) . وهنا يتعرض كلفن لمعالجة مشكلة أخرى ، وهى موضوع الإيمان والدور الذى يقوم به فى خلاص المختار . يعلّم كلفن بأن إختيار الله الأزلى للإنسان لا يتوقف على إرادته ولا على إيمانه ، بل على قصد الله الأزلى ، على حكمه الذى أصدره منذ الأزل . وبناء على ذلك فإن الإيمان الذى هو عطية الله يمنح للمختاز لأنه مختار . ويعتبر كلفن أنه من الخطأ التعليم بأن الاختيار هو نتيجة قبول الإنسان لرسالة الإنجيل فى قلبه . إن الإنجيل يمنح المختار التأكد

14- Inst. 3.24. 1-3; Choisy 132-140

15- Jean Calvin Homme d'Eglise oeuvres choisies du réformateur et documents sur les églises réformees du 16 siecle p.89.

بأنه مختار ، وبناء على ذلك فقد منحه الله الإيمان [١٦] .

ومع أن كلفن يتفق تماماً مع لوثر وبقية المصلحين فى موضوع الإيمان والنعمة ، وأن الخلاص يتم عن طريق النعمة المجانية التى يمنحها الله للإنسان بالإيمان ... « لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم .. » ، إلا أنه يعتقد بأن خلاصنا لم يتم عن طريق أى نعمة كانت ، بل عن طريق نعمة النعم وهو الرب يسوع المسيح ، الذى منحه الله الآب للبشرية كأسمى وأنبل نعمة من كل النعم . فإذا حصلنا على يسوع ، حصلناعلى كل النعم وأفضلها وأسماها [١٧] . فعن طريق الإيمان يصبح المسيح داخلنا وفينا ونحن فيه . ولكن دخول المسيح فى حياتنا متوقف على عمل الروح القدس الذى يمنح هو نفسه الإيمان . وينبر كلفن على فكرة أن الإيمان عبارة عن قناة عن طريقها يمر المسيح ، أو عن طريقها يدخل المسيح إلى قلوبنا .. فإن الإيمان عبارة عن آنية . وإذا كانت هذه الآنية لا تحتوى بداخلها على المسيح تصبح آنية فارغة لا قيمة لها . فإن الذى يعطى لهذه الآنية قيمتها هو الموجود بداخلها : شخص الرب يسوع المسيح . فإننا خلصنا إذاً ليس بالإيمان ، بل بالمسيح يسوع . فإن علّمنا بأننا حصلنا على الخلاص عن طريق الإيمان وبالإيمان ، فهذا يعنى أننا خلصنا بأعمالنا . لأن الإيمان هو إيماننا ، وبناء على ذلك فهو نوع من العمل . أما الذى خلصنا فهو ما بداخل الآنية ، ما بداخل الإيمان : أى الرب يسوع المسيح * وهو أيضاً الذى يعطى المختار التأكد الكامل بأن اختباره أكيد وثابت . لأن اختبار الله للمؤمن تمَّ فى شخص الرب يسوع ولأجله ، وهو أيضاً المرآة الصافية التى تستطيع ان نرى فيها اخبارنا ونتأكد من ثباته إلى الأبد . لأن عملية الاختيار تمت خارج أعمال الإنسان وتصرفاته واستحقاقاته إنه : « اختارنا فيه (فى المسيح) قبل تأسيس العالم ، وقبل أن يفعل

16- Inst. 3.24.3.

17- Inst. 3:11.1-23; Wiesel. 120-139; Jean Rilliet. 100-110

١٧ ــ أنظر فيما يخص موضوع النعمة كتابه الثالث الفصل الحادى عشره (دستور الديانة المسيحية) .

* يعوزنا الوقت لو عرضنا كل أفكار كلفن فى هذا الموضوع . ومن يريد التوسع فيه فليرجع إلى كتابه دستور الديانة المسيحية ، الفصل الحادى عشر الجزء الثالث .

الانسان خيراً أو شراً . وبناء على ذلك فإن المختار فى مفهوم كلفن لا يمكن بأى حال من الأحوال هلاكه (يو ٦ : ٣٧ — ٤٠ ، ١٠ : ٢٨ ، فى ١ : ٦) . ومع ذلك — فإن كلفن يحذر المؤمن بشدة من أن هذا التأكيد فى موضوع الخلاص لا يعنى ترك الحبل على الغارب . فإن المختار لا يسمح لنفسه بأى نوع من التهاون . وإن المثابرة والجهاد وحمل الصليب ، إنما هى علامات تدل على الإختيار [١٨] . فإن الدعوة الفعالة تظهر فى ثبات المؤمن فى دعوته والسلوك بموجبها . ويعتقد كلفن بأن المؤمن الذى تأكد عن طريق شهادة الروح القدس من اختياره لا يسمح لنفسه أن يحيا إلا كما يريده الروح الساكن فيه أن يحيا . فهو يقول ما ملخصه « إذا ادعى أحدهم أنه من المختارين ، وأنه متأكد من خلاصه مهما عمل (وتصرف) وأطلق العنان لنفسه ، فإنه لا يوجد دليل أوضح من ذلك على أن هذا الإنسان غير مختار . لأن الذين اختارهم الله يحفظهم ويحكمهم بروحه [١٩] .

المرفوضون :

من هو المرفوض ولماذا رفض ؟

لقد رأينا فى الصفحات السابقة موقف كلفن من المختارين ، وهو نفس الموقف الذى إتخذه أيضاً بالنسبة للمرفوضين . فهو يقول فى تحديد القضاء السابق بالنسبة للمختارين والمرفوضين : « ونحن نقول ، كما يعلن ذلك الكتاب المقدس بوضوح بأن الله فى قصده الأزلى وغير المتغير ، قد سبق وعين الذين أراد أن يعينهم للخلاص والذين أراد أن يعينهم للهلاك . وأما فيما يخص المختارين ، فنقول بأن هذا القرار نابع من رحمته وبدون اعتبار لأى استحقاق بشرى . وعلى العكس فإن باب الدخول للحياة الأبدية مغلق أمام الذين أراد أن يسلمهم للقضاء (للهلاك) . ولقد أخذ هذا القرار حسب قصده المخفى وغير المدرك . ومع كل هذا فهو عادل وصالح » [٢٠] .

18- Inst. 3.24.6
19- J. Calvin Homme déglise pp. 83-85
20- Inst. 3.21.7

فمن هذه السطور، ومن كتاباته الأخرى فيما يخص موضوع المرفوضين، نرى بأن كلفن يعلّم بطريقة واضحة وصريحة بأن الله الذى يمسك بين يديه بالسلطان المطلق، قد سبق وقضى بالحكم على هلاك الذين أرادوا هلاكهم. وهو لا يتفق فى هذه النقطة مع القديس أغسطينوس الذى علّم بأن الله قد سبق وعيّن المختارين للحياة الأبدية؛ فبحسب قصده الأزلى وتعيينه السابق، انتشل الله المختارين من وسط الجمهور الهالك (Massa Perditionis)، وأما الآخرون فقد تركهم فى فسادهم وخطاياهم [٢١]. فإن القديس أغسطينوس يعتقد بأن الله قد إختار البعض للحياة الأبدية، على أنه ترك البعض الآخر دون اختيار. أما كلفن الذى تمسك بالسلطان المطلق لله لا يقبل هذا الحل، بل انه علّم للأسف الشديد بأن الله نفسه هو الذى سبق فقضى بهلاك المرفوضين.

على أنه يقول أيضاً بأن هؤلاء المرفوضين لم ينالوا الا ما يستحقونه. ومع ذلك فهو — أيضاً — يقرر بأن الحكم الذى صدر ضدهم لم يكن مبنياً على علمه السابق. فإن الله لم يحكم عليهم بالرفض والهلاك لأنه سبق وعلم بأنهم يرفضون الدعوة أو لأنهم سوف يسلكون، بحسب شهواتهم وميولهم، بل حكم عليهم بالهلاك حسب قضائه السابق. وهذا الحكم عادل وصالح لأنهم يستحقون هذا العقاب.

ويرجع كلفن كعادته إلى عدة فصول كتابية فسر بعضها بطريقة حرفية لكى يؤيد نظريته: أحببت يعقوب وأبغضت عيسو. (رو ٩ : ١٣)، ثم قول الرب لموسى مشيراً إلى فرعون بأنه « شدّد قلبه حتى لا يطلق الشعب (خر ٢ : ٣، ١٢ : ٢، إر ١ : ١٠ وإش ٦ : ٩ — ١٠، يو ١٢ : ٣٩، متى ١٣ : ١١، روميه ٩ : ١٧، ١ صم ٢ : ٢٥). من هذه الفصول ومن فصول كثيرة أخرى، يستنتج كلفن أن الله هو الذى قسّى قلب فرعون، وهو أيضاً الذى دفع بأولاد عالى إلى هلاكهم، كما أنه هو أيضاً الذى يقول للنبى « اذهب وقل لهذا الشعب اسمعوا سمعاً ولا تفهموا وأبصروا إبصاراً

21- Augustin De Correptione et Gratia 12, M.L. 44, 923

ولا تعرفوا ، غلّظ قلب هذا الشعب وثقّل أذنيه واطمس عينيه لئلا يبصر ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيشفى » (إش ٦ : ٩ — ١٠) ويقول كلفن إنه يرسل إليهم النور لكي يبهر عيونهم فيصبحوا أكثر عماء . يعطى دواء ولكن ليس لشفائهم [٢٢] . ولأجل هذا ، فإن كلفن يعتقد بأن المسيح كان يفسر أمثاله للتلاميذ على انفراد ، لأنه للمختارين وحدهم قد أعطى أن يفهموا أسرار ملكوت السماوات . وهنا يقتبس قول الرسول بولس : « أم ليس للخزاف سلطان على الطين إن يصنع من كتلة واحدة إناءً للكرامة وآخر للهوان . فماذا إن كان الله وهو يريد أن يظهر غضبه ويبين قوته احتمل بأناة كثيرة آنية غضب مهيأة للهلاك ... (رو ٩ : ١ — ٣٢) . فهو يعتقد بأن الله هو السيد المتصرف والمتسلط على الخليقة كلها ، وفى سلطانه أن يفعل بها ما شاء ، لأنه يتراءف على من يتراءف ويحكم بالهلاك على من يحكم . ثم يقول بأنه يتفق مع القديس اغسطينوس الذى يقول : « بما أن الله كلى القدرة ، ففى استطاعته إذاً أن يغير إرادة الأشرار إلى إرادة صالحة . هذا لا شك فيه ، فلماذا لا يريد ذلك ؟ هذا أمر مخفى عنا [٢٣] . إن كلفن يشدد كثيراً فى كل كتاباته على فكرة أن الله هو السيد ، وأن الإنسان ليس له ان يسأل الله عما يعمله ، لأن الله غير مسئول عما يعمله لكى يقدم حساباً للإنسان ؛ وعلى هذا الأخير أن يطيع الله ويعبده وليس له أن يستجوب الله ، لأنه يعرف ما يعمله ، وإن كل ما يعمله حسن وصالح ، حتى وإن كان يبدو غير ذلك فى عين الإنسان . يعترف كلفن بأن التعليم الخاص بالمرفوضين يبدو مخيفاً ومزعجاً للبعض ، ولكنه يعتقد بأنه قضاء عادل وصالح ، وأن الذين قضى عليهم بهذا القضاء يعترفون بذلك لانهم يعرفون آثامهم وخطاياهم . ولقد قال ما معناه : فمع أن الله قد سبق وقرر كل شيء فى قصده الأزلى ، إلا أن الإنسان يسقط فى الخطية بمحض ارادته وبسبب رذيلته . وبناء على ذلك فإنه مسئول عن كل عمل يقوم به . ويحاول كلفن أن يضع المسئولية كاملة على الإنسان ، بالرغم من أن الله قد سبق وقضى بكل شيء . فهو يعتقد بأن

22- Inst. 3.24; 13-14

23- Inst. 3.24. 13

الإنسان مسئول عن كل تصرفاته لأنه لا يعرف شيئاً عما قضى به الله . كما إننا لا نعلم من هو المرفوض ومن هو المختار . وبناء على ذلك فمن واجب كل انسان أن يعتبر نفسه مختاراً وأن يسعى وأن يعمل كما لو كان مختاراً . وعلى الكنيسة أيضاً أن تعلن إنجيل الخلاص لكل البشر كما لو كان الله قد اختار الجميع . فعلى الكنيسة أن تعظ وأن تقدم المسيح كالمخلص لكل الناس ، كما لو كانوا جميعاً مختارين .

الاختيار السابق فى مفهوم كارل بارت

كيف فهم وشرح كارل بارت مشكلة الاختيار ؟

من الصعب أن تُقدم هنا ــ بصورة شاملة ــ مفهوم هذا العالم السويسرى لمشكلة الاختيار ؛ وذلك يرجع إلى ضيق المجال . فلقد أفرد لهذه العقيدة مجلداً كاملاً يحتوى على ٥١٦ صفحة من الصفحات الكبيرة . وعلى من يريد التوسع فى دراسة هذا الموضوع أن يرجع إلى هذا العمل الضخم [٢٤] .

يطرح كارل بارت السؤال الآتى : من هو الله الذى يختار ؟ ويردف قائلاً : مما لا شك فيه أن الله الذى يختار ، ليس إلهاً باغياً جباراً ظالماً يفرض سلطته المطلقة ، ولكنه هو ذاك الذى يعلن نفسه عن طريق هذا الاختيار الذى تم [٢٥] . ولكى نفهم فكر بارت فيما يتعلق بالاختيار السابق يجب ان نتذكر أن الحديث عن الاختيار السابق لا يعنى التحدث عن أمور غامضة خفية ومجردة ، بعيدة عن الإله المعلن لنا . فإذا كنا نريد أن نعرف حقيقة الاختيار علينا أن نثبت أنظارنا على « اسم يسوع المسيح » ... علينا أن ننظر إلى وجود وتاريخ الشعب اليهودى ، وكيف أن هذا الشعب وتاريخه مرتبطان ارتباطاً قوياً وثيقاً باسمه (المسيح) . فهنا لا نحتاج بعد إلى مناقشة نظريات أو أشياء غير واقعية أو نتكلم عن إله مجرد ، بل نتحدث عن الله فى المسيح . وعندما

---

٢٤ ــ وُلد كارل بارت فى ١٠ مايو ١٨٨٦ ومات فى ١٠ ديسمبر ١٩٦٨ . وهو معلم للعقائد ، سويسرى . (انظر الدكتور حنا جرجس بتاريخ الفكر المسيحى المجلد الأول ص ١٧٥ ــ ١٨٠) تقتبس هنا الترجمة الفرنسية ، ولقد ترجم إلى الانجليزية أيضاً .

25- Karl Barth Dogmatique Deuxieme Volume La Doctrine de Diue T.2.
26- Karl Barth. Vol. 2, T.2. PP.46-63

نتحدث عن المسيح لا نتكلم — أيضاً — عن مجرد إنسان ما ، غير معروف ولكننا نتحدث بالتحديد عن الإنسان يسوع المسيح . ففى اسم يسوع المسيح نجد الله الذى يختار الإنسان المختار * (ص ٦٣ ، ١١١ — ١٢٤) . ويرجع بارت إلى قول الرسول بولس — لكى يؤيد نظريته فى هذه الآية : « كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه فى المحبة ...» (أف ١ : ٤) إن العالم السويسرى يرى فى هذه الآية مفتاحاً هاماً جداً للمشكلة الكرستولوجية الخاصة بالاختيار . « ففيه اختارنا » أى أن عملية الاختيار تمت فى شخص الرب يسوع المسيح . ولكن كيف تمت عملية الاختيار ؟ سبق أن رأينا نظرية كلفن فيما يختص بالمختارين والمرفوضين ، وكيف يرى الله الذى يختار المختار والمرفوض . فيقدم لنا كلفن الله العظيم الذى يملك كل سلطان ، فيختار حسب مسرته وقصده الأزلى من يختار للحياة الأبدية ، ثم يعين للهلاك من يحسن فى عينيه وحسب مسرته . وهذه العملية تمت فى قصده الأزلى قبل تأسيس العالم ، وقبل أن يفعل المختارون خيراً أو المرفوضون شراً . أما بارت « فيرى أن عملية الاختيار قد تمت فيه » واختارنا فيه منذ البداية . فالاختيار تم إذاً قبل تأسيس العالم وفى المسيح . وهنا يرجع «بارت» إلى قول الرسول يوحنا « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . هذا كان فى البدء عند الله » (يو ١ : ١ — ٢) . وينبر بشدة على حقيقة فى غاية الأهمية ، وهى أنه فى البداية — لا بل قبل كل بداية — الابن موجود مع الاب ، وفى الابن وبالابن أنجز الآب مع الروح القدس كل ما يريد أن يعمله . فإن كان الله قد خلق العالم بالكلمة فإن عملية الاختيار تمت هى أيضاً بالكلمة . وهذا الكلمة الذى كان عند الله هو نفسه الله . فمن بداية الطريق وقبل الخليقة نرى الكلمة وفى الكلمة يختارنا الله : « الذى اختارنا فيه قبل تأسيس العالم » ولكن هذا الكلمة لم يظل كلمة بعيداً عنا ولا يعرف شيئا عن ظروفنا ، بل إن هذا الكلمة صار جسداً وحل بيننا .. (يو ١ : ١٤) هذا يعنى أن الله العظيم صار إنساناً مثلنا .

* نكتفى هنا بالاشارة إلى ذكر الصفحات من نفس المجلد الذى سبق أن أشرنا إليه باللغة الفرنسية . ولقد تُرجمت أيضاً أعمال بارت إلى الإنجليزية .

وهنا يدعونا « بارت » إلى النظر لعملية الاختيار بطريقة ملموسة محسوسة ، وليس بطريقة مجردة . فعندما نتحدث عن الإنسان المختار والإنسان المرفوض إنما نتحدث عادة بطريقة مجردة وغير ملموسة أو معروفة . فهو يعتقد أن عملية الاختيار والرفض هى عملية حقيقية واقعية حدثت فعلاً وتمت فعلاً فى سر الله قبل تأسيس العالم . ولكن كيف تمت ؟ من هو الله الذى يختار ومن هو المختار ومن هو المرفوض ؟ ويرجع « بارت » إلى هذه الآية المركزية والهامة : « اختارنا فيه قبل تأسيس العالم ... » . من هو الذى اختار ؟ الله الكلمة ، الذى كان عند الله ، اختار . ولكن اختار من ؟ اختارنا .. أى اختار الإنسان . والكلمة صار جسداً : إن الكلمة الذى صار جسداً ، أو بالمعنى الأصح المسيح هو الله الكلمة ، وفى الوقت نفسه هو يسوع الناصرى بمعنى هو الله الإنسان . فهو الله الكلمة الذى كان يعمل مع الآب خالقاً وعاملاً قبل تأسيس العالم ، وهو أيضاً الذى صار إنساناً . وبما أن الله الكلمة كان قبل تأسيس العالم مع الله الآب ، وكان يعمل معه خالقاً ، فهو أيضاً الله الكلمة الذى يعمل معه أيضاً فى عملية الاختيار . وإن هذه العملية تمت فيه ، و لم تتم خارجاً عنه :« اختارنا فيه » . فمن إذاً هو الشخص الذى يختار ؟ إن الذى اختار قبل تأسيس العالم هو الله ، أو الله الكلمة . ولكن من هو الشخص المختار ؟ « نحن » « اختازنا » ومن نحن ؟ يعتقد بارت بأن «نحن» لا تشير إلى أشخاص مجردين أو غير معروفين بل إلى شخص معين من هو إذاً هذا الشخص المعين الذى سبق أن اختاره الله ؟ من هو إذاً هذا الشخص الملموس المحسوس المعين الذى عينه الله ؟ فإذا كنا نريد شخصاً ملموساً محسوساً ، وليس شخصاً مجرداً وعاماً أو خيالياً أو وهمياً ، لا نجد إلا يسوع الناصرى ، الذى كان فى ذهن الآب قبل تأسيس العالم . وهنا يأتى بارت إلى هذه النتيجة التى حاول شرحها فى كل المجلد (٥١٦ صفحة) ، وهى أن يسوع المسيح ، هو الله الذى يختار والإنسان المختار . فإن الشيء الفريد الوحيد الذى وجد فى يسوع المسيح هو أن كان واحداً . استطاع أن يوحد الله الذى يختار والإنسان الذى اختاره ، أى وحدة الله والإنسان . إن هذا المختار هو الذى يصلى قائلاً « ... لأنك احببتنى قبل تأسيس العالم (يو ١٧ : ٢٤) . وهو أيضاً الذى يقول عنه الصوت الذى جاء من السحابة : «هذا هو ابنى الحبيب له اسمعوا» ،

وهو أيضاً نفس الشخص الذى تألم وسخر منه الشعب قائلاً «...خلص آخرين فليخلص نفسه إن كان هو المسيح مختار الله » (لو ٢٣ : ٣٥) كان المسيح ابن الله الكلمة المختار ، ولكنه كان فى الوقت نفسه الإنسان الذى أخذ مكان الإنسان الخاطىء ؛ الإنسان الذى يسر به الله والإنسان الذى حمل خطية الإنسان الخاطىء فأصبح هو فى عينى الله الآب الشخص المحكوم عليه بالموت والرفض ، « لأنه جعل الذى لم يعرف خطية ، خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه (٢ كو ٥ : ٢١)» . ففيه (فى المسيح) تمّ كل شىء . فعندما صار إنساناً أخذ على عاتقه خطية الإنسان التى قادته إلى الموت موت الصليب والعار ، وفيه أيضاً مات الإنسان الخاطىء والمحكوم عليه بالموت . ولكن الله لم يتركه للموت والهلاك والفناء فأقامه من الموت . وهذه القيامة تعتبر اختبار هذا الانسان الذى كان ميتا فعاش (ص ١٢٢ — ١٣٦) .

ويواصل بارت شرحه لمشكلة المرفوض والمختار ؛ فهو يعتقد أن الله قد اختار يسوع المسيح ، وفى اختياره له أصبح هذا الإنسان يسوع المرفوض المختار فى نفس الوقت : المرفوض لأنه أخذ مكان الإنسان الخاطى ، فقد قاسى العقاب الذى كان على الإنسان أن يتحمله كخاطىء ومرفوض من الله ومسكوب عليه غضبه . فالمسيح أخذ إذاً مكان هذا الإنسان المرفوض ، فأصبح مرفوضاً . فعن طريق عملية التبادل هذه أتاح لكل إنسان ان يأخذ مكانه (مكان المسيح) ، أى بأن يكون باراً . وبناء على ذلك فإن كل إنسان يوجد فيه يصبح مختاراً لأنه فيه اختارنا . فعملية الاختيار والرفض تمت فعلاً قبل تأسيس العالم ؛ إذ أن الله فى علمه وقضائه السابقين عيَّن هذا الإنسان يسوع « محتقر ومخذول من الناس رجل اوجاع ... مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا ... (إش ٥٣ : ١ — ١٢ ، ٤٢ : ١ — ٤) ومن هذا يتضح لنا بأن عملية الاختيار قد تمت ، وقد تمت فعلا فيه قبل تأسيس العالم . فإن المسيح هو الإنسان المختار والإنسان المرفوض فى نفس الوقت . واحتمل فعلاً عقاب الرفض فى الصليب فأصبح ذلك الذى لم يعرف خطية صار خطية ، والذى كان معادلاً لله أصبح انساناً . لأنه أُختبر منذ الأبد لهذا القصد . وبهذا الاختيار الذى تم فى المسيح قبل تأسيس العالم يستطيع كل

إنسان أن يصير مختاراً ومقبولاً فى ملكوت السماوات ، اذا قبل يسوع المسيح كالمخلص (الفادى الذى أخذ مكانه كمرفوض من الله) (١٣٦ — ١٨٢) . ويخرج بارت بهذه النتيجة بأن الإيمان فى الاختيار هو رفض الرفض . إن المستحيل أصبح ممكناً ، وإن المسيح قد هزم الشيطان وقواته وحرر الإنسان (ص ١٣٦ — ١٨٥) .

فإن عملية الاختيار التى تمت قبل تأسيس العالم تمت فى المسيح وفى المسيح وحده . وفيه وحده أيضاً نستطيع ان نكون مختارين إذا قبلناه أو مرفوضين اذا رفضناه . فان الله لم يختر قبل تأسيس العالم بعضاً من الناس للحياة الأبدية والبعض الآخر للهلاك . بل إنه اختار فعلاً قبل تأسيس العالم الكلمة الذى تجسد فى الإنسان يسوع الفادى الذى يمثل الله الذى يختار ، والإنسان المختار أو المرفوض . فكل من وجد فيه الحياة وجد وصار مختاراً ، وكل من يرفضه بإرادته صار مرفوضاً .

وفى شرحه لهذه المشكلة يقدم العالم السويسرى تفسيراً مسهباً وعقيدياً لروميه ٩ — ١١ . ويعوزنا الوقت لو حاولنا أن نعرض حتى ولو لأفكاره الرئيسية فقط ، ولذلك نفضل أن نمر مروراً سريعاً جداً على الناحية التفسيرية*.

يقدم بارت فى تفسيره لهذه الأصحاحات فى جزء من هذا المجلد ، مكرراً فى كثير من الأحيان — مفهومه لعملية الاختيار . إن عملية الاختيار تمَّت فى المسيح . والمسيح هو الله الذى يختار والإنسان المختار فى نفس الوقت . وعندما تعرض لتفسير هذه الأصحاحات الثلاثة من رومية (٩ — ١١) حاول أن يطبق نفس النظرية بشيء قليل من الإختلاف .

إن عملية الاختيار تمت منذ الأزل فى شخص المسيح المزدوج الله الإنسان . الله الكلمة الذى يختار والإنسان يسوع المسيح المختار . ويواصل بارت شرحه لهذه الإزدواجية مقدماً لنا إسماعيل الذى يمثل الإنسان المرفوض ، واسحق الذى

* ان هذا التفسير موجود فى نفس المجلد الذى نتابع تحليله الآن ، وهو موجود فى اللغة الألمانية والفرنسية والإنجليزية أيضاً .

يمثل الإنسان المقبول (تك ١٦ : ١ ــ ١٦ ، ١٨ : ١٠ ــ ١٤) . وكذلك عيسو ويعقوب (تك ٢٥ : ٢٤ ــ ٢٦) ، وكذلك أيضاً فرعون المعاند وموسى النبى (خر ٧ ــ ١٥) . ويقدم لنا بارت نوعاً آخر من الإزدواجية : اسرائيل والكنيسة . وهنا يسأل من هى الكنيسة ؟ الكنيسة هى الجماعة التى تقدم شهادة للعالم الذى تعيش فيه . وتعتبر جماعة إسرائيل فى العهد القديم كنيسة : فهى أيضاً الكنيسة التى كانت فى البرية . إن الله اختار هذه الجماعة لكى تقدم شهادة للأمم الذين يحيطون بها . ولكن إسرائيل لم تثبت فى الدعوة وفشلت فى مهمتها . وهنا يظهر الله قصده فى إختياره الأزلى للكنيسة . وهنا تظهر من جديد الإزدواجية ، ولكنها إزدواجية مكملة . فمع أن الكنيسة خرجت من هذا الشعب ومن حضنه ، ومع أن هذا الشعب يعتبر هو الأساس لأن منه المسيح حسب الجسد ، إلا أن هذا الشعب لا يستطيع أن يجد شخصيته الحقيقية واختياره الازلى الا إذا أصبح جزءاً من الكنيسة وليس أصلاً ؛ أو بالمعنى الأصح لا يمكن لهذا الشعب أن يصبح عضواً حقيقياً فى ملكوت الله إلا اذا اعترف بسيادة المسيا الذى صلبه . فإن هذا المسيا الذى صلبه هو نفسه الله الذى اختار هذا الشعب واختار الكنيسة أيضاً . ومن هنا نرى فى الكنيسة ليس فقط اليهود بل الأمم أيضاً الذين اختارهم الله فى المسيح يسوع منذ الأزل . فعندما ننظر إلى المجتمع نرى فيه الإنسان العتيق المائت الذى يرفض اختياره مناضلاً ضد محبة الله ورحمته وطول أناته ، ومن ناحية أخرى نرى الكنيسة التى استلمتها يد الله المحب ، فتصنع منها إنساناً قادراً بنعمته على إعلان رحمة الله ومحبته . نرى الانسان الرافض لمحبة الله واختياره برفضه للمسيح فيصير مرفوضاً ، والإنسان الذى يقبل محبة الله المقدمة له فى يسوع ، فيصير مختاراً فيه : « اختارنا فيه » .

ففى المسيح نستطيع أن نرى ونفهم الاختيار بطريقة واضحة ، ففيه نرى اسحق ابن الموعد وإسماعيل ابن الجارية ، يعقوب البكر وعيسو غير المرغوب فيه ، موسى النبى المحرر لشعب الله وفرعون القاسى المضطهد لشعب الله . نراهم جميعاً يمثلون دور الشعب المرفوض والمختار ، أمام هذه الكلمات الخطيرة « لأنه وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيراً أو شراً لكى يثبت قصد الله

حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذى يدعو .. إنى أرحم من أرحم وأتراءف على من أتراءف ... (رو ٩ : ١٠ — ٢٩) . فإن الاختيار الذى تم فى قصد الله الأبدى ، لم يتم بأى حال من الأحوال بناء على خير أو شر فعله الإنسان . والسؤال الذى يطرح نفسه هو الآتى : على أى اساس إذاً يرحم الله البعض ويرفض البعض الآخر ؟ لماذا يحكم على البعض بالهلاك وعلى البعض الآخر بالحياة الأبدية ؟ لقد سبق القول بأن الله لم يعين إلا شخصاً واحداً للموت ، وقد عينه منذ الأزل فى قصده الأبدى ، وهو ابنه الحبيب . لأنه هكذا احب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحيوة الأبدية (يو ٣ : ١٦) . فإن الله الكلمة الذى كان عند الله الآب منذ الأبد ، اختار مع الله الآب والروح القدس بأن يكون الممثل الشرعى للجنس البشرى العاصى المتمرد . ولذلك فإن الكلمة صار انساناً وأصبح القدوس البار الذى لم يعرف خطية خطية ، وتحمل المسئولية كاملة وحمل صليبه ، وفيه صار حمل الله حاملاً خطية البشرية . فصار هو فى مكان إسماعيل وعيسو وفرعون ، حمل تمردهم وعصيانهم وجرمهم ، أو صار ما كانوا يمثلونه ، أى صار بدل البشرية كلها . فالمسيح هو إذاً الله الذى اختار والإنسان المختار . وفى هذا الإله الإنسان تم الاختيار الأبدى وفتحت الأبواب السماوية على مصراعيها لكل من يؤمن به ووُجد فيه ، لأنه مكتوب : « كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين ... » .

تعليقنا على موضوع الاختيار السابق

إن عدداً لا بأس به ، وخاصة من المحافظين جداً ، رأى فى تعاليم كلفن أرثوذكسية ومحافظة على الحق الكتابى لا غش فيها . على أن البعض الآخر إنتقده إنتقاداً لاذعاً مريراً ، وخاصة جماعة المتحررين . كان مصلح جنيف رجلاً كتابياً ، وكان يرجع إلى المكتوب فى كل تفاسيره وآرائه . ولقد حاول فى حياته اليومية أن يعطى للكتاب المقدس المكانة اللائقة به كالدستور الوحيد للأعمال والإيمان . ومن هنا تأتى قوة الرجل ، ومن هنا أيضاً بدأت مشاكله مع بعض قادة الكنيسة وقادة المدينة . فإن تمسكه بالكتاب المقدس دفعه فى بعض الأحيان إلى قبول بعض الفصول بطريقة حرفية . كما أنه استعمل الكتاب

المقدس ، وخاصة فى موضوع الاختيار ، لكى يعلن للكنيسة الكاثوليكية * أن سلطانها فى موضوع بيع الغفرانات ومنح الحلول المختلفة المتنوعة لا أساس له ، ولا نملك هذا الحق لأنه محفوظ لله وحده ، الذى سبق فى قصده السابق الأزلى ـــ وعين البعض للحياة الأبدية والبعض الآخر للهلاك الأبدى .

ولكن لم يكن هذا السبب هو الدافع الأول والأخير الذى دفع كلفن إلى المناداة بالاختيار المزدوج . إنه علّم به لأنه كان يؤمن به فعلاً إيماناً وطيداً ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك . كان كلفن من الأشخاص الأتقياء المتمسكين بالكتاب المقدس وتعاليمه ، وكان على استعداد أن يموت ضحية للكتاب المقدس ، وللرسالة التى من أجلها أختير لكى يكون خادماً . وكما أنه كان يرى فى الكتاب الدستور العظيم الذى يعلن لنا الحياة الأبدية بعمل الروح القدس ، رأى فى الله العظمة والقدرة والسمو .. الله الذى له السلطان المطلق على الخليقة كلها . كان كلفن يرى كل هذه الأوصاف فى الله . وبناء على ذلك فقد رأى فى الكتاب المقدس الوحى وفى الله الخالق العظيم والسامى والسيد المتسلط . فهو الذى فى عدله غير المدرك اختار البعض للحياة الأبدية والبعض الآخر للهلاك الأبدى .

وهنا لا نتفق مع هذا الرجل العملاق العظيم لأنه فسر بعض النصوص الكتابية بطريقة حرفية فى مشكلة الاختيار . فإننا نؤمن إيماناً ثابتاً بأن الله قد سبق فعلا واختار ، ولكن كما يقول « بارت » (مع أننا نختلف أيضاً مع بارت فى بعض النقاط القليلة) اختارنا فيه : فإن الاختيار تم فى يسوع المسيح ، وبهذا الاختيار ترك لنا الباب مفتوحاً ، ترك الإنسان حراً ولكنه ترك له المسئولية . إن قلب الله المحب مفتوح وذراعيه ممدودتان للترحيب بنا . إن الله قد وضع أمام الإنسان الحياة والموت : فإذا اختار الحياة حصل بنعمته عليها . وإذا اختار الموت هلك فيه برغبته وقراره الشخصى . إن الرب لا يسر قط بموت الشرير :

---

* كانت الكنيسة الكاثوليكية فى ذلك الوقت تختلف تماما عن الكنيسة الكاثوليكية اليوم . فإننا نشكر الله على كنيسة اليوم ، وعلى تقدمها العظيم فى الناحية الكتابية والتفسيرية .

« هل مسرة أسر بموت الشرير يقول السيد الرب ألا برجوعه عن طرقه فيحيا ... فارجعوا واحيوا ... » (حز ١٨ : ٢٣ ، ٣١ — ٣٢ ، تث ٢٤ : ١٦ ، ٢ أخ ٢٥ : ٤ وار ٣١ : ٢٩ — ٣٠ ، إش ٣ : ١٠ — ١١ ، رو ٢ : ٩) . ليس ذلك فحسب بل إن الله يريد خلاص جميع البشر . وهذا ما يقوله الرسول : « الذى يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون » (١ تيمو ٢ : ٤ ، يو ٣ : ١٦ ، تى ٢ : ١١ ، ١بط ٣ : ٩ يو ، ١٧ : ٣ ، ٢ تيمو ٢ : ٢٥ ، إش ٤٠ : ٣ ، مت ٣ : ٣ ولو ٣ : ٦) . « وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يقبل الجميع إلى التوبة » .

من كل هذه الشواهد وشواهد أخرى عديدة جداً ، يتضح لنا جلياً أن الله يريد خلاص الجميع . وهنا يأتى الاعتراض المعروف : فإذا كان الله يريد فعلا خلاص الجميع لماذا أعلن فى فصول أخرى وخاصة فى روميه ٩ — ١١ هذا الإختيار المزدوج ؛ ألم يقل صراحة أنه أحب يعقوب وأبغض عيسو ؟ ألم يقل أيضاً أن للخزاف سلطان على الطين أن يصنع منها إناء لكرامة وآخر للهوان ؟ ألم يتكلم عن موسى كمختار وعن فرعون كمرفوض ؟ إن هذه الفصول الثلاثة تحتاج وحدها إلى مجلد لشرحها ، ولا يمكن لنا هنا ان نقدم تفسيراً كاملاً فى هذه العجالة . ومع ذلك نريد أن نقف قليلاً عند هذه الأصحاحات لكى نوضح مفهومنا لمشكلة إختيار الله السابق . إن الذين يتمسكون بعقيدة الإختيار المزدوج اقتبسوا روميه ٩ — ١١ لأنهم إعتقدوا أن هذه الأصحاحات تتكلم عن هذه العقيدة . ومما لاشك فيه أن هذه الفصول (رومية ٩ — ١١) تتكلم عن الاختيار المزدوج ولكنها لا تتكلم البتة عن الأشخاص ولا عن مصيرهم الأبدى .

إن الهدف الذى يريد الرسول بولس الوصول اليه فى كتابته لهذه الفصول ، ليس هو أن يعرفنا بأن اسحق نال الحياة الابدية وأن إسماعيل ذهب إلى الجحيم ، وأن يعقوب خلُص وأن عيسو هلك ، وأن موسى فى أحضان الله الآب وأن فرعون فى أحضان الشيطان . إننا لا نجد فى هذه الفصول أية إشارة إلى الخلاص أو الهلاك الأبدى لهذه الشخصيات المذكورة ، لا بل ليس لنا أن نحكم فيما إذا كان إسماعيل وعيسو وفرعون ذهبوا إلى الجحيم أو حكم عليهم

بالهلاك . لم يكن هذا هدف الرسول بولس من كتابته لهذه الأصحاحات . فما هو هدفه إذاً ؟

إن المقصود هنا بهذه الأمثال هو إسرائيل كله وليس إسحق واسماعيل أو عيسو ويعقوب أو موسى وفرعون . إنه يتحدث عن هذا الشعب كأمة اختارها الله من وسط الشعوب . وهذا واضح من قول الرسول فى بداية الأصحاح عندما يعبر عن حزن قلبه بالنسبة لشعب اسرائيل (٩ : ١ — ٥) ، وكيف يود أن يكون هو نفسه محروماً بدلاً من الشعب كله ، ويكرر هذه الرغبة فى روميه (١٠ : ١ — ٣) . فمن الواضح إذاً أن الرسول — لا يشير لا من بعيد أو من قريب — إلى الخلاص الفردى : « إختيار أو رفض البعض من الحياة الأبدية » . فعلى ما يبدو ، كان ذهن الرسول خالياً تماماً من هذا الأمر . أليس هذا واضحاً فى قول الله عند كلامه عن عيسو ويعقوب «ومن أحشائك يفترق شعبان . شعب يقوى على شعب . وكبير يستعبد لصغير» (تك ٢٥ : ٢٣) . إن الله لايتكلم هنا عن هلاك أبدى أو عن حياة ابدية ، ولا عن خلاص فرد معين بطريقة فردية مثل اسحق ، وهلاك الآخر هلاكاً أبدياً مثل إسماعيل ، بل يتكلم عن مصير شعبين . ونجد نفس الأمر فى موضوع إسحق وإسماعيل ، وموسى وفرعون ، وفى نهاية المطاف بولس المسيحى المتجدد ثم المجمع اليهودى . والمهم جداً — والذى غاب عن بال الكثيرين هو وظيفة هؤلاء الأشخاص أو عمل أو فائدة الأوانى المستخدمة . فإن الرسول لم يذكر هؤلاء الأشخاص لكي يتكلم عن خلاصهم أو اختيارهم الشخصي للحياة الأبدية ، أو رفضه لهم ، بل أراد أن يوضح كيف أن الله بطريقة غريبة وعجيبة استطاع أن يحفظ شعبه الذى اختاره . وأن اختياره هذا لم يكن متعلقا علي خير قد عمله هذا الشعب ، بل عن طريق محبته العظيمة إختاره وقطع معه عهداً وسار معه فى الطريق . لقد أظهر له غنى رحمته وطول أناته . فعندما يقول الكتاب « ...أحببت يعقوب وأبغضت عيسو » لايتكلم عن أشخاص أو أفراد ، بل عن أمة وعن شعب انحدر منه هذان الشخصان . وحتى كلمة أحببت أو أبغضت ليست صحيحة فى الترجمة، بل فى ترجمات أخرى يقول فضلت يعقوب علي عيسو .

لقد رأى الكثيرون فى الأعداد (روميه ٩ : ١٤ ــ ١٦) حرية الله المطلقة وتحديد حرية الإنسان . لا بل رأى البعض الآخر أن الله يفرض سلطانه فرضاً على الإنسان . فهو الذى يرحم من يرحم ويتراءف على من يتراءف « فإذاً ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل لله الذى يرحم » . إن الرسول لا يريد ــ كما سبق القول ــ أن يشير بهذه الأعداد إلى حالة فردية : أو أن يتكلم عن خلاص فردى بل إنه يريد أن يشرح موقف شعب إسرائيل . ويعتقد كثير من المفسرين بأن الرسول يشير بهذه الآيات إلى حقبة فى تاريخ إسرائيل . فهى الفترة التى صعد فيها موسى إلى الجبل وطال غيابه وبدأ الشعب فى تذمره ضد هارون وإلهه ، فصنعوا عجلاً من الذهب . وعندما نزل موسى غضب غضباً عظيماً وحطم الصنم الذى صنعه هذا الشعب كإله له . فلو ترك الرب هذا الشعب لحريته ولاختياره ولما كان يسعى للحصول عليه ، لصار هذا الشعب نسياً منسياً . كان هذا الشعب يسعى وراء آلهة أخرى ، فقد كان يريد إلهاً من الذهب . لكن الله فى محبته تراءف عليه وأنقذه . إن ثورة الشعب الإسرائيلى وارتداده فى صنعه عجلا لعبادته بدل الله ، وأن رفض فرعون وقساوة قلبه ، كل هذا لا يزحزح قصد الله فى اختياره السابق لهذا الشعب وقيادته والعناية به ، حتى يخرج منه شعباً له ، بالرغم من قوة فرعون وسلطانه ، وبالرغم من تمرد الشعب نفسه . فمن الواضح إذاً أن بولس لا يتكلم عن مصير موسى وفرعون الأبدى ، بل عن شعبين وأمتين ، وكيف أن الله إختار شعب إسرائيل وحفظه لكى يكون شاهداً كأمة ، بين الأمم الأخرى . من هذا العرض السريع نستنتج أن الرسول يريد إذاً أن يذكّر الأمة المتمردة العاصية باختيارها العظيم العجيب الذى تم فى شخص المسيح المسيا الذى رفضوه فى الماضى فى أنبيائه ورسله ، ومازالوا يرفضونه حتى فى أيام الرسول الذى يقدم إليهم هذه الرسالة باكياً متألماً وحزيناً ، لا بل متمنيا أن يكون هو نفسه محروماً من هذا الميراث العجيب لأجل إخوته وأنسبائه حسب الجسد . فإن الإختيار الذى يتكلم عنه الرسول فى هذه الأصحاحات رومية ٩ ــ ١١ لا يعنى الاختيار الفردى الشخصى الذى يمكن أن نطبقه الآن على البعض بطريقة فردية شخصية ، بل إن الله إختار أمة معينة وشعباً معيناً . ولكن هذا الشعب لم

يسمع لصوت الذى إختاره فتحول عنه . ومع أنه لم يتركه أو لم يجرده تماماً .

من إختياره لأن وعود الرب أمينة وبلا ندامة ، فقد فتح الباب على مصراعيه لكل الذين يقبلون اسم ذاك الذى قدم نفسه ذبيحة حية مقبولة لدى الآب . فإن الكلمة الذى كان مع الآب منذ الأزل ، منح لكل الذين قبلوه كرب وسيد ، السلطان أن يصيروا اولاداً لله باسمه وفيه .

الفصل السادس

الكنيسة

لقد سبق ورأينا مفهوم كلفن فى مشكلة معرفة الله ، وكيف تتم هذه المعرفة عن طريق الروح القدس الذى يستخدم الكتاب المقدس لكى ينير به أذهان المختارين الذين سبق وعينهم للحياة الابدية .

ولكى يأتى بهؤلاء الذين سبق واختارهم منذ الأزل ، فإن الرب استخدم وسائل كثيرة وعديدة لقيادتهم لهذه الغاية . ومن ضمن هذه الوسائل :

الكنيسة

فى شرحه لعملية الاختيار السابق ، قدم لنا كلفن تعليماً مفصلاً طويلاً ، حاول أن يبين فيه أن الله قد سبق وعين فى قصده السابق الذين اختارهم لميراث الحياة الأبدية . إنه اختار هؤلاء من وسط العالم لا لخير قد عملوه أو سبق هو نفسه وعرف بأنهم سيسلكون فى طريق الحق وقبول الدعوة ، بل اختارهم حسب قصده ومسرته ، ورحمته وعدله . فقد اختارهم بغض النظر عن كل الإستحقاقات أو عدم الإستحقاقات .

إن اختيارهم تم حسب مسرة مشيئة الله فقط . إن هؤلاء المختارين فى حاجة إلى رعاية روحية وإلى تغذية وإلى قيادة . ولأجل هذه الأسباب ولأسباب أخرى أيضاً ، أقام الرب فى محبته الكنيسة ، لكى تقدم الطعام اللازم الضرورى لهؤلاء المختارين . ويعالج كلفن هذا الموضوع فى كتابه الرابع « دستور الديانة المسيحية » فى أكثر من مائتين وستين صفحة .

ما هى الكنيسة ؟

الكنيسة هى وسيلة من الوسائل الفعالة التى يستخدمها الروح القدس لقيادة الذين سبق الرب واختارهم للحياة الأبدية .

وفى الفصل الأول من هذا الكتاب يعرفنا كلفن بالدور الفعال الهام الذى تقوم به الكنيسة فى توصيل الرسالة . إن وجود الكنيسة ضرورة حتمية لأن أذهاننا ضعيفة

وقلوبنا ثقيلة وآذاننا صماء ، كما أننا كسالى فى الأمور الروحية . ولذلك فإن الروح القدس يستخدم الكنيسة لقيادتنا إلى المسيح المخلص الفادى [1] .

فكما أن الآب فى محبته العظيمة قد استخدم ابنه الوحيد فى عملية التجسد لكى يؤسس علاقة اتحاد ومحبة بينه وبين الإنسان الساقط الضال استخدم وسيلة أرضية ملموسة ومحسوسة ؛ وهى الكنيسة ، لكى يقود بها الذين سوف يهبهم نعمة الإيمان .. يقودهم إلى الحياة الأبدية [2] . ويرى كلفن نوعين من الكنيسة الحقيقية :

١ ــ الكنيسة غير المنظورة :

سميت هذه الكنيسة بغير المنظورة لأنها غير منظورة أو معروفة من الناس بطريقة شاملة كاملة . ولكنها منظورة ومعروفة من الله . فإن الله وحده هو الذى يعرف أعضاء هذه الكنيسة . لأنه هو الذى اختارهم بنعمته وتبناهم ثم قدسهم . وأعضاء هذه الكنيسة منتشرون فى العالم ، وعلى مر العصور . فهم كل جماعة المختارين الذين إستطاعوا بنعمته وقوة روحه أن يثبتوا فى الإيمان ، وأن يجاهدوا مثابرين ، منذ بداية العالم حتى نهايته .

الكنيسة غير المنظورة هي إذاً جماعة المختارين فى كل مكان وعلى مر العصور [3] .

٢ ــ الكنيسة المنظورة :

أما الكنيسة المنظورة فهى الكنيسة المنتشرة على كل سطح الأرض ، والتى تعترف بإيمان واحد وبمعمودية واحدة ، والتى تشترك فى مائدة الرب ، وهدفها إكرام الله وخدمته . إنها الكنيسة الموجودة على الأرض والمجاهدة .

فإن كانت الكنيسة غير المنظورة لا تتكون إلا من قديسين مختارين فقط ، فإن الكنيسة المنظورة تحتوي على مختارين وغير مختارين ، إذ يوجد بها أيضاً قديسون وأشرار ، مراؤن ومُخْلصُون مُخَلَّصُون . إن الكنيسة التي على الأرض مثلها مثل شبكة ألقيت فى بحر فأمسكت أنواعاً كثيرة من السمك .

1- Inst. 4.1. 1-4.

2- Inst. 4. 1. 1-2

3- Inst. 4.1.7; Wendel 221-227; Niesel 182-192; A. Lecerf. 259

وبالرغم من أننا ذكرنا نوعين من الكنيسة ، ففى حقيقة الأمر ، إن كلفن لا يرى ولا يعترف إلا بوجود كنيسة واحدة . فالكنيسة غير المنظورة تشمل الذين اختارهم الرب وعرفهم منذ البداية إلى الآن . والكنيسة المنظورة تشمل أيضاً المختارين وغير المختارين ، والله يعرف الذين هم له . فإن الكنيسة كنيسة واحدة منظورة وغير منظورة . فهى الكنيسة التى اختار الله أعضاءها منذ الأبد والذين قدسهم بروحه ، فأصبحوا بنعمته أولاده ، والمسيح رأسهم وسيدهم . فهى إذاً كنيسة واحدة تعترف بسيد واحد ، وهو شخص الرب يسوع المسيح [٤] .

عندما يتكلم المصلح الفرنسى عن الكنيسة الحقيقية ، يتكلم عنها بكثير من الاحترام والتقدير ، لا بل يسند إليها فى بعض الأحيان سلطاناً يدهش له الكثيرون من الإنجيليين . فهو يعتبر الكنيسة كأم قد حملت بنا وولدتنا وأرضعتنا من ثدييها وإعتنت بنا أطفالاً ، وتعتنى بنا أيضا كباراً ، لا بل أنها تواصل إهتمامها ورعايتها لنا حتى الموت . فعن طريقها وفيها نحصل على الخلاص وعلى مغفرة الخطايا . وخارج عن الكنيسة لا يوجد خلاص [٥] . إن كلفن يردد هنا ما ذكره القديس اغسطينوس والقديس سيبيريانوس وحتى لوثر نفسه اعترف بأن الكنيسة هى أمنا وخارج عنها لا خلاص [٦] .
مما لا شك فيه بأن كثيرين من الإنجيليين لا يقبلون وهم فى ذلك على حق ، فكرة أنه خارج عن الكنيسة لا خلاص وقد يدهش الكثيرون من الإنجيليين متسائلين كيف يمكن للمصلحين — أو بعض عمالقتهم أمثال كلفن ولوثر ينادى بهذه التعليم ؟ ولكن عندما ندرس تعاليم هؤلاء الآباء المصلحين ، يجب ألا يغيب عن بالنا الجو الذى نشأوا فيه . عندما استلم كلفن مدينة جنيف كان السلطان الروحى والمدنى بين يدى الكنيسة وأساقفتها . وفى الوقت نفسه خرجت جماعات سواء فى ألمانيا أو فرنسا أو فى سويسرا تنادى بالتحرر من قيود الكنيسة ونظامها ، لا بل نادت بعدم ضرورة وجود الكنيسة.

4- F. Wendel. p. 225
5- Inst. 4.1: 4
6- Inst. 4: 1:4

كما أن هذه الجماعات علمت بأن الإنسان يستطيع أن يعبد الله فى أى مكان وبأى طريقة (٧) . كل هذا صحيح . ولكن الهدف من هذه الحركات والجماعات التى نادت بهذه المبادىء والتعاليم لم يكن قيادة الناس إلى التعبد لله فى أى مكان وزمان ، بل كانت تهدف إلى هدم الكنيسة المصلحة وغير المصلحة . وخشى كلفن من هذه الحركات التحررية أو بالمعنى الأصح « الفوضوية » . كما أنه خشى أيضاً أن يتسبب هذا التسيب فى إهمال أهمية الكنيسة فيصبح هذا سمة من سمات الإصلاح . ولذلك فقد تمسك بفكرة أنه خارج عن الكنيسة لا خلاص ، حتى يظهر بأن الكنيسة تحتل مكانة مهمة فى حركة الإصلاح . واننا لا نتفق معه فى هذه الفكرة ، لأننا نعلم أن روح الله يعمل بطرق كثيرة ومتعددة فى داخل الكنيسة التى أحبها ويعتنى بها ، كما أنه يعمل أيضاً خارجها . ولكننا فى الوقت نفسه نفهم تماماً الموقف الحرج الصعب الذى كان يواجه ــ فى كل يوم ــ الكنيسة المصلحة فى فرنسا وسويسرا وألمانيا .

من هى هذه الكنيسة ؟ الكنيسة ليست بشىء خارج عنا . فنحن الكنيسة . فعندما يقبل الإنسان شخص الرب يسوع المسيح كمخلص وكفادى ، وعندما يدخل فى الشركة الحقيقية معه ، عندئذ يصبح عضواً فى الكنيسة . وهذا ما علم به أيضاً القديس أغسطينوس فى كتابه مدينة الله . فإن كل الذين امتلأوا بمحبة المسيح ونعمته ، يكونون جماعة دينية واجتماعية ، هى الكنيسة . ومصلح استراسبورج بوسر يشبِّه الكنيسة بمنظمة (٨) .

إن الكنيسة فى عرف كلفن هى جسد المسيح وعلى كل عضو فى هذا الجسد الاهتمام بالأعضاء الأخرى وخدمتها . فإن كانت الكنيسة جسداً ، فإن الرأس المدبر والقائد والمرشد هو شخص المسيح نفسه .

إن الدارس لكتابات كلفن يلاحظ تطوراً فى تفكيره . فمنذ سنة ١٥٣٦ إلى سنة ١٥٣٩ كان يتكلم عن الكنيسة غير المنظورة ، ولكن بعد اتصاله بالمصلح

7- Luther, Grand Cathechisme, 3 Article du Credo, au debut; Wendel 223.
8- Wendel. 223-226

بوسر فى استراسبورج بدأ يتكلم أيضاً عن الكنيسة المنظورة ، والتى كرس لها أكبر جزء من كتابه الرابع .

ويحاول كلفن أن يعرف الكنيسة الحقيقية . كيف يمكننا أن نعرف الكنيسة الحقيقية ؟ ويقدم لنا عاملين هامين يمكننا أن نتعرَّف بهما على الكنيسة الحقيقية : « ففى كل مكان نرى فيه كلمة الله معلنة ومسموعة بطريقة صحيحة ، وفى كل مكان تمارس فيه الفرائض حسب أمر المسيح ، فهناك بلا شك كنيسة الله [٩] .

ويعلم كلفن بأنه ليس من السهل لا بل يكاد أن يكون من المستحيل أن يعرف الانسان من هو المختار ومن هو المرفوض ، لأن هذا الامر متروك لله . وبناء على ذلك يعتبر عضواً فى الكنيسة كل من يظهر بإيمانه وسلوكه وتصرفاته واشتراكه فى المائدة ، اعترافاً بسيادة الله وقبول المسيح كمخلص [١٠] . ومع أنه يشدد فى كل تعاليمه على التدقيق فى الحياة والسلوك ، إلا أنه ينبر أيضاً محذراً هؤلاء الذين يبتعدون عن الكنيسة بسبب العثرات التى تظهر من بعض أعضائها أو رعاتها ؛ وأن هذه العثرات لا يجب — بأى حال من الأحوال — أن تكون السبب فى إبعاد البعض عن الكنيسة ، بل على الأعضاء مقاومة هذه العثرات كما أنه يجب الحذر أيضاً من الحكم حسب الظاهر ، لأن اختيار الله الخفى غير معروف لنا . فعلينا أن نتعامل مع الجميع بلطف وطول أناة ، لأننا لا نعلم من هو المختار ومن هو المرفوض . ثم يرجع إلى قول القديس أغسطينوس الذى يقول « توجد خراف كثيرة خارج الكنيسة وذئاب كثيرة بداخلها »[١١] .

إن الكنيسة الحقيقية فى عرف كلفن هى أن جماعة تجتمع باسم وتحت رئاسة الرب يسوع المسيح ، لكى تصغى بانتباه واهتمام إلى الكلمة المقدسة ، وتمارس الفرائض التى أوصى بها . هذه الكنيسة التى لا يجب الانفصال عنها بأى حال من الأحوال ، لأنها « كنيسة الله الحى عمود الحق وقاعدته » (١ تيمو ٣ : ١٥) ، وهى العروس التى أحبها والتى طهرها بغسل الماء بالكلمة ، (أف ١ : ٢٣ ، ٥ :

9- Inst. 4. 1. 9

10- Inst. 8; Wendel 226

11- St. Augustin Traité sur l'Evangile de St. Jean. Tr. 45, 12; Inst. 4; 1.8

٢٦ ـــ ٢٨) وفى حديثه عن الكنيسة كعروس المسيح ، نقية طاهرة بلا عيب أو دنس ، يعترف بأنه من المستحيل أن نصل فى هذا العالم إلى الكمال ، ولكننا نسعى إليه . وعلى الكنيسة أن تكون يقظة حذرة . وعليها أن تفحص نفسها باستمرار وبأمانة أمام الله فلا تترك الحبل على الغارب لأعضائها فى تصرفاتهم وحياتهم ، بل تحثهم على حياة القداسة والنمو فى النعمة . لا بل عليها أيضاً أن تستعمل التأديب لفصل الذين لا يعيشون بحسب الدعوة التى دعوا بها . ومن حق الكنيسة عزلهم وفصلهم عن المائدة إلى أن يعترفوا بخطاياهم ويتوبوا عنها [١٢] . ولقد رجع كلفن إلى الكتاب لكى يؤيد فكرة العزل ، إذ أن الاصحاح الخامس من الرسالة الأولى لأهل كورنثوس يعالج هذا الموضوع « فاعزلوا الخبيث من بينكم » (١ كو ٥ : ١ ـــ ١٣ ، متى ١٨ : ١٥ ـــ ١٧) [١٣] . لقد شدّد كلفن فى كتاباته وفى اللوائح الدستورية الخاصة بتنظيم كنيسة جنيف على عزل الأعضاء الذين لا يسلكون بلياقة حسب الدعوة .

لقد انتقد الكثيرون كلفن على تطبيق هذا النظام . ولكن لا يجب أن يغيب عن بالنا أن الظروف التى كانت توجد فيها الكنيسة فى جنيف تختلف تماماً عن الظروف الحالية . ولقد سبق أن أشرنا بأن أهل جنيف ، أو على الأقل الأغلبية الساحقة ، قبلت الإصلاح وأمتلأت الكنائس بأعداد كثيرة ، ولم يستطع أهل هذه المدينة التمييز بين الديانة وبين العبادة الحقيقية . فقبلوا الإصلاح كديانة أو مذهب جديد ، دون تغير فى القلب والسلوك والحياة . وهنا بدأ صراع كلفن العنيف ، وهنا أيضاً كان مضطراً أن يفرض عملية عزل كل الذين يريدون الاشتراك فى المائدة لكى يظهروا قبولهم لمذهب الإصلاح ، ولكن حياتهم وتصرفاتهم تظهر غير ذلك .

فمنذ أن دخل كلفن مدينة جنيف ، بدأ عملية الإصلاح الداخلى فى الكنيسة . وكان يؤمن بأن عملية الإصلاح هى التغيير الداخلى فى قلب الكنيسة ، وفى قلب كل فرد فيها . وأن عدم التغير الداخلى والسلوك الذى

12- Inst. 4, 1, 8-10

13- Inst. 4.1.10-19: Wendel 225-230; Niesel 195-200

لا يليق ، يسيئان إلى مجد الله ، وكرامة المسيح : وبما أن الكنيسة هى الحارس والمنذر فعليها أن تعلن الحق الإلهى عالياً ، وأن تُوقف الذين يعثرون الآخرين عند حدهم . فعليها إذاً أن تعزل الذين لا يسلكون بأمانة ، وأن تحكم على تعاليم الهراطقة لكى لا ينشروا عدواهم ومرضهم بين الآخرين (١٤) . كان كلفن يعتقد بأن طريقة التأديب والعزل والحكم على الهراطقة طريقة سليمة لحفظ الكنيسة من الابتعاد عن رسالتها ، كما أنها تقود الكثيرين إلى التفكير فى حياتهم وتصرفاتهم وقيادتهم إلى التوبة . كما أنها تعلن أيضاً مجد الله العظيم ، وكرامة المسيح .

إن تطبيق هذا النظام من تعليم وتفسير وإرشاد وتأديب ، يحتاج إلى مسئولية . فمن هم الذين يجب أن يقوموا بهذا العمل ؟

ان الذى يجب أن يقوم بهذا العمل ، هو ما نسميه الآن فى كنائسنا الإنجيلية بمجلس الكنيسة .

مجلس الكنيسة :

يرجع كلفن إلى أفسس (٤ : ٤ ـــ ١٤) لكى يبين أن الله قد أرسل روحه القدوس إلى كنيسته ، فأقام بها أناساً منا ومثلنا ، لكى يكونوا مسئولين عن الخدمة المقدسة . ولقد منح الله لهؤلاء ـــ حسب قصده ـــ بعض العطايا الروحية ، حتى يستطيعوا القيام بهذه الخدمة فى الكنيسة .

ويقدم كلفن فى شرحه لرسالة الكنيسة والخدمة ، أربع وظائف أو أربعة أنواع من الخدمات : ـــ

خدمة الراعى :

وهنا يتساءل كلفن قائلاً : ما هى خدمة الرسل ؟ إن خدمة الرسل هى إعلان الحق الإلهى والتبشير بالكلمة للخليقة كلها (مز ١٦ : ١٥) . وهى أيضاً نفس الخدمة التى وكلها الرب لخدامه (١٥) . وعلى الخدام أن يقوموا أيضاً

14- Wendel. 226-228; Inst. 4,12,5: 17, 38.
15- Inst. 4, 3, 4.

بممارسة الفرائض والعمل على نمو الحياة الروحية ، بتقديم النصائح والتحذيرات للشعب وحفظ النظام [١٦]* .

٢ ــ المعلمون :

وهم الذين خول إليهم مهمة التعليم والسهر على سلامة العقيدة وأرثوذكسيتها . وعندما ندرس «كتاب دستور الديانة المسيحية» لا نجد تعريفاً واضحاً مميزاً بمهمة الراعى عن وظيفة المعلم ، فإنه يخلطهما فى أحيان كثيرة . على أنه حاول التمييز بينهما فى تفسيره لرسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس . وفى حقيقة الأمر فإن الراعى يقوم بوظيفة الخادم والمعلم .

٣ ــ الشيوخ : **

ويضع كلفن الشيخ بجانب الراعى والمعلم الشيخ ، وهو علمانى . إن لوثر قد سبق وأزال الحواجز التى تفصل بين الكاهن والعلمانى ، عندما نادى بعقيدة كهنوت جميع المؤمنين . وكانت مهمة الشيخ فى بداية الأمر تشمل الإشراف على تطبيق الدستور واللوائح الكنسية . ومن الملاحظ أن كلفن بدأ يعطى اهتماماً كثيراً للشيوخ ودورهم من سنة ١٥٣٧ ، عندما طلب منهم الإشراف على تنفيذ اللوائح والدستور الكنسى فى جنيف . وبعد أن أقام فى استراسبورج ودرس هذا الموضوع مع بوسر ، تكلم عنه بإسهاب فى كتابه دستور الديانة المسيحسة طبعة ١٥٤٣ [١٧] .

٤ ــ الشمامسة :

أما خدمة الشمامسة فهى واضحة وتشمل ناحيتين على الأقل :

١ ــ الاشراف على الناحية المالية المادية فى الكنيسة والاهتمام باحتياجات الفقراء وتوزيع العطايا عليهم .

16- Inst. 4, Niesel 200-202, Wendel 227-232

* يعتقد كلفن بأن اصطلاح «قسيس» ينطبق على الراعى والمعلم وعلى الاسقف أيضاً . ولا يمانع بأن نعطى لقب أسقف للمسئول عن تنظيم وإدارة جماعة الخدام : رئيس المجمع .

★★ Inst. 4.4. 2: A. Lecerf 75

** فى معظم الكنائس الفرنسية ينتخب الشيخ أو الشيخة لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد عدة مرات .

17- Wendel. 231 - 235, Niesel 200-210-

٢ – الاهتمام بزيارة المرضى والفقراء [١٨] (تيمو ٥ : ٩ – ١٠)

ويعتقد كلفن أنه لايوجد فرق كبير بين الشيخ والراعى أو المعلم . فإن الراعى يستطيع أن يقوم بعمل المعلم فى التعليم والإرشاد ، وكذلك أيضا المعلم يستطيع أن يقوم بعمل الراعى والشيخ .

ويعتقد مصلح جنيف أن هذه الوظائف الأربع فى غاية الأهمية ، لأن الله قد منحها للكنيسة حتى يكون فيها كل شيء بنظام وترتيب وتدقيق ، وحتى يستخدمها الروح القدس لانتشار ملكوت الله وتمجيد اسمه . والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو كيف تتم عملية اختيار هؤلاء الأشخاص لهذه الوظائف ؟

إن الله هو الذى يأخذ دائماً المبادرة فى الدعوة . فهو الذى يدعو الشخص الذى يريد أن يفرزه لخدمته : « ولا يأخذ أحد هذه الوصية بنفسه بل المدعو من الله كما هرون أيضاً » (عب ٥ : ٤ ، رو ١ : ١ ، ١كو ١ : ١) .

فبعد أن يقنع الروح القدس الشخص المختار للخدمة بدعوته له ، تأتى بعد ذلك دعوة الكنيسة . فإن الكنيسة المحلية * وعلى رأسها الخدام والشيوخ والشمامسة ينتخبون الخادم (١ تيمو ٣ : ٢ ــ ٧ ، تى ١ : ٧ ــ ٩) ، ويقومون بوضع الأيادى عليه ، وفرزه للخدمة المقدسة بهذه العلامة الخارجية .. وضع الايدى ** . تعين الكنيسة بطريقة ظاهرة خدامها الذين يعلنون أيضا أمام الجماعة استعدادهم لهذه الخدمة . ويصبح الخادم بعد فرزه علانية خادماً للكنيسة وشريكاً للخدام الآخرين فى حمل أعباء المسئولية المقدسة [١٩] .

إن كلفن يعطى إهتماما كبيراً جداً للكنيسة المحلية . فهى التى تتمتع بسلطان اختيار الراعى . لأنه فى الكنيسة المحلية يكمن سر التسلسل الرسولى . فعندما تنتخب الكنيسة المحلية راعياً فهى تنتخبه بالطريقة الرسولية ، والرعاة هم خليفة

18- Inst. 4,3,9: Wendel 231-235

** كانت كنيسة جنيف ضد نظام وضع الأيدى لرسم الخدام . أما كلفن فيفضل استعماله وخاصة أن الرسل استعملوه ولم يعلموا ضده (تك ٤٨ : ١٤ ، أع ١٩ : ٦) .

19- Inst. 4.3. 10-16

الرسل ..[٢٠] . ولا مانع أن ندعو عملية وضع الأيادى فريضة ، لأن هذه الفريضة كتابية ونافعة . على أنه يفضل بأن يحتفظ باستعمال هذا الإصطلاح للعشاء الربانى والعماد فقط . ومن ضمن المسئوليات والخدمات العديدة التى يجب على الخادم أن يقوم بها ، ممارسته للفرائض . فما هو مفهومه للفرائض ؟ وما هى الفرائض التى قبلها المصلح الفرنسى ؟

مفهومه للفرائض

إن كلفن يكرس الفصل الرابع عشر كله من الكتاب الرابع لدستور الديانة المسيحية لمعالجة مشكلة الفرائض . ومن يدرس هذا الفصل بتدقيق يلاحظ الاهتمام الكبير الذى أعاره كلفن لهذا الموضوع لأنه يعتقد ان الفرائض تلعب دوراً هاماً جداً لتقوية إيمان المختارين . لا بل توجد علاقة كبيرة بين الكرازة بالانجيل وبين الفرائض . على أنه لا يضعهما على قدم المساواة ، لأن الفرائض لا تشغل إلا دوراً ثانوياً وكمالياً ، أما الإنجيل فهو اساس كاف بذاته : لأنه قوة الله للخلاص[٢١] .

ويعتقد كلفن بأن الله يستخدم بعض الفرائض الملموسة المحسوسة لضعف إيماننا ، لكى يوصل عن طريقها الرسالة الروحية التى نحتاج إليها . ولقد أعطى المصلح تعريفين للفريضة :

١ ــ الفريضة هى علامة خارجية بها يختم الله فى ضمائرنا مواعيد إرادته الصالحة من نحونا ، لكى يقوى إيماننا الضعيف ، لكى نستطيع بدورنا أن نقدم شهادة له أمام الملائكة وأمام الناس بأنه ربنا .

٢ ــ شهادة عن نعمة الله السماوية التى منحت لنا تؤيدها العلامة الخارجية ، مصحوبة بتقديم الإكرام الذى نكنه له (الله) .

أما القديس اغسطينوس فيقول عن الفريضة : علامة منظورة لنعمة غير منظورة[٢٢] . ان كلفن يتفق هنا ، كما أنه يتفق أيضاً فى كثير من الأحيان

20- A. Lecerf. 70,72 Inst. 4.4.16; 19, 28
21- Inst. 4, 14, 1. Wendel 237-240
22- Inst. 4, 14, 1

ان كلفن يتفق هنا ، كما أنه يتفق أيضاً فى كثير من الأحيان مع القديس أغسطينوس فى موضوع الفريضة ، كما أنه يتفق أيضاً مع مصلح استراسبورج بوسر . يعتقد كلفن بأن إيماننا ضعيف ويحتاج فى كثير من الأحيان إلى وسيلة خارجية ملموسة محسوسة . لذلك فإن الله منحنا بعض الفرائض لتقوية الإيمان . والدارس يلاحظ أن كلفن رجع إلى لوثر عندما تكلم عن الفرائض وخاصة فريضة العشاء الربانى . ولقد استعار بعض افكاره من كتابه الذى يدعى الأسر البابلى للكنيسة(٢٣) . مما لا شك فيه أن الدارس لكتابة المصلحين فيما يخص موضوع الفرائض يشعر كما لو كان لوثر يهاجم الفرائض ، وكما لو كان كلفن يقبل الفرائض ويحاول الدفاع عنها . وفى حقيقة الأمر إن كلا الاثنين يتفقان على مفهوم واحد للفرائض . إن ما كان يخشاه لوثر ، وما حاول رفضه ، هو المفهوم الذى كان يسيطر على عقلية الكثيرين بأن الفريضة فى حد ذاتها ــ تحتوى على سر خفى ، أو تحتوى على سلطان عظيم . فالفريضة والمظهر الخارجى حلا محل ما تشير اليه الفريضة ، هذا ما رفضه لوثر . أما كلفن فعندما شدد على أهمية الفريضة كان متفقاً تماماًمع لوثر فإن المائدة : الخبز والخمر ، أو ماء العماد لا يحمل فى ذاته أو بذاته التغيير أو التجديد ، بل إن كل هذه العناصر الخارجية الظاهرة ما هى إلا علامات تشير إلى حقيقة خفية وغير ملموسة ، وهى نعمة الله . فإن العماد لا يعطى الخلاص ، لكنه علامة خارجية تشير إلى حقيقة أن الشخص المعمد ، قد حصل على الخلاص بنعمة الله . فإن الخلاص يسبق العماد (للكبار) ، ويسبق الاشتراك فى المائدة .

تمسك كلفن بفكرة أن الفرائض علامة خارجية تشهد بوجود حقيقة داخلية : وهى نعمة الله . فهو يرفض الأفكار الزونكيلية دون أن يسميها . كما أنه يرفض فى نفس الوقت التعليم القائل بأن الفرائض تثبِّت إيماننا . إن الفرائض تقوى الإيمان لكنها لا تثبته ، لأنه ثابت بالاختيار وبنعمة الله . فإن الله نفسه هو الذى يثبت الإيمان ويعطى الوسائل المختلفة والمتنوعة لتغذية هذا الإيمان ،

---

٢٣ ــ د.حنا جرجس الخضرى . المصلح مارتن لوثر : حياته وتعاليمه ص ١٠٣ ــ ١٠٤

ومن ضمن هذه الوسائل الفرائض (٢٤) .

لقد نبَّر كلفن أيضاً على دور الإيمان المهم فى موضوع الفرائض . وبما أن الإيمان لا يمنح إلا للمختارين ، فإن ممارسة الفرائض تظل بدون ثمرة أو نتيجة فى قلوب الذين لم يحصلوا على نعمة الايمان الممنوحة للمختارين (٢٥) . وعندما يتحدث كلفن عن الفرائض لا يقصد فرائض العهد الجديد فقط ، بل إن العهد القديم اشتمل أيضاً على فرائض كثيرة مثل الختان والغسالات والتطهيرات والذبائح التى كانت تمارس . وكان الهدف من كل هذه الفرائض الاشارة بها للمسيح (٢٦) . ولم يتمسك كلفن إلا بفريضتين من فرائض العهد الجديد ، وهما المعمودية والعشاء الربانى :

فريضة المعمودية :

يعتقد كلفن بأن فريضة العماد التى أمر بها الرب يسوع حينما ارسل تلاميذه قائلاً : «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (مت ٢٨ : ١٩) هى أمر إلهى وفريضة ضرورية ، يجب على الكليسة ممارستها .

ما هو مفهوم كلفن للعماد ؟

إن كلفن يتفق فى هذا الأمر مع المصلح الألمانى لوثر ، بأن الفرائض سواء العشاء الربانى أو العماد ، تستمد قوتها وصلاحيتها ليس من المواد المستخدمة من خمر وخبز وماء ، بل من شخص الرب يسوع نفسه الذى باسمه تمارس هاتين الفريضتين ، ثم من استعداد الشخص المعمد أو المشترك . إن فريضة العماد لا تحتوى بأى حال من الاحوال على سر خفى أو على قوة سحرية لتغير الشخص المعمد ، بل إن الأمر متوقف على عمل الروح القدس فى الشخص المعمد،وعلى موقف هذا الشخص من الفريضة لقبولها بإيمان(٢٧).

24- Inst. 4, 14, 17
25- Wendel P. 241
26- Inst. 4, 14, 20
27- Inst. 4.15.1

فالعماد فى عرف المصلح الفرنسى عبارة عن علامة خارجية ظاهرية ، تشير إلى مغفرة الخطايا ، وإلى إنضمام الشخص المعمد إلى كنيسة المسيح . فعن طريق العماد يصبح الأنسان عضواً فى كنيسة الله [٢٨] .

إن عملية مغفرة الخطايا لا تتم عن طريق العماد ، بل إن العماد يشير إلى هذه الحقيقة . فإن العماد لا يغفر الخطايا ، بل هو علامة خارجية مرئية على مغفرة الخطايا . لأن الخطايا قد غفرت وتغفر بموت المسيح ودمه . لأن المسيح هو الذى طهر عروسه المفدية بدمه الكريم الثمين (أف ٥ : ٢٦ ، تى ٣ : ٥ ، ١بط ٣ : ٢١) . وفى كل مرّة يسقط المؤمن فى الخطية أو ينحرف مغلوباً ، يجب عليه أن يتذكر معموديته ، وهذا لا يعنى أن فى المعمودية مغفرة الخطايا بل عليه أن يتذكر يوم العماد ، الذى يشير إلى مغفرة خطاياه فى الماضى والحاضر والمستقبل [٢٩] . وهنا يربط كلفن بين المعمودية وبين التوبة ، كما فعل لوثر . فعلى كل مؤمن أن يتذكر هذا اليوم : يوم العماد الذى يشير إلى مغفرة الخطايا [٣٠] . فإن كانت المعمودية تشير إلى مغفرة الخطايا فإنها تشير أيضاً إلى موتنا وقيامتنا فى المسيح يسوع . (رو ٦ : ٣ ــ ٤) . فإن المعمودية عبارة عن موت ودفن . فإن المؤمن الذى يقبل العماد ، فهو يدفن تماماً : ينزل إلى هاوية الموت ــ كما نزل المسيح إلى هاوية القبر وبقي فيها ثلاثة أيام . فالمعمودية هى موت المؤمن عن حياته التى لا ترضى الله . ومن هذا الموت ومن هذا القبر الذى دفن فيه المؤمن بالمعمودية ، يخرج كما خرج المسيح ظافراً منتصراً على الموت ، إلى جدة الحياة لعمل البر والقداسة والصلاح [٣١]. ويرى كلفن أن العماد يشير أيضاً إلى اتحاد المؤمن بشخص المسيح الفادى والمخلص ، والاشتراك فى كل البركات الروحية التى يمنحها المسيح للمؤمنين ، الذين يقدسهم ويطهرهم بروحه القدوس [٣٢] . ومع أن المصلح يعتقد بأن المعمودية تشير إلى غفران الخطايا وتقديس وتطهير الخاطىء ، الا أنه لا يتفق مع العقيدة التى تعلم بأن العماد يخلصنا من الخطية الأصلية ومن وصمتها ، ومن الفساد الطبيعى الذى أورثه آدم للجنس البشرى عند السقوط .

28- Inst. 4: 15, 2
29,30- Inst. 4, 15, 3:30 Wendel 142-145
31- Inst. 4, 15, 3, 5
32- Inst. 4, 15, 5-7; Rilliet 114-117

أما هو فقد علَّم بأن الخطية قد أفسدت طبيعتنا كلها ، ولهذا السبب فإنها مكروهة ومبغضة أمام الله . وبناء على ذلك ، فإن المعمودية لا ترجع المعمد إلى حالة الكمال التى كان يتمتع بها آدم قبل السقوط ، بل إنها تشير إلى حقيقة أن الله فى محبته قد محا كل تعديات وخطايا المؤمن ، كما أنه محا أيضاً العقاب الذى كان مفروضاً على كل من يرتكب الخطايا ، لا بل إنها علامة تشير إلى بر الله الذى منحه فى المسيح ، والذى أصبح عن طريق عملية الحسبان برنا الشخصى (٣٣) . وهنا يربط كلفن عقيدة التبرير بالعماد . ولا ننسى الفكرة الأساسية بأن كلفن يعتبر أن العماد فى حد ذاته ليس هو كل هذه الأشياء ، بل تشير إلى هذه الهبات . ويرى كلفن فى العماد علامة خارجية منظورة ، عن طريقها يعلن المؤمن اعترافه بشخص الرب يسوع كسيد ورب ، وأنه أصبح واحداً من شعب الله (٣٤) .

وهذا طبعاً فى حالة إذا ما كان المعتمد شخصاً بالغاً .

يتعرض كلفن فى حديثه عن العماد لمفهوم جماعة المعمدانيين * . فلقد رفضت هذه الجماعة عماد الأطفال . كما أنها رفضت أيضاً العماد على يد كهنة كاثوليك مدعين بأن أولئك الكهنة غير مستحقين لممارسة فريضة العماد الحقيقى لأنهم خطاة . ويرد كلفن على اعتراضهم هذا بأن صلاحية العماد لا تتوقف على الشخص الذى يعمد كاهناً كان أم قسيساً ، رجلاً تقيا ، أو غير تقى . لأن العماد يستمد صلاحيته وحقيقته من شخص الرب يسوع المسيح ، وأن العماد لا يتم باسم الكاهن أو القس فلان ، بل باسم الآب والابن والروح القدس . إن الثالوث المقدس الذى باسمه يعتمد المُعمَّدُ هو الذى يمنح صلاحية العماد وليس الشخص المُعَمِّد .

ولقد أثارت جماعة الدوناتيست نفس المشكلة فى أيام القديس أغسطينوس ،

33- Inst. 4.4: 15. 6-11
34- Inst. 4, 15, 13-14

* عندما نتكلم عن جماعة المعمدانيين لا نقصد طائفة المعمدانيين الحالية ، بل الجماعة التى ظهرت فى القرن السادس عشر وعارضت لوثر وكلفن فى كثير من تعاليمها .

بالنسبة للذين رفضوا العماد على يد كهنة اعتبروهم غير مستحقين الحصول على درجة الكهنوت . وينبر كلفن بشدة على حقيقة أن العماد الذى يجرى باسم الآب والابن والروح القدس ، صالح ولا داع لإعادته .

ولقد اتفقت معظم الكنائس المسيحية ، وخاصة الكنائس الكاثوليك وكثير من الكنائس البروتستانتية على عدم إعادة العماد . فإن إعادة عماد شخص قد سبق واعتمد قبل ذلك ، يعتبر إهانة وعدم احترام للكنيسة الأخرى التى تعمد فيها الشخص الذى يعاد عماده . وهذا لايتفق — بأى حال من الأحوال — مع الروح المسكونية فى الوقت الحاضر . فمع أن الكنيسة الكاثوليكية لا تعتبر عضواً فى مجلس الكنائس العالمى ، إلا أنها تسير نحو الوحدة بخطوات واسعة وبطريقة جادة واعية حكيمة . وإن مسكونية هذه الكنيسة ، أو رغبتها فى الوحدة الحقيقية ظاهرة واضحة . ففى كثير من الأحيان اتخذ بعض قادتها وشعبها ، خطوات جديدة عملية أمينة ومخلصة من أجل الوحدة .

لم يحاول هذا البعض من قادتها المخلصين إظهار روح الوحدة المسيحية بعبارات جميلة جذابة فى أثناء المقابلات والمؤتمرات والاحتفالات العالمية المسكونية فقط ، بل إن هؤلاء المخلصين طبقوا بطريقة عملية حقيقية ما قد اقتنعوا به . ولهذا السبب — ففى فرنسا مثلاً — حيث أتشرف برعاية ثلاث كنائس فرنسية إنجيلية فى منطقة كاثوليكية ، فإن الكاهن الكاثوليكى والقسيس الإنجيلى يقومان معاً جنباً إلى جنب — بمراسيم فرائض العماد لطفل من أبوين من طائفتين مختلفتين . وهنا يترجم الكاهن الكاثوليكى والقسيس الإنجيلى روح الوحدة المسكونية ، ليس بجمل منمقة وجذابة رنانة ، بل بعمل فعلى وحقيقى نحو الوحدة التى صلى المسيح من أجلها (يو ١٧ : ٢٠ — ٢٢) * .

يتعرض كلفن فى شرحه لفريضة العماد لمشكلة أخرى ، وهى مشكلة عماد الأطفال : هل يجب أولاً تعميد الأطفال ؟

* كتب الاب الدكتور الفونس عبد الله مقالا عظيما فى مجلة الهدى تحت عنوان «هل تعاد المعمودية» . وهو يرفض اعادة العماد . ويعتبر المقال بحثاً علمياً دقيقاً يستحق التقدير والدراسة (مجلة الهدى شهر سبتمبر ١٩٨٥ العدد ٨٨٠ السنة ٧٥) .

ولقد سبق آن آشرنا إلى أن جماعة المعمدانيين رفضت العماد على أيدى الخدام غير المستحقين ، ورفضت أيضاً عماد الأطفال ، لأنهم إعتقدوا بأن عماد الأطفال ما هو إلا تعليم كنسى لا أساس كتابى له . وفى رده على إعتراضات هذه الجماعة استعمل نفس البراهين التى استعملها قبله بعض المصلحين أمثال لوثر وبوسر وزونكيلى والتى استعملها أيضاً القديس اغسطينوس وهى بأن الله يمنح بطريقة خفية ايماناً للأطفال . كما أن إيمان الوالدين يساعد كثيراً الأطفال على قبول الإيمان . ثم يرجع إلى قول المسيح نفسه « دعوا الأولاد يأتون إلىّ ولا تمنعوهم لأن .... » (لو ١٨ : ١٦) . فهو يعتقد بأن هذه الآية تعبر عن رغبة المسيح فى قبول الأطفال وعمادهم . ويقارن المصلح الفرنسى العماد بالختان . فعندما أراد الرب أن يقيم لنفسه شعباً قطع معه عهداً ، وختم هذا العهد بالختان (تك ١٧ : ٧ ــ ١٠ ، تث ١٠ : ١٦ ، ٣ : ٦) . فإن فريضة الختان فى غرلة الإسرائيلى كانت الإشارة على أنه ملك لله ، وأن الله أصبح إلهه . وفى فريضة عماد الأطفال إشارة إلى حقيقة أن الله يصبح ليس إلهنا فقط ، بل إنه إله أولادنا أيضاً . واعترض المعمدانيون على منح المعمودية لأطفال لا يدركون . فإن الايمان يمنح لمن يدرك ويفهم ، حتى يستطيع أن يقبل الرسالة وجاوب كلفن على هذا الاعتراض ، بأن الله يستطيع أن يلمس قلوب الأطفال وأن يوصل لهم الإيمان الذى هم فى حاجة إليه بطريقة خفية خاصة [٣٥] . إن كلفن يشدد على عماد الأطفال . والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو هل شدد كلفن على ضرورة العماد لأنه كان يعتقد أنه بدون العماد لا خلاص ؟

لقد علم القديس أغسطينوس بأن الطفل الذى يموت بدون عماد يذهب إلى مكان مظلم يدعى الأمبس [٣٦] . ويرفض مصلح جنيف تعليم القديس أغسطينوس فى هذا الأمر . ولكى يشرح هذه العقيدة رجع إلى العهد الذى قطعه الله مع الإنسان . فإن الله يذكّر الانسان عن طريق العماد بأنه قطع

35- Inst. 4: 16.18

36- St. Augustin Contra Julianum 5, 11, 44, L; T, 44,809

معه عهداً جديداً ، عهد المحبة الذى يظهر فيه أبوته لنا . فعن طريق هذا العهد لم يصر الله أباً لنا فقط ، بل إنه صار أباً لأولادنا أيضاً (٣٧) .

مما لا شك فيه أن الذى يدرس العهد الجديد لا يجد ولا آية واحدة واضحة وصريحة تشير إلى عماد الأطفال . صحيح أن القديس لوقا يقول « واعتمد فى الحال هو والذين له أجمعون » (أع ١٦ : ٣٣) ، ولكن من يستطيع أن يؤكد لنا وجود أطفال فى بيت السجان ؟ وخاصة فى ساعة متأخرة من الليل بعد منتصف الليل !!! فعلى أى أساس إذاً نعمد الأطفال فى كنائسنا الإنجيلية ؟

لقد بدأ الرسل والكنيسة الأولى بالتبشير وسط اليهود والأميين ، وكان يعتمد كل من يقبل شخص المسيح كمخلص وفاد . وكان العماد علامة خارجية ظاهرة ومرئية يعلن بها المعتمد بأنه قبل الرب يسوع المسيح كسيده وربه .

ولكن بعدما انتشرت المسيحية وقبلها الأفراد والعائلات كديانة لهم وبدأ التعليم المسيحى ينتشر أيضاً وسط هذه العائلات المتجددة . ظهرت مشكلة عماد الأطفال حسب إيمان واعتراف الوالدين .

ويوجد حالياً فى الكنيسة المصلحة تياران فيما يخص العماد : الذين يقبلون فكرة تقديم الأولاد دون عماد : فإن الراعى يقوم بصلاة معينة على الطفل طالباً بركة الرب عليه وقيادته بروحه ، إلى أن يتخذ هو نفسه — فى يوم ما — القرار للعماد . أما التيار الآخر هو عماد الأطفال . وفى هذه الحالة يتقابل الراعى مع الوالدين عدة مرات لكى يشرح لهما مسئوليتهما إزاء تسليم الإيمان إلى الطفل الذى سيقوم بعماده .

ونحن نعتقد بضرورة العماد ، ليس لأن العماد بالماء يحمل فى طياته الخلاص ، بل لأنه إشارة وعلامة على الخلاص . فعندما يتعهد الأبوان أمام الله والكنيسة بأنهما سوف يسهران على الطفل ورعايته رعاية روحية إلى أن يصل

37- Inst. 4, 16, 32, 10, 30; Wendel 245-250

هو نفسه بقيادة الله ونعمته لأن يأخذ القرار باتباع الرب يسوع ، فإن هذا العهد سيظل باعثاً ودافعاً للوالدين على قيادة الطفل لطريق الخلاص .

إن الذين رفضوا عماد الأطفال رجعوا إلى حقيقة عدم وجود نصوص كتابية تتكلم عن عمادهم ، ثم أمر المسيح لتلاميذه بأن يبشروا ثم يعمدوا أى أن التبشير يسبق العماد . كل هذا صحيح ولكن يجب ألا ننسى أن رسالة الرسل كانت مركزة على تبشير الوثنيين واليهود وإقناعهم برسالة الإنجيل ، وبعد أن تكونت العائلات المسيحية ، بدأت الكنيسة فى تعميد الأطفال .

من هو الذى يجب أن يقوم بممارسة العماد ؟ *

إن كلفن يسند مهمة ممارسة العماد للخدام فقط . فإنه لا يقبل بأن شخصاً غير مرتسم يقوم بعملية العماد ، كما أنه يرفض أن تقوم به سيدة [٣٨] .

كانت الكنيسة الكاثوليكية تعتقد ــ كما علم بذلك القديس أغسطينوس بأن ــ الطفل الذى يموت بدون عماد يحرم من النور ويذهب إلى الامبس . ولذلك فقد سمحت الكنيسة للعلمانى ــ حتى ولو كان سيدة ــ أن يعمد طفل ، مهدد بخطر الموت . ويرفض كلفن هذا التعليم لأنه كان يؤمن بأن ماء المعمودية لا يحتوى فى ذاته على الخلاص ، وأن هذا الماء لا يحتوى على قوة سحرية تغير الطفل من طفل أو انسان هالك إلى ابن لله . إن العماد ما هو إلا علامة خارجية مرئية ، كان يعبر بها الشخص البالغ عن قبوله لشخص الرب يسوع المسيح كسيده وربه .

فإن العماد يشير إذاً إلى عملية الغسل والتنظيف والتطهير التى يقوم بها الروح القدس فى قلب وحياة الإنسان (أف ٥ : ٢٦ ، تى ٣ : ٥ ، ١ بط ٣ : ٢١) . وأن الذى يقوم بهذه العملية ليس الماء المسكوب على رأس المُعَمَّد بل روح الله ، أى ليس الفريضة فى حد ذاتها . إن الفريضة لا تمنح الخلاص ، بل تعلن أن الشخص الذى اعتمد مخلَّص . فإن الخلاص يتم إذاً قبل العماد :

* يمكن للشيخ أو الشيخة فى الكنيسة المصلحة القيام بممارسة العماد وحتى العشاء الربانى ، بتفويض رسمى من رئيس المجمع أو رئيس مجلس الكنيسة : أى الراعى .

38- Inst. 4, 15, 20-22

ففى حالة الإنسان البالغ فهو يقبل أولا شخص المسيح ويعمد ثانية ، وفى حالة الأطفال فهم مخلصون بالنعمة وبرحمة الله ، إلى أن يصلوا إلى السن الذى فيه يستطيعون أن يسلموا حياتهم للرب يسوع المسيح .

فعندما رفض كلفن أن يسمح لامرأة بالقيام بالعماد ، ربما كان يخشى فكرة إحاطة فريضة العماد بهالة ضخمة وسحرية . وأنه بدون عماد الأطفال لا دخول فى ملكوت السماوات .

كان كلفن يريد أن يلفت نظر الشعب ، ليس إلى الفريضة بل إلى ما تشير إليه الفريضة : وهو الدفن والقيامة مع المسيح لعمل البر والصلاح ، أى القيامة لحياة أفضل .

إننا نعتقد بأن العماد ضرورى ولازم كفريضة أمر الرب نفسه بممارستها . على أن هذه الفريضة لا تمنح الخلاص أو بواسطتها ننال الخلاص بل ، وكما سبق القول فإنها علامة خارجية تشير إلى الخلاص . إن الطفل الذى يُعَمَّد قبله الله فى محبته ورحمته قبل العماد أو بعد العماد ، إلى أن يصل هو نفسه إلى السن الذى فيه يستطيع ان يعترف بنعمة الله ومساعدته بتكريس حياته للسيد . فإن العماد سواء كان قبل التجديد أو بعده ، سواء كان للطفل أو للبالغ ، لا يملك قوة سحرية فى ذاته للتجديد أو لتغير الإنسان . لأن المعمودية لا تمنح الحياة الجديدة بل إن رب المعمودية نفسه هو الذى يمنح الحياة الجديدة .

وهنا نريد أن نشير إلى نقطة عقيدية مهمة ، بالنسبة للإخوة الذين يتمسكون بفكرة إعادة العماد أو عماد البالغين .

فاذا علمنا باعادة العماد ، نعترف بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بضرورة العماد للخلاص وكأنه بدون عماد لا يتم الخلاص ، ومن هذا المنطلق نعطى للعماد أهمية جوهرية فى عملية الخلاص . ونحن نعلم بأن الخلاص لا يتم بالعماد ، بل إن العماد علامة خارجية تشير إلى الخلاص ، الذى تم قبل أن تمارس فريضة العماد على المُعمَّد .

العشاء الربانى : الافخارستية

عرض المصلح الفرنسى فى كتابه الرابع « دستور الديانة المسيحية » ،

أفكاره العقيدية الخاصة بالكنيسة والفرائض والعماد ثم العشاء الربانى . وفى معالجته لهذه الموضوعات حاول أن يبيِّن أن الله اختار الأنبياء فالرسل فالمؤمنين لكى يكونوا شهوداً له ، أو كنيسته الشاهدة لوجوده والمعلنة محبته للعالم . ولكى تكون رسالة هذه الكنيسة قوية فى تأثيرها نافذة المفعول ، وهبها الكلمة المكتوبة . وبجانب الكلمة أعطى لها أيضاً الفرائض التى هى عبارة عن علامة خارجية ظاهرية لتعبر عن حقائق روحية ثمينة : وهم فريضتا العماد والعشاء الربانى . فالعماد هو علامة خارجية تشير إلى نسبة الشخص المُعمَّد إلى ملكوت الله ، وصيرورته عضواً فى جسد المسيح . أما فريضة العشاء الربانى ، فهى تشير إلى الطعام الذى يحتاج إليه العضو أو المؤمن ، الذى يحيا فى المسيح والمسيح يحيا فيه .

فما هو مفهوم كلفن لعقيدة العشاء الربانى ؟

إن الدارس لكتابات المصلح الفرنسى يلاحظ أنه قد سبق أن تعرض لمعالجة موضوع العشاء الربانى فى الطبعات السابقة لكتابه « دستور الديانة المسيحية » ، وخاصة فى الطبعة الأولى التى ظهرت فى سنة ١٥٣٦ ، والتى تعرضت لعدة تغيرات وإضافات والتى كان المؤلف نفسه يقوم بها فى بعض الطبعات التالية .

وفى الطبعة الأولى (١٥٣٦) ، أظهر كلفن إلمامه ببعض كتابات لوثر ، لا بل إنه استعار بعض أفكاره عن الوحدة فى المسيح : التى يشير إليها الاشتراك فى الخبز الواحد المكون من حبوب كثيرة [٣٩] .

كانت مشكلة العشاء الربانى من المشاكل العقيدية الشائكة والتى أثارت بعض الإنقسامات ، ليس فقط بين الكنيسة الكاثوليكية وبين كنائس الإصلاح ، بل بين كنائس الإصلاح نفسها . ألم يشتد النزاع حول هذه المشكلة فى إجتماع ماربورج بين اللوثريين والزونكيليين ، لدرجة أن لوثر لم يقبل أن يدعو الفريق المعارض له إخوة فى المسيح، إلى أن يقبلوا عقيدة حلول جسد المسيح كاملاً فى الخبز والماء؟[٤٠]

39- F. Wendel. 251-254

٤٠ ــ دكتور حنا جرجس ، مارتن لوثر صفحات ١٤٩ ــ ١٥١

ألم يقل أيضاً كلفن لقد اطلعت على ما كتبه وكولامباد (Oecolampade) وزونكيلى فيما يخص العشاء الربانى ، وكيف أنهما لم يتركا شيئاً من الفرائض إلا رموزاً عارية وفارغة . لقد ابتعدت عن كتبهما *وإننى اعترف بأنى امتنعت حالاً عن دراسة كتاباتهما لمدة طويلة (٤١) .

من هذا يتضح أن عقيدة الأفخارستية كانت من ضمن المشاكل الحساسة وموضوع النزاع بين الانجيليين أنفسهم . فما هو إذاً مفهوم كلفن ، وما هى نقاط الاختلاف بينه وبين الكنيسة الكاثوليكية والكنائس المصلحة الأخرى فى عقيدة العشاء الربانى ؟

يفتتح كلفن الفصل السابع عشر من كتابه الرابع لدستور الديانة المسيحية بالسؤال الآتى : ـــ لماذا وضع المسيح فريضة العشاء الربانى ؟ وفى إجابته على هذا السؤال يشرح أن الله قد قبلنا فى بيته ليس كعبيد ، بل كأولاد أحباء وهو أب لنا . وكآب محب عطوف فهو يعتنى بحياة أولاده وتغذيتهم والسهر عليهم . ولذلك فهو يقدم للمؤمنين طعاماً روحياً شهياً ويدعوهم إلى مائدة روحية ، خبزها يسوع المسيح ابنه الوحيد (يو ٦ : ٥١) (٤٢) . فعندما يتقدم المؤمن للاشتراك فى المائدة ، انما يتقدم للتغذية بطعام روحى شهى تحتاج إليه روحه . فإن الخمر والخبز يمثلان بطريقة منظورة وملموسة الطعام غير المنظور الذى قدمه لنا المسيح بموته على الصليب عندما كسر جسده وسال دمه . فإن كانت المعمودية تشير إلى تجديدنا وصيرورتنا أعضاء فى كنيسته ، فإن العشاء الربانى يشير إلى الطعام الروحى الثمين الذى يغذى به الرب أرواحنا الجائعة والمتعطشة لأنه هو خبز الحياة (٤٣) .

ولان هذا الطعام ضرورى لكل نفس قبلت المسيح كمخلصٍ وفادٍ ، فإن المسيح نفسه قام بممارسته ، وطالب تلاميذه أيضاً بأن يتبعوا مثاله (مت ٢٦ : ٢٦ ، مر ١٤ : ٢٢ ، لو ٢٢ : ١٩ ، ١ كو ١١ : ٢٤) . إن المسيح

41- Wendel 254, Niesel 9, 51

42- Inst. 4, 17,1

• نأسف أن كلفن انقطع عن دراسة ما كتبه زوينكلى ، لأنه كتب أشياء تتفق وتعاليم كلفن ولو جزئيا فى موضوع العشاء الربانى .

43- Inst. 4.17. 1-5

يطالبنا أن نتناول جسده ودمه ، كطعام روحي ضروري لحياتنا الروحية . إن هذا الطعام هو طعام الشركة والعهد . فإن الله يقطع عهداً مع كل مؤمن ، ويدعوه بعد قطع العهد للجلوس معه على المائدة . ولذلك فإن الكأس يدعى كأس العهد . فكل مرة نشترك فى هذه المائدة آكلين من الخبز وشاربين من الكأس نجدد ، معاهدة كأس العهد الذى كلف السيد حياته التى قدمها مرة واحدة من أجل فدائنا وإشباعنا (يو ٦ : ٣٥ ــ ٤٨) . إن الاشتراك فى مائدة الرب يعنى بالنسبة للمصلح الفرنسي أن الرب أصبح مالكاً لنا ونحن أصبحنا ملكاً له أيضاً . فالمسيح فى المؤمن والمؤمن فى المسيح ، وما هو له فهو لنا (٤٥) .

إن المسيح قد سلَّم نفسه مرة واحدة للموت . فقد مات جسده كله فدية عن الإنسان على الصليب . وهنا فى الأفخارستية يستطيع الروح القدس بنوره وتأثيره أن يفتح أذهاننا ، فندرك جيداً أن المسيح لا يقدم لنا جسده مرة ثانية وبطريقة حرفية ، بل كيف أن المسيح قد قدم جسده لأجلنا . لأن المسيح لا يريد أن يطعم أجسادنا من جسده ، بل أن يغذى أرواحنا (٤٦) .

إن هذا لا يقلل بأى حال من الأحوال من أهمية وضرورة الأفخارستية . فإن المصلح يشدد على أن فريضة العشاء عمل إلهى قد مارسه الرب نفسه ، وأمر بممارسته على مر الأجيال : فهو وسيلة مهمة جداً لتغذية نفوسنا ونمونا فى الحياة الروحية . لا بل إن الفرائض مثل كلمة الله مبنية ومؤسسة على الوحى المقدس ، وليس من حقنا رفض هذه الوسيلة التى يستخدمها الله فى تقوية إيماننا الضعيف المتغير (٤٧) .

إن الله يستخدم هذه الفرائض الخارجية المحسوسة ، لكى يوصل ويشرح لنا حقائق روحية . فإن العشاء الربانى يشير إلى موت وقيامة المسيح . فإن كان العماد يشير إلى الإنضمام فى جسد الرب ، فإن العشاء الربانى يشير إلى عملية التغذية لأرواحنا ، ثم لعملية الفداء التى قام بها المسيح على الصليب . ففى اشتراكنا فى

45- Rilliet. 115-117
46- Inst. 4.3
47- Inst. 4. 17. 6; Niesel 34

المائدة ؛ الوليمة التى يدعونا إليها الابن ، نشترك أيضاً فى كل الخيرات والبركات السماوية التى وعد بها الله . ولكن يعترض البعض على كلفن قائلين إن هذه الخيرات والبركات الروحية لا تُمنح لنا عن طريق الاشتراك فى المائدة بل عن طريق الإيمان . ويجيب كلفن بالقول ، بأن هذه الخيرات والبركات الروحية لا تصل قط إلا إلى الذين أصبحوا ملكاً للمسيح ، والمسيح أصبح ملكا لهم . وعندما يصير الإنسان ملكاً للمسيح فإنه يشترك معه فى بركاته (٤٨) .

ويحذر كلفن من الخلط بين الفريضة وما تشير إليه الفريضة . فإنه ينتقد بشدة الذين ينظرون إلى الفريضة كما لو كانت هى الأساس ، والتى تمنح الخلاص . إن فريضة العشاء الربانى تشير إلى موت المسيح وفدائنا . فعندما نشترك فى المائدة يجب أن تمثل أمام عيوننا هذه الحقيقة . وإلا ماذا ينفعنا إذا اشتركنا فى الخبز والخمر ، أو ماذا ينفع العماد إن لم نتطهر ونغتسل فعلاً من خطايانا . إن أهمية الفرائض كامنة ، ليس فى العلامة الخارجية الخبز والخمر أو الماء ، بل فى الوعد الذى وعد به المسيح ، والذى تشير إليه هذه الفرائض ، وهو قبولنا فى كنيسة المسيح التى هى جسده ، واشتراكنا روحياً فى جسد المسيح (٤٩) .

فإن المواد المستعملة فى الفرائض : الماء والخبز والخمر لاقيمة لها فى حد ذاتها . فإن الخبز والخمر لا يمنحان من ذاتهما — بأى حال من الاحوال — الحياة الأبدية . إن الذى يغير هو شخص المسيح الذى تشير إليه هذه الفرائض .

ولقد قال كلفن فى عظة له (لو ٤ : ٢ — ٢١) ما ملخصه «إن هذه العلامات (يقصد الفرائض) قد أُعطيت لنا لكى نفهم بها وعن طريقها مجد المسيح الذى لا يمكننا أن نفهمه بطريقة مباشرة . فهى صورة منظورة للأشياء غير المنظورة التى وعدنا بها الله . ولا يجب الخلط بين العلامات المنظورة ،

48- Inst. 4.17. 10-12; F. Wendel 256-257
49- Inst. 4.17. 11-12; Wendel 255-258

وما يحتويه العشاء الربانى من حقيقة روحية . فإن هذه العلامات الخارجية تعلن لنا أن جسد يسوع مأكل روحى حقيقى وأن دمه مشرب حقيقى : « هما طعامنا للحياة الابدية » (٥٠) .

هل هذا يعنى بأن المؤمن لا يتناول الا خبزاً ونبيذاً مجردين من جسد المسيح ؟ وهنا يحاول كلفن أن يميز موقفه العقيدى عن لوثر وزونكيلى . كتب مصلح جنيف بحثاً فى سنة ١٥٤١ لمعالجة هذا الموضوع ، حيث يقول فيه ما ملخصه « اذا سئلنا فيما اذا كان الخبز والخمر هما جسد المسيح ، فإننا نجيب بأن الخبز والخمر هما علامتان يمثلان الجسد والدم . ولكن هاتان التسميتان جسد ودم أعطيا لهما لأنهما أداتان استخدمهما الرب يسوع لتوزيعهما علينا (٥١) . ولكى يوضح كلامه رجع إلى حادثة ظهور الروح القدس ليوحنا على شكل حمامة . فإن الروح القدس غير منظور ومع ذلك فإنه استخدم هيئة منظورة لكى يستطيع يوحنا أن يراه . وهذا يشبه إلى حد كبير اشتراكنا فى جسد المسيح . إنه سر روحى لا يمكن أن يرى بالعين أو يسمع بالآذان أو يفهمه العقل . إن هذه الحقيقة ، أى حقيقة وجود المسيح فى الخبز والخمر حقيقة روحية ، وليست حقيقة مادية . هو حاضر روحياً ومع ذلك لا يجب تحديده وتقيده بمادتى الخبز والخمر . إنه موجود وحاضر ولا يمكن للعين البشرية أن تراه . إن يوحنا لا يرى إلا شكل الحمامة . وإن المشترك لا يرى إلا الخبز والخمر وفيهما يحضر المسيح روحياً . إن الذى يساعد المؤمن على إدراك حضور المسيح هو الروح القدس الذى يعطى بقوته التأثير اللازم لإدراك هذه الحقيقة الروحية . فهو الذى يرفع بقدرته المشترك إلى فوق ، لكى يفهم ما هو سماوى . وعندما يعمل الروح القدس فيه ، عندئذ يدرك جيداً بأنه يتغذى روحياً من جسد ودم المسيح ، وأن هذا الطعام الذى يتناوله هو فعلاً جسد المسيح الروحى (٥٢) .

وهو نفسه المُقِّدم والمُقّدَم بطريقة روحية . إن المسيح يحضر روحياً فى

50- Wendel 257-259; Inst. 4.17.4
51- F. Wendel 259
52- Inst. 4. 17. 32-33

نفس الوقت الذى تقدم فيه العلامات الخارجية : «يعنى الخبز والخمر» شدَّد كلفن على فكرة الحضور الروحى . وهنا يختلف فى مفهومه للأفخارستية عن الكنيسة الكاثوليكية وعن لوثر وعن زونكيلى . فإن الكنيسة الكاثوليكية نادت بفكرة التحول (Transsubstantiation) . وهذا يعنى فى المفهوم الكاثوليكى تحول الخبز والخمر إلى جسد ودم يسوع المسيح . أى أن مادة الخبز والخمر تحولتا جزئياً وكلياً إلى جسد المسيح . فمع أن الخبز والخمر يظلان حسب الظاهر خبزاً وخمراً ولا يفقدان أى شىء من خواصهما الطبيعية لا فى الطعم ولا فى اللون ، إلا أنهما تتحولا بطريقة معجزية إلى دم ولحم يسوع المسيح . فإن جسد المسيح حل محل الخبز والخمر ، ورفض كلفن هذ المفهوم (٥٣) . كما أنه رفض المفهوم اللوثرى ، وهو الحضور المزدوج (La Conssubstantiation) ، وهى النظرية التى تعلّم بأن المسيح يحل فى الخمر وفى الخبز بطريقة فعلية وحقيقية وحرفية ، على أن هذا الحلول لا يعتبر حلولاً بديلاً بل يعتبر ازدواجياً ، لأن حلول المسيح فى هاتين المادتين : الخبز والخمر لا يلاشى ـــ بأى حال من الاحوال ـــ الخبز والخمر . فإن لوثر يعتقد بأن الخبز يظل خبزاً . والخمر يظل خمراً بعد كما كانا قبلاً . ولكى يثبت لوثر عقيدته فى الحضور المزدوج والحقيقى رجع إلى بعض النصوص الكتابية : (مت ٢٦ : ٢٦ ـــ ٢٩ ، مر ١٤ : ٢٣ ـــ ٢٥ ، لو ٢٢ : ١٥ ـــ ٢٠ ، ١ كو ١١ : ٢٣ ـــ ٢٥) . ولقد رفض لوثر أى تفسير رمزى لهذه النصوص أو النصوص الأخرى التى تتكلم عن أن المسيح أعطى فعلاً وبطريقة حرفية جسده . وأننا نشترك فعلاً بطريقة حرفية فى تناول جسد المسيح ، على أن حضور المسيح لا يلاشى حضور الخبز والخمر . فإن الحضور الذى يتكلم عنه لوثر هو حضور مزدوج الخبز والخمر من ناحية ، والجسد والدم من ناحية أخرى ، مثل عملية التجسد (٥٤) . والفرق بين مفهوم لوثر ومفهوم الكنائس التى تتمسك بالتحويل الكلى والجزئى : هو أن لوثر ينادى بأن حضور المسيح حقيقة حرفية ولكنها لا تلاشى حقيقة وجود الخبز والخمر ، بينما الكنائس التى

53- Inst. 4.17.12-15

٥٤ ـــ الدكتور القس حنا جرجس ، مارتن لوثر ١٧٩ ـــ ١٧٢ ، تاريخ الفكر المسيحى ٣٢٢ ـــ ٣٣٢
Inst. 4,17.16; Wendel 258-261

تنادى بالتحويل فهى تعلم بأن وجود جسد المسيح ودمه لاشى عنصرى الخبز والخمر .

وكما رفض مفهوم الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة اللوثرية ، فإنه رفض أيضاً مفهوم زونكيلى . فإن هذا الأخير يعتقد بأن فريضة العشاء الربانى تعنى ذكرى لموت وقيامة يسوع المسيح . ولذلك فإنه فى كل مرة يجتمع الأخوات والإخوة حول المائدة يتذكرون موت ذاك الذى أسلم نفسه من أجلهم ، ثم ينادون بخبز الخلاص العظيم الذى قدمه المسيح للعالم بموته .

فمع أن مصلح جنيف يذكر مراراً وتكراراً حقيقة وجود المسيح بطريقة روحية فى العشاء الربانى ، إلا أنه يحذر من الخوض فى الخيالات والخزعبلات كما لو كنا نتناول أثناء العشاء الربانى سائلاً مادياً أو جوهراً سماوياً عن طريقه يأتى جسد المسيح ويندمج فى أجسادنا . فهو يعلِّم بأن المسيح حاضر فعلاً وحقاً فى المائدة ولكن بطريقة روحية (٥٥) ، وليس بطريقة مادية ملموسة محسوسة كما علَّم بذلك معلمو القرون الوسطى ، الذين كانوا يعتقدون بأن حضور المسيح فى الأفخارستية هو حضور محسوس وملموس ، كما لو كان المسيح ينزل من السماء بناسوته ويحل فى المائدة ، لدرجة أنه يمكن لمسه بالأيدى ومضغه بالأسنان وبلعه بالحنجرة (٥٦) .

ويرفض كلفن هذه التعاليم لأنه كان يعتقد بأن ناسوت المسيح موجود فى السماء . وهنا نلاحظ الاختلاف بينه وبين لوثر . فإن هذا الأخير قد علَّم بعقيدة وجود الناسوت فى كل مكان وفى نفس الوقت (Ubiquité) ، أما كلفن فإنه يعتقد بأن الذى صعد بطريقة منظورة أمام التلاميذ ، (أع ١ : ٣ ، ٩ ، ٧ : ٥٥ ، ٩ : ٣ ـــ ٥) هو المسيح كله ناسوت ولاهوت ، وأن المسيح جالس عن يمين الآب محتفظاً بناسوته (٥٧) . ولذلك فإن المسيح المقيم فى السماء مع الآب وعن يمينه لا ينزل فى المائدة ، بل إنه يحضر بطريقة روحية .

55- Wendel 260-262; Niesel 50; Gollwitzer. Coen a Domini 118-122
56- Inst. 4.17. 12-16; Rilliet 115-118
57- Inst. 4.17.17. 26, 27, 30. Rilliet. 115-118

إن الشركة التى تتم فى الافخارستية بين المسيح المقدم وبين المؤمن المشترك ، تتم عن طريق عمل الروح القدس . فهو الذى يعمل بتأثيره وقوته فى المختارين لكى يعلن لهم هذا الحق العظيم الثمين ، وهو أن المسيح يقدم نفسه كفداء للنفوس الجائعة والعطشى روحياً ، وأن العلاقة بين المؤمن الموجود على الأرض والسيد المقام الجالس عن يمين الآب ، تتم عن طريق وساطة الروح القدس[٥٨].

ويحث كلفن الكنيسة على ممارسة العشاء الربانى فى فرص متقاربة ، وإذا كان ممكناً أسبوعياً [٥٩]. ولكنه — للأسف الشديد — لم يستطع أن ينفذ هذه الرغبة فى مدينة جنيف . بل كانت تمارس الفريضة مرة كل شهر أو ثلاثة شهور تقريباً . إن الذى يدرس مفهوم كلفن لعقيدة العشاء الربانى ، يلاحظ كيف أن المصلح الفرنسى استطاع أن يقدم مفهوماً معتدلاً بين اللوثرية التى تأثرت كثيراً بالعقيدة الكاثوليكية فعلمت بالحضور المزدوج ، وبين الزونيكيلية التى تطرفت فى استعمالها للطريقة الرمزية ، فجردت الفرائض نوعاً ما من معناها . إن كلفن نبَّر بشدة على حقيقة أن العشاء الربانى هو طعام روحى يقدمه المسيح نفسه ، وهو ضرورى لنمو المؤمن فى حياته الروحية ، وأن المسيح حاضر بنفسه وبطريقة روحية فى هذه الفريضة ، وأن الروح القدس هو الذى يعمل فى قلب المشترك حتى يدرك بنعمته أهمية هذا الطعام الذى يتناوله : إنه ليس مجرد خبز ونبيذ فقط ، بل إن المسيح الذى قدم نفسه مرة واحدة على الصليب حاضر بطريقة روحية وفعالة فى هذا الخبز وهذا الخمر .

والمسيح الذى هو حاضر بطريقة روحية فى هذا الخبز ، هو نفسه الذى يعمل بروحه فى قلوب المشتركين ، لكى يقوى إيمانهم ويعمق اختبارهم . لأن المسيح الروحى الذى هو حاضر بطريقة غير منظورة وملموسة فى الفرائض ، هو وحده — وليس عناصر الفرائض الطبيعية — الذى يقوى الإيمان ويعمق الثقة ، لأنه هو

58- Inst. 4.17.33
59- Inst. 4.17,43

الراعى الصالح الذى أحب كنيسته وأسلم نفسه من أجلها ، وأعطى لها الوعد الصادق وللإيمان بحضوره المستمر ، عندما قال : « وها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر » . آمين (متى ٢٨ : ٢٠) .

الفصل السادس

بعض المراجع عن إقامة كلفن المرة الأولى والثانية فى جنيف .

Doumergue, Op. Cit. t.2, p. 177; Borgeaud, La Conquete Religieuse de Geneve, dans l'ouvrage collectif Guillaume Farel Neuchatel 1930. p. 336; H. Heyel, l'Eglise de Geneve, Borgeaud, l'Adoption de la Réforme a Geneve; H.D. Foster, Geneva Before Calvin American Historical Review 8, 2. 1903; Hugh Y. Reyburn, John Calvin (London 1914); W. Walker. John Calvin; Wendel Op. Cit., 27-44

الفصل الثامن

بعض المراجع لدراسة قضية ميشيل سرفه

Doumergue Op. Cit. t. 6 pp. 173-372; N. Weiss, Calvin G. de Trie et Le Tribunal de Vienne (Bull. de la Soc. de l'hist du Protest, Fr...1908, t..17 pp. 387-404; F. Wendel 64-70; A. Rassert 152-179; Voir Pes Actes de Procés au Tome 8; p.612 des oeuvres de Calvin....contre M. Servet par Rilliet de Candolle.. t. 3. 1844; A.M. Schmidt, pp 66-68, Benoit 116-132, J. Cadier l'homme.... 149-186, Cadier Mythes lll; Op. Calvin t. 8 p. 721-872; Roland Bainton, M. Servet, Heretique et Martyr Geneve 1953; Eugene Choisy 142-201; Harkness 39-44, Walker.

ان كل الوثائق الخاصة بقضية ميشيل سرفه موجودة فى Op. Calvin T. 8, p. 721-872

مصلح فى المنفى . دكتور هارى ايرتس ترجمة وليم وهبه بباوى ٥٦ ــ ٥٩ .

حديث مع جون كلفن د. لبيب مشرق ٧٥ ــ ٧٦

الفصل التاسع

بعض المراجع عن الاكاديمية وأيام كلفن الأخيرة .

G. Harkness, John Calvin, The Man and His Ethics, 46-60; Walker 436, Reyburn 274; Cadier, Mythes, 133-138; Cadier l'homme 163-177; Rilliet. 240-260, M. Brunel 140-147, Benoit 133-162, F. Wendel 72-75

الجزء الثانى : الفصل الأول

بعض المراجع عن مفهوم كلفن للوحى الالهى والوحى الطبيعى

Benjamin B. Wairield, Calvin's Doctrine of the Knowledge of God in the Princeton Theo ..... Rev. 1209, p. 219-325, N.Y. 1931, W. Niesel 9-53, T.H. L. Parker, The Doctrine of the Knowledge of God, A Study in the Theology of John Calvin, Edinbourg 1952, J. N. Thomas, The Place of Natural Theology in the Thought of John Calvin in: Journal of Rel.... Thought, 1958, p. 108, Thomas F. Torrance, Knowledge of God and Speech About Him According to J. Calvin, Gerard J. Postema, Calvin's Alleged Rejection of Natural Theology in Scotland....Jou....Londre, 1971, 423-434; Paul Lobstein, La Connaissance, Religieuse d'apres Calvin, Emile Doumergue, J. Calvin.... T. 4, p. 41-53; Wendel, p. 110-122; Edward A. Dower, The Knowledge of God in Calvin Theology, N.Y. 1952

بعض المراجع عن مفهوم كلفن للكتب المقدسة والروح القدس

Benjamin B. Warfield, op cit. p. 219-325, N.y. 1931; E. Doumergue, T. 4, pp 54-82; J. Pannier, le te Moignage du St. Esprit. Paris 1893; Ellis Gauteron, l'autgorité de la Bible d'aprés Calvin; Jules Chapuis, Le Témoignage du St. Esprit dans La Theologie de Calvin, Paul Lobstein, Jules Marcel Nicole, Calvin homme de la Bible, Alex Christie, The Doctrine of the Holy Scripture in Calvin and Brunner....Rev. N.Y. 1940, 41.p. 19-32, 116-127, 325-350; Paul L. Lehman, The Reformer's Use of the Bible, Londres 1946; Wendel, 110-122; A. Dowey, The Knowledge of God in Calvin's Theology; T.H.L. Parker, The Doctrine; J.K.S. Reid, The Authority of Scripture; John T. McNeil, The Significance of the Word of God for Calvin; Walther Kreck, Parole et Esprit Selon Calvin; A.D.R. Polman, Calvin on Inspiration of Scripture...John Murray, Calvin on Scripture and Divine Sovereignty; Philip Edgcombe Hugues, The Inspiration of Scripture in the English Reformers Illuminated by John Calvin, Rev. 1960-1961, p. 129-150; Stauffer 55-104. Jacques Pannier, L'autorité de l'Ecriture sainte d'aprés Calvin, Montauban, 1906; Jules Chapuis, Le témoignage du Saint-Esprit dans la theologie de Calvin, Lausanne, 1909;

Paul Lobstein, La connaissance religieuse d'aprés Calvin, Paris, 1909, reed, sous forme abregée dans: Paul Wernle, Der evangelische Glaube nach den Hauptschriften der Revormatoren, tome 3, Tubingen, 1919, p. 167-186; Reinhold Seeberg, Lehrbuch der Dogmengeschichte, vol. 4:2, Erlangen, 1920, 6 ed, Bale et Stuttgart, 1960, p. 566-569; J.A. Cramer, De Heilige Schrift bij Calvin, Utrecht, 1926; Otto Ritschl, Dogmengeschichte des Protestantismus, tome 3, Gottingen, 1926, p. 63 ss; Peter Brunner, Allgemeine und besondre Offenbarung in Calvins Institutio, in: Evangelische Theologie, Munich, 1934, p. 189-215; Peter Barth, Das Problem der naturlichen Theologie bei Calvin, Munich, 1935; Henri Clavier, Etudes sur le calvinisme, Paris, 1936, p. 1-140; Wilhelm Niesel, Die Theologie Calvins, Munich, 1938, 2 ed. 1957, p. 23-38

Wilhelm-Albert Hauck, Christusglaube und Gottesoffenbarung nach Calvin, Gutersloh, 1939; Alexander Christie, The Doctrine of Holy Scripture in Calvin and Brunner, in: Union Seminary Quarterly Review New York, 1940?1941, p. 19-32, 116-127 et 325-350; Olavi Castren, Die Bibeldeutung Calvins, Helsinki, 1946; Rupert E. Davies, The Problem of Authority in the Continental Reformers, Londres, 1946; 2ed. 1964; Ronald S. Wallace, Calvin's Doctrine of the Word and Sacrament, Edimbourg et Londres, 1953; J.K.S. Reid, The Authority of Scripture; A Study of the Reformation and Post Reformation Understanding of the Bible, New York, 1958; John T. McNeill, The Significance of the Word of God for Calvin, in. Church History, Berne, Indiana, 1959, p. 131-146; H. Jackson Forstman, Word and Spirit; Calvin's Doctrine of Biblical Authority, Stanford (Californie), 1962; Richard C. Prust, Was Calvin a Biblical Literalist? in: Scottish Journal of Theology, Edinbourg, 1967, p. 312-328; et Ford Lewis Battles, God Was Accommodating Himself to Human Capacity, in: Interpretation, Richmond (Virginia),1977, p. 19-38.

الفصل الثانى

بعض المراجع عن مفهوم كلفن لمشكلة الثالوث

Eduard Bahler, Putrus Caroli und Johannes Calvin; Ein Beitrag zur Geschichte und Kulter der Reformationszeit, in: Jahrbuch fur schweizerische geschichte, Zurich, 1904, p. 39-168; Benjamin B. Warfield, Calvin's Doctrine of the Trinity, in: The Princeton Theological Review, 1909, p. 553-652, reed. in: Calvin and Calvinism, New York, 1931, p. 188-284; Emile Doumergue, Jean Calvin, Les hommes et les choses de son temps, tome 4, Lausanne, 1910, p. 92-103; Paul Wernle, Der evangelische Glaube nach den Hauptschriften der Revormatoren, tome 3, Tubingen, 1919, p. 34-38 et

135-137; Pontien Polman, L'élément historique dans la controverse religieuse du XVI siecle, Gembloux, 1932, p. 65-94; Egbert Emmen, De Christologie van Calvin Amsterdam, 1935, p. 15-38; Ernst Wolf, Deus omniformis. Bemerkungen zur Christologie des Michael Servet, in: Theologische Aufsatze. Karl Barth zum 50. Geburstag, Munich, 1936, p. 443-466; Wilhelp Niesel, Die Theologie Calvins, Munich, 1938, 2 ed. 1957, p. 53-59; Francois Wendel, Calvin Sources et évolution de sa pensée religieuse, Paris, 1950, p.122-125; Jan Koopmans, Das altkirchliche Dogma in der Reformation, Munich, 1955; Werner Krusche, Das Wirken des Heiligen Geistes nach Calvin, Gottingen, 1957, p. 1-13; Stephen M. Reynolds, Calvin's View of the Athanisian and Nicene Creeds, in: Westminster Theological Journal, Philadelphie, vol. 23, 1960/1961, p. 33-57; H.A. Zigmund, Calvin's Concept of the Trinity, in: Hartford Quarterly, Winter 1965, p.58-64; Antonio Rotondo, Calvino egli antritrinitari Italiani, in: Rivista Storica Italiana, 1968, p.759-784, trad anglaise par John et Anne Tedeschi: Calvin and the Italian Anti-Trinitarians, in: Reformation Studies and Essays, 2, Saint-Louis (Missouri), 1968; la traduction anglaise a fait l'objet d'une etude critique due a E. David Willis et publiee dans: Archiv fur Reformations-geschichte, 1971, p. 279-282; Richard Stauffer, Histoire et théologie de la Reforme, in: Problemes et Methodes d'histoire des religions, Paris, 1968, p. 261-269; Willem Nijenhuis, Calvin's Attitude towards the Symbols of the Early Church during the Conflict with Caroli, in: Ecclesia reformata: Studies on the Reformation, Leyde, 1972, p. 73-96; Hans Helmut Esser, Hat Calvin eine [leise modalisierende Trinitatslehre] ? in: Calvinus theologus, Neukirchen-Vluyn, 1976, p. 113-129; et Daniele Fischer, La polemique antiromaine dans d'Institution de la religion chretienne de Jean Calvin (these dactylographiee), Strasbourg, 1974, p. 272-308. Institution R.C. 1. 13, 1-29; F. Wendel, Op Cit, 122-125; R.S. Wallace 5-8

الفصل الثالث

بعض المراجع عن مفهوم كلفن لمشكلة الخليقة والملائكة والشياطين

Emile Doumergue, Jean Calvin. Les hommes et les choses de son temps, tome 4, Lausanne, 1910, p. 104-110; Paul Wernle, Der evangelische Glaube nach den Hauptschriften der Reformatoren, tome 3, Tubingen, 1919, p. 186-214; Benjamin B. Warfield, Calvin's Doctrine of the Creation, in: The Princeton Theological Review, 1915, p. 190-255, reed, in: Calvin and Calvinism, New York, 1931, p. 287-343; Harmannus Obendeik, Der alt bose Feind Das biblisch-reformatorische Zeugnis von der Macht Satans, Neukirchen bei Moers, 1930; Gunter Gloede, Theologia Naturalis bei Calvin, Stuttgart , 1935 , p . 10 - 42 , 72 - 98 et 135 - 147; W.E. Den Hertog ,

De Anthropologie van Calvijn, in: Vox Theologica, 1938, p. 137-148; Roy W. Battenhouse, The Doctrine of Man in Calvin and in Renaissance Platonism, in: Journal of the History of Ideas, New York, 1948, p. 447-471; Thomas F. Torrance, Calvin's Doctrine of Man, Londres, 1949; Francois Wendel, Calvin, Sources et évolution de sa pensée religieuse, Paris, 1950, p. 125-131; John Murray, Calvin's Doctrine of Creation, in: The Westminster Theological Journal, Philadelphie, 1954?1955, p. 21-43; Werner Krusche, Das Wirken des Heiligen Geistes nach Calvin, Gottingen, 1957, p. 15-55; Jean Boisset, Sagesse et sainteté dans la pensée de Jean Calvin, Paris, 1959, p. 17-23 et 255-262; Walter E. Stuermann et Konstantin Geocaris, The Image of Man, The Perspectives of Calvin and Freud, in: Interpretation, Richmond (Virginie), 1960, p. 28-42; Edward Rosen, Calvin's Attitude Toward Copernicus,in: Journal of the History of Ideas, New York, 1960, P. 431-441; Joseph Ratner, Some Comments on Rosen's [Calvin's Attitude Toward Copernicus], ibid, 1961, p. 382-385; Edward Rosen, A Reply to Dr. Ratner, ibid, 1961, p. 386-388; Alexandre Koyre, Du monde clos a l'univers infini, Paris, reed. 1973; Andre Bieler, L'homme et la femme dans la morale calviniste, Geneve, 1963, p. 35-88; Pierre Ch. Marcel, Calvin et la science: Comment on fait l'histoire, in: La Revue réformee, Saint-Germainen-Laye, no. 68, 1966? 4, p. 50-51; Gerd Bockwoldt, Das Menschenbild Calvins, in: Neue Zeitschrift fur systematische Theologie und Religionsphilosophie, Berlin, 1968, p. 170-189; Charles A.M. Hall, With the Spirit's Sword. The Drame of Spiritual Warfare in the Theology of John Calvin, Zurich, 1968, p. 38-50, 55-77 et 77-78; Robert Lenoble, Esquisse d'une histoire de l'idée de nature, Paris. 1969; Charles Partee, The Soul in Plato, Platonism and Calvin, in: Scottish Journal of Theology, Edimbourg, 1969, p. 278-295; Paul W. Pruyser, Calvin's View of Man: A Psychological Commentary, in: Theology Today, Princeton, 1969/1970, p. 51-68; Richard Stauffer, Calvin et Copernic, in: Revue de l'Histoire des Religions, Paris, 1971, p. 31-40; Edward Rosen, Calvin n'a pas lu Copernic, Ibid, 1972, p. 183-185; Richard Stauffer, Réponse a Edward Rosen, ibid, 1972, p. 185-186; Richard Prins, The image of God in Adam and the Restoration of Man in Jesus-Christ. A Study in Calvin, in:Scottish Journal of Theology, Londres, 1972, p. 32-44; Richard Stauffer, L'éxégese de Genese 1/1-3 chez Luther et Calvin, in: In principto. Interpretations des premiers versets de la Genese, Paris, 1973, p. 245-266; S. Van der Linde, Calvijn en de geschapen werkelijkheid, in: Wapenveld, Kwintsheul (Pays-Bas), 1974, p. 168-178, et Gerd Babelotzky, Platonische Bilder und Gedankengange in Calvins Lehre vom Menschen, Wiesbaden, 1977; Wilhelm Niesel, The Theology of Calvin translated by Harold Knight; L'Institution de la Religion Chrétienne 1.13-15; 2.1-6.

الفصل الرابع

بعض المراجع عن مفهوم كلفن للعناية الالهية

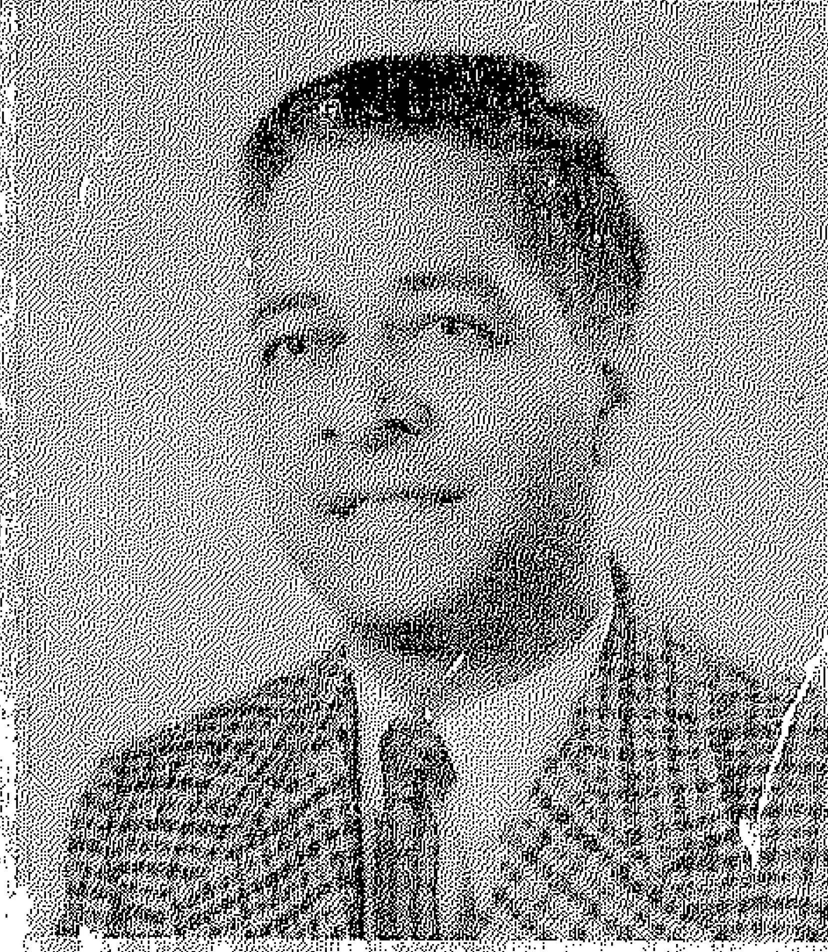
Wilhelm Niesel 60-38; H. Strohl la Pensée de Calvin sur la Providence Divine.... (Rev. d'Hist...1942. T. 22, pp. 154-169; E. De Peyer Calvin's Doctrine of Divine Providence, Londres T.10, pp. 30-44; Wernle 303-322; Emile Doumergue, op.cit. Tome 4, 111-118; Aug. Lecerf, Souveraigneté Divine et Liberté Cree in Bul.... du la Soc... Cal. No. 16, Decembre 1933, p. 2-8 et No. 28, Feu. 1934, p. 3-6; Charles Brooks Partee... Calvin and Classical Philosophy.

الفصل الخامس

بعض المراجع عن مفهوم كلفن لمشكلة الاختيار السابق

J.C. Institution 3. 21-24; J.C. Commentaire sur le N.T. T.4. Epit... aux Romains: A. Kuyper, Calvinism and Confessional Revision (The Presbyterian and Reformed Review, 1891, pp. 379... Doumergue T.4. 351-416; Goumaz 261-273; Wernle 276-305; Seeberg, T.4.2, pp. 578-; A. Lecerf le Determinisme et la Responsabilité dans le Systeme de Calvin. Paris 1895; l'Eléction et la Sacrrement: G. Deluz Predestination et Liberte, Neuchatel 1942; W. Niesel 159-181; L. Boettner, The Reformed Doctrine of Predestination; E. Choisy 122-142; J. Rilliet 111-115; Karl Barth, 2, Vol. T.2.1-516; Otto Weber, 75-81; Karl Barth, Petit Com. de l'Epit... aux Romains. 105-137; F.J. Leenhardt, l'Epit.... de St. Paul aux Romains, 138-168; Liston, R.T.L., John Calvin's Doctrine of the Sovereignty of God; Warfield B. Calvin's of God, The Princeton Theo.... Rev. 1909, p.381-436; Sanday, William, A Critical and Exegetical Commentary on the Epistle to the Romans.

الدكتور القس حنا جرجس الخضرى



ـ ولد فى ١٩٣٥/٨/١١

ـ بكالوريوس فى العلوم اللاهوتية (١٩٦٤).

ـ درس فى كلية لاهوت جنيف بسويسرا وكلية لاهوت مونبلييه بفرنسا، ومن الأخيرة حصل على درجة الدكتوراه فى اللاهوت برسالة موضوعها «ناسوت يسوع المسيح فى تعاليم كارل بارت».

ـ قام بالتدريس بكلية اللاهوت الانجيلية بالقاهرة من ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩.

يرعى حالياً ٣ كنائس مشيخية فى فرنسا، الى جانب قيامه بالتدريس بعض الوقت فى كلية اللاهوت الانجيلية بالقاهرة وكلية اللاهوت فى الشرق الادنى.

ـ الف موسوعة تاريخ الفكر المسيحى (صدر منها جزآن حتى الان) والف كتابا عن مارتن لوثر.

١٠١٠٦٩٠١

02